وزارةالتعليم العالي والبحث العلمي
جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
قسم العلوم الإنسانية

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه

الشعبة: تاريخ

التخصص: تاريخ الجزائر العمراني الحديث والمعاصر (1519-1962)

العنوان

انحصار نشاط المدن العثمانية في الجزائر بعد الاحتلال الفرنسي

من إعداد الطالب:
عابد بيبي

بإشراف:
د / أحمد رنيمه

بلعالية ميلود	أستاذ التعليم العالي	جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف	رئيسا
أحمد رنيمه	أستاذ محاضر أ	جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف	مقررا
بن حدادو بن عمر	أستاذ التعليم العالي	جامعة وهران 02	عضوا
فارس العيد	أستاذ محاضر أ	جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف	عضوا
صادوق الحاج	أستاذ محاضر أ	جامعة الجزائر 02	عضوا
سريج محمد	أستاذ محاضر أ	جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف	عضوا

السنة الجامعية 2021-2022

الإهـــداء

أهدي ثمرة عملي إلى الوالدين الراحلين اسكنهما الله تعالى فسيح جناته

وإلى الزوجة الكريمة التي كانت خير معين في تحمل أعباء الحياة

إلى أولادي الأعزاء يونس، حمزة، بشرى وأمير عبد القادر شفاه الله.

إلى الغالية فاطمة حاجي وإخوتي

أهدي هذا العمل

عابد بيبي

شكر وعرفان

لا يسعني إلا أن أشكر الله تعالى على دوام نعمته ومنى عليا من نعم الصحة والعقل والعافية في إتمام هذا العمل، كما أتوجه بشكري الخالص إلى الأستاذ أحمد رنيمه الذي شجعني على خوض غمار هذا البحث، وإشرافه الجاد والذي تابع جميع مراحل العمل منذ البداية إلى غاية النهاية رغم ارتباطاته الكثيرة. فله مني جزيل الشكر والعرفان.

كما أوجه شكري إلى الأستاذ بلعالية الميلود (أستاذي في مادة التاريخ خلال ثمانينات القرن الماضي) الذي بدوره قدم لي خدمات جليلة طوال فترة البحث، والذي زودني بعدد من المراجع. وكذا إلى زملائي في العمل وكل أصدقائي المخلصين وأخص بالذكر إبراهيم وعبد الله والهادي ومحمد وأمين وعدة ... إلى كل هؤلاء أقدم تحياتي القلبية راجيا من الله تعالى رفع هذا الوباء ودوام العافية وحسن العاقبة.

إلى الذين أناروا طريق العلم والمعرفة... وكل أساتذتي بقسم العلوم الإنسانية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بجامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف، الذين لم يبخلوا عني بإرشاداتهم وتوجيهاتهم في سبيل تكملة هذا البحث.

عابد بيبي

المقدمة

المقدمة:

من المؤكد أن تاريخ دولة الجزائر الحالية، تاريخ عريق وحافل بالأحداث والإشكالات الهامة والجديرة بالدراسة، ولعل موضوع المدن التي تأسست وعمرت بها هي من بين تلك المواضيع الأساسية التي لا يزال البحث فيها يحتاج إلى تنوع وتعمق، ذلك أن هذا الموضوع يمثل جانب من جوانب الحياة التي عرفت الإشراق والنمو في هذه الدولة التي وُجدت منذ القديم.

كثيرة هي الجوانب التي تناولها العديد من الدارسين والباحثين المرتبطة بالحياة السياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية لهذه البلاد، ولكن الدراسات المتعلقة بالجانب العمراني لها بقيت فقيرة وقليلة مقارنة بتلك الموضوعات، وأن مسألة الكتابة الخاصة بالتاريخ المحلي للحياة العمرانية لا تزال تأخذ وتيرة متواضعة بها، وخاصة خلال فترة العهد العثماني الذي يمثل جزءا من التاريخ الجزائري. وإن قلة المعلومات عن تاريخ المدن الجزائرية في هذه الفترة مرده إلى قصور المعلومات وعدم الاهتمام بالدراسات العمرانية وتدوين تاريخ المدن كما كان يحدث في فترات سابقة[1] وكذلك إساءة الغربيين أو بالأحرى المصادر الأوروبية المتمثلة في سجلات القنصليات وروايات الرحالين الذين صوروا الجزائر على أن هذا العهد هو عهد تخلف كامل.

ولعل هذا من بين الأسباب التي حفزتني إلى البحث في هذا الموضوع والخوض فيه من أجل المساهمة في إحياء التاريخ العمراني كتخصص علمي في الأوساط الجامعية وكذا الحث على إعادة النظر في النسيج العمراني وتخطيط المدن في الجزائر التي صارت مدنها هياكل من غير روح وحجارة لا هوية لها.

وكون هذا البحث يحتاج إلى دراسة تاريخية معمقة والغوص في مسألة الكشف عن الحقائق والاهتمام بكل الكتابات والدراسات التي دونت للفترة الحديثة والمعاصرة لموضوع

[1]– لقد انتشرت ظاهرة التاريخ العمران بشكل مكثف خلال فترة حكم الخلافة العباسية وما بعدها، وألفت مجموعات معتبرة من الكتب حول تاريخ بغداد ودمشق والقاهرة والقيروان وبجاية وتلمسان وقرطبة وغرناطة... لكن الاهتمام بمثل هذه المواضيع قد ضعف بضعف الروح العلمية وتراجع العالم الإسلامي حضاريا.

الرسالة الموسومة **بانحصار نشاط المدن العثمانية في الجزائر بعد الاحتلال الفرنسي**، وهو موضوع له جانب كبير من الأهمية من حيث أنه لم يحض بعد بالدراسة الكافية والوافية إلى يومنا هذا.

ونتيجة للعراقيل التي تواجه معظم الباحثين، خاصة ما تعلق بنقص أو إيجاد الكتب المتخصصة، وقلة المصادر التاريخية التي تناولت تاريخ المدن عموما، والمدن العتيقة أو ما تسمى مدن سالف الزمان في المغرب الأوسط، التي أثبتت قابليتها للإستمرار في الحياة، فإن إنجاز هذا البحث يُرجى منه أن يحقق ولو جزءا يسيرا في سبيل الإلمام بهذا الموضوع، كما نرجو المساهمة في بناء صرح المعرفة التاريخية حول هذا الموضوع.

ولتحقيق هذه الدراسة كان لزاما إتباع المنهج التاريخي، وذلك بالبحث في الوثائق المكتوبة من مصادر مطبوعة وغير مطبوعة والاستعانة بكتب التاريخ العام وجمع ما ورد فيها من شذرات ومحاولة تكوين صورة واضحة عن حالة المدن الجزائرية عشية الغزو الفرنسي، مع الاستعانة بالدراسات المعاصرة، وإتباع الأدوات المنهجية المناسبة كالتحليل والمقارنة والنقد، ويبدو أنّ هذا هو أنسب في تناول هذا الموضوع والإلمام به، وكان تشجيع الأستاذ المشرف لي على الخوض فيه محفزا كثيرا.

ولدراسة هذا الموضوع والخوض فيه، لابد من تحديد محور الموضوع، وذلك من خلال طرح الإشكالية الرئيسية والمتمثلة في ما يلي: ما هو مصير نشاط المدن العثمانية في الجزائر بعد الاحتلال الفرنسي؟ ومنها تجلت لنا مجموعة من التساؤلات والتي حاولنا من خلالها الإجابة عنها والتي نوردها كما يلي:

هل كان للمدن والحواضر دور محوري في تاريخ الجزائر الحديث؟ وكيف كان تأثيرها اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا على حياة السكان بالمنطقة؟ وكيف أصبح حالها بعد الغزو الاسباني المسيحي للمغرب الأوسط؟ وهل كان للجالية الأندلسية الوافدة بعد سقوط المدن الإسلامية بالأندلس دور في عمليات تشييد وبناء مدن المغرب الأوسط وتوسيعها؟ وبعد ارتباط

الجزائر بالدولة العثمانية هل تغيرت المظاهر الحضارية للمجتمع؟ اعتبارا أن للاستقرار السياسي آنذاك وما تبعه من جلب المهارات والكفاءات تأثير في نمو المدن خاصة بعد ارتباط المجتمع الجزائري بالمجتمع الشرقي من خلال التأثيرات الحضارية التي شملت مختلف مجالات الحياة وعلى رأسها العمارة والفنون وغيرها.

وبعد الاحتلال الفرنسي للجزائر هل تعرضت مدنها إلى التغيير في خصائصها ومظاهرها العمرانية الإسلامية التي طُبعت بها؟ وهل حافظت على كيانها ومظاهرها العمرانية العربية الإسلامية أم تعرضت للهدم والتغيير في مبانيها ومنشآتها؟ وما مدى مساهمة السياسة الاستعمارية في طمس الهوية الجزائرية بعد فقدان أجزاء أساسية من نسيجها العمراني؟ ذلك الذي يمثل قيمة تاريخية تراثية ذات أبعاد رمزية وروحية وحتى جمالية نتاج حضارات سابقة. وبالتالي كانت سببا أساسيا في ضياع خصائصها التخطيطية والعمرانية التي تمثل هويتها وخصوصيتها، وعلى هذا الأساس هل تراجع نشاط المدن العثمانية في الجزائر وانحصر بعد الاحتلال الفرنسي وظهور نمط عمراني أوروبي جديد بالمنطقة؟ وما هي انعكاسات ذلك على المجتمع الجزائري؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات وغيرها، تم تقسيم هذا البحث إلى أربعة فصول وخاتمة، بالإضافة إلى مجموعة من الملاحق الأساسية.

ومن هذا المنطلق تركز الفصل التمهيدي حول موضوع المدن الإسلامية في المغرب الأوسط، وفيه تناولت نشأة وخصائص المدينة تاريخيا، خاصة إذا علمنا أنها أعظم إنجازات الإنسان، ودورها جد هام في تطور الحضارة، فهي وليدة الحضارة الإنسانية التي هي حضارة مدن قبل كل شيء. وإن كانت كل مدينة تعد في حد ذاتها عالم قائم بذاته.

بالإضافة إلى التركيز على مختلف التعاريف التي تناولت الموضوع، وكذا التطرق إلى عوامل نشأة المدن وظهورها وتطورها بشكل عام، ثم ظهور المدينة الإسلامية بعد الفتوحات وأهم خصائصها، وفي هذا الإطار تم تناول المدينة الإسلامية التي ارتبطت ارتباطا أساسيا بالإسلام كطريقة في الحياة، وتوافقها مع أحكام البناء المستمدة من الكتاب والسنة، والتي امتدت جذورها إلى مدن ما قبل الإسلام، وكأن هناك ترابط وتواصل حضاري، بداية من مدينتي مكة

المكرمة ويثرب ثم انتشار المدن عبر مختلف المناطق. فكان العامل الديني أهم ما ميز المدن الإسلامية والذي ساهم كثيرا في نشأتها، فكانت المساجد بمثابة نواة تشكيلها والمحور الأساسي في قيامها وتخطيطها. وبشكل عام فإن تخطيط المدن الإسلامية تركز على خلق التوازن وتحقيق الأمن والطمأنينة لساكنيها، هذه الأخيرة التي امتدت جغرافيا امتدادا واسعا في قارات أسيا وأوروبا وإفريقيا، وزمنيا فاقت الأربعة عشر قرنا. وكل هذا الامتداد والتوسع كانت بدايات مدنه الأولى عبارة عن معسكرات مؤقتة تخدم جيوش الفتوحات الإسلامية في شرق وغرب شبه الجزيرة العربية، إلى أن توسعت وتحولت إلى مدن عامرة وكبيرة مع مرور الزمن. أما بالنسبة لمدن المغرب الأوسط التي لها صفات وخصائص مشتركة مع المدن الإسلامية فإنها تأسست ثم تطورت نتيجة الظروف الجغرافية والعسكرية والاجتماعية والاقتصادية، والتي شكلت مع مرور الزمن تراثا معماريا ثريا، جاء نتيجة تنوع السكان واستقرار مختلف الحضارات التي مرت بالمنطقة وتعاقب الدول والممالك، كلها عوامل ساهمت في بناء الإرث العمراني بها. بالإضافة إلى الدور الذي لعبته الجالية الأندلسية بعد انتهاء الوجود الإسلامي بالأندلس على يد الإسبان وهجراتها إلى المغرب الإسلامي عامة والمغرب الأوسط خاصة، هؤلاء الذين تركوا أثارا حضارية خالدة وإنجازات عمرانية متنوعة بفضل مهاراتهم وخبراتهم التي وظفوها في المدن التي استقبلتهم بالمغرب الأوسط على الخصوص، ومما لاشك فيه، فإن إسهاماتهم كانت كبيرة في تطور وتكوين الإرث الحضاري في جانبه العمراني الذي ادخل تصاميم هندسية بأشكال مختلفة، إلى جانب أنهم قاموا باستحداث وتطوير عدد من تقنيات العمارة بالمغرب الأوسط.

أما الفصل الأول: فقد تناول الأوضاع العامة للمغرب الأوسط قبيل العهد العثماني، وبما تميزت مدنه إلى غاية نهاية القرن الخامس عشر ميلادي، هذه الرقعة الجغرافية المطلة على البحر الأبيض المتوسط التي عرفت الضعف والانقسام إلى دويلات متناحرة ومتقاتلة فيما بينها إلى أن ظهر العثمانيون مع بداية القرن السادس عشر.

لقد استغل الإسبان هذه الظروف من انقسام وحروب فيما بين الدويلات بالمغرب الإسلامي عامة والمغرب الأوسط خاصة، فقاموا بغزو واحتلال معظم مدنه ومراكزه الإستراتيجية

انتقاما من مسلمي الأندلس الفارين إلى شمال إفريقيا وخوفهم من إعادة بعث الماضي المجيد بالأندلس من جهة، ولأجل التحكم واستغلال للثروات الطبيعية والاقتصادية من جهة أخرى.

كما لعب عامل التعصب الديني المسيحي دورا كبيرا في غزو مدن شمال إفريقيا وزحزحة استقرار المنطقة. وبذلك كانت كل الظروف مواتية لغزو الإسبان لبلاد المغرب الأوسط، وحينها سقطت المدينة تلو الأخرى، خاصة المدن الساحلية بداية من المرسى الكبير عام 1505م، ثم مدن وهران وبجاية ومستغانم وغيرها، التي شهد سكانها المجازر الرهيبة والانتهاكات العديدة والتخريب في عمائرها وكل إنجازاتها سواء العسكرية والمدنية والدينية. فكان لا سبيل من الخلاص سوى بالاستنجاد بالعثمانيين، لمواجهة هذا الغزو، هؤلاء العثمانيون الذين لبوا دعوة إخوانهم أهل المغرب الأوسط، وفعلا تم تحرير الأراضي والمدن ومواجهة المعتدين الإسبان وطردهم من معظم أراضي المغرب الأوسط خلال القرن السادس عشر الميلادي. وذلك بعد أن تم ربط مصير الجزائر بالدولة العثمانية التي أصبحت فيما بعد ولاية عثمانية إلى غاية الاحتلال الفرنسي.

كما تم الطرق إلى الحياة الفكرية في هذه الفترة، التي عرفت رواجا وإشعاعا علميا أنار شمال إفريقيا كله، بعدما اهتم ملوك وحكام الدويلات بالعلم والعلماء، فكان الواقع الثقافي مغايرا للواقع السياسي، خاصة مدينتا تلمسان وبجاية اللتان كانتا تحتويان على عدد كبير من المدارس والمنشآت العمرانية العلمية والدينية المختلفة من معاهد ومساجد وكتاتيب، مما أهلهما أن تكونا قبلة للعلماء وطلاب العلم على السواء، هذين المدينتين نافستا كبريات المدن العلمية في الشرق والغرب آنذاك، فكان عهد ثقافي وفير سواء من حيث أعداد المثقفين أو العلماء وحتى المؤلفات، فكانت تلك الحواضر بمثابة مراكز علمية أضافت في رصيد الحركة الفكرية والعلمية للحضارة الإسلامية قاطبة، إلى أن حل الغزو الإسباني الصليبي ما أدى إلى التضييق على العلماء، فكان مصيرهم النفي والهجرة بحثا عن الاستقرار والأمن.

إن دراسة مدن المغرب الأوسط خلال فترة ما قبل مجيء العثمانيين تفيدنا كثيرا في فهم ومعرفة أحوال السكان السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وإمكانية التفسير والتعرف على كل

الأحداث التي وقعت آنذاك. تلك المدن التي اشتركت في كثير من خصائص ومميزات المدن الإسلامية عامة، ومن بين المدن التي عمرت بالمغرب الأوسط خلال تلك الفترة ولعبت أدوارا مهمة في تاريخ المنطقة، ومنها على سبيل الذكر لا الحصر مدن عنابة وقسنطينة وملیانة والمدية وتاهرت وغيرها، مما كان لها من شواهد وآثار عمرانية صمدت رغم مرور السنين لا زالت باقية إلى يومنا.

وفي هذه الفترة أيضا عرفت دول وممالك شمال إفريقيا عامة والمغرب الأوسط خاصة نزوح الأندلسيين إليها، شمل جميع شرائح المجتمع من تجار وحرفيين وفلاحين وصناع وغيرهم بعد سقوط مدنهم على أيدي الصليبيين بالأندلس، مما كان له كبير الأثر في ترك بصماتهم الواضحة بفضل مهاراتهم وإسهاماتهم في نهضة عمرانية كبيرة، ولمسة حضارية شملت جميع الميادين، إذ وسعوا في المدن التي استقبلتهم كما أنشئوا وجددوا مدن أخرى.

إلى جانب أن الموقع الاستراتيجي الهام لمدن المغرب الأوسط جعل منها أقطابا اقتصادية مهمة، نتيجة خصوبة أراضيها وملائمة مناخها، ما أدى إلى الاهتمام بالجانب الفلاحي، وبالتالي شهدت معظم هذه المدن حركية وانتعاشا لتجارتها، ومرد ذلك أيضا إلى وجود الموانئ التي لعبت أدوارا مهمة في التبادلات التجارية مع الأندلس وأوروبا بالشمال، بالإضافة إلى وجود مسارات طرق القوافل التي كانت همزة وصل بينها وبين ممالك ومدن جنوب الصحراء.

الفصل الثاني: حيث شمل هذا الفصل التأثيرات العمرانية العثمانية على مدن الجزائر، ومن خلاله تم التطرق إلى أهم مميزات وخصائص العمارة العثمانية التي ستكون مرجع للعمران في الجزائر، هذه الأخيرة بعد دخولها تحت الحماية العثمانية عرفت إنجازات وبناءات مختلفة بلمسة مشرقية، وذلك لتأكيد الحضور والسيادة العثمانية عليها. وبما أن العمارة العثمانية هي جزء من العمارة الإسلامية ومنبثقة منها، فإنها أضافت الكثير لها، حيث تركت بصماتها في كل أرجاء السلطنة وفي قارات العالم الثلاثة (أسيا وأوروبا وإفريقيا).

إتسم العهد العثماني بولوج عهد حضاري ومعماري جديد في العالم، عكس مستوى الرقي والازدهار الذي ميزه الذوق الرفيع للمعماريين الأتراك والطراز المميز لهم، خاصة بعد فتح القسطنطينية والتشجيع الذي لقاه هؤلاء المعماريين والحرفيين من قبل السلاطين وعلى رأسهم المهندس سنان باشا أحد أكبر معماري الدولة العثمانية، الذي كرس حياته في ترقية العمران الإسلامي والعثماني لما حققه وأنجزه من أعمال معمارية خالدة. والعمران العثماني بصفة عامة عرف إدماج أنماط معمارية حديثة وأساليب تنظيمية جديدة في جميع المدن والمراكز العمرانية، خاصة ما تعلق منها بالبناءات الدينية والحربية من مساجد وحصون وغيرهما.

هذا ما جعل التأثيرات العثمانية كبيرة على جميع الولايات التابعة لها، ومن بينها الجزائر التي عرفت قدوم حرفيين وصناع وفنانين من مختلف الجنسيات الذين قاموا باستحداث العمائر والإنجازات تاركين رصيدا تاريخيا وحضريا هاما منذ بداية القرن السادس عشر الميلادي تاريخ بداية التواجد العثماني.

وكما هو معروف عن المدن الجزائرية العتيقة فهي لا تختلف عن باقي المدن الإسلامية الأخرى، إذ يمثل فيها المسجد مركز وأساس تخطيطها، هذا الأخير تميز بهندسة معمارية أصيلة وبزخرفة راقية. أما المساكن والبيوت فكانت بسيطة ومتشابهة، حيث ساد نمط موحد في كل البيوت تقريبا. وهذا ما جعل المعماري الجزائري يترك بصماته على النسيج العمراني بصفة عامة سواء كانت عمارة دينية أو مدنية أو حربية.

كما تم التطرق في هذا الفصل أيضا إلى التنظيم السياسي والإداري للجزائر خلال العهد العثماني، إذ عُرف عن العثمانيين بتقسيم الأقاليم التي انضوت تحت حوزتهم إلى إيالات وولايات، وبالنسبة للجزائر عرفت خلال هذا العهد الاستقرار السياسي بعدما تحولت من ممالك متحاربة متفرقة إلى دولة واحدة ذات سيادة، كما عرفت أيضا تنظيم إداري مُنظم، كان الهدف من وراءه ضبط السلطة وإقامة إدارة محكمة خاصة خلال القرن السادس عشر أي في عهد الولاة العثمانيين الأوائل وإلى غاية عام 1587م، فكان البايلرباي أو أمير الأمراء على رأس الدولة وهو الحاكم الفعلي والمسؤول الأول في البلاد، الذي ينوب السلطان العثماني في الإيالة. وتم تقسيم البلاد إلى أربعة مقاطعات (بايلك) وهي على التوالي: بايلك الغرب وبايلك التيطري وبايلك الشرق، إلى جانب بايلك الجزائر أو دار السلطان، إذ كان كل بايلك يحكمه نائب عن الباشا بالجزائر والذي يحمل لقب الباي، وهو الحاكم الفعلي الأول في تسيير شؤون المقاطعة.

من المعروف عن النظام الإداري في الجزائر خلال هذا العهد أنه امتاز بطابعه العسكري، فكانت صلاحيات الموظفين تكتسي صبغة عسكرية، والتي كانت أفضل وسيلة واقصر طريق لنيل أعلى المناصب وأرقى المهام في السلك الإداري، نتيجة للعوامل والظروف الصعبة التي تحيط بالبلاد، والتي كانت تعيشها الجزائر آنذاك خاصة ما تعلق بالأخطار التي كانت تتعرض لها من الغزوات الخارجية الصليبية وكذا الثورات الداخلية المحلية المختلفة. وبصفة عامة عرف المجال العمراني لمدن الجزائر تطورا ونموا هاما. وكان ذلك نتيجة النظام والاستقرار والأمن الذي عرفته البلاد خلال ثلاثة قرون من تاريخها المجيد بالإضافة إلى تزامن ذلك مع نزوح لمجموعات كبيرة من المهاجرين الأندلسيين الذين ساهموا في تنشيطها.

الفصل الثالث: وقد شمل هذا الفصل دراسة حالة المدن الجزائرية العثمانية بعد الاحتلال الفرنسي، ومن خلاله تم التطرق إلى السياسة الاستعمارية التي اجتهدت على طمس المعالم والإرث الحضاري للمدن الجزائرية، فقد حاول الاحتلال القضاء على المقومات المادية والروحية للمجتمع، باستعمال لأبشع الطرق وأكثرها وحشية من قتل واضطهاد وتخريب وهدم وتحطيم لمعالمها الحضارية خاصة ما تعلق بالعمرانية والتاريخية والدينية والثقافية، وبأساليب لم تعرفها البشرية من قبل، وكان ذلك منذ الأسابيع الأولى من الاحتلال، متذرعا بكل الحجج لتبرير هذه الأعمال.

ومن خلال ذلك قام بتحويل معظم المؤسسات والمعالم والشواهد الحضارية والمظاهر العمرانية إلى خراب، كان الهدف من وراءها السطو على جميع ممتلكات الجزائر بهدف القضاء على شخصيتها وطمس هويتها، وفي هذا المجال قام الاحتلال الفرنسي بإنتهاك المقدسات ومصادرة الأوقاف وسلب الممتلكات والاعتداء على المساجد والزوايا والمدارس إما بتهديمها أو تحويلها إلى ثكنات أو مساكن أو كنائس وغيرها. فكانت لهذه السياسة نتائج كارثية وانعكاسات سلبية مست حاضر ومستقبل المجتمع الجزائري وألحقت الأضرار بمعالمه المادية الحضارية، وبذلك ظهر الجهل وانتشر، وعم الفقر والحرمان وكثر، وانتشرت الأمراض والأوبئة الفتاكة كنتيجة حتمية لمُصادرة أملاك وأرزاق الشعب الجزائري وتهجيره.

وفي هذا السياق أيضا عمل الاحتلال الفرنسي على إقناع الرأي العام الفرنسي والأوروبي في تبرير غزوه للجزائر، على أنه جاء لإثبات الوجود التاريخي للرومان وتمجيد وتعظيم حضارته بها، وبالتالي تثمين كل الأعمال التي قام بها أسلافهم بشمال إفريقيا، وبذلك تكون

الجزائر الامتداد اللاتيني لفرنسا، محاولين تأكيد وتبرير أن المدن الجزائرية هي من تأسيس الرومان، وبالتالي فإن الفرنسيين جاؤوا لتثبيت مزاعمهم المتعلقة بإحياء وإعادة اكتشاف الآثار العمرانية التي شيدها أجدادهم بالمنطقة. ولا يتم ذلك إلا بتهديم وطمس وتخريب كل أثر للحضارة العربية الإسلامية التي شيدها المسلمون بعد الفتوحات، مستعملين مختلف الوسائل لأجل تحقيق هذا الهدف، بالإضافة إلى اعتمادهم لعمليات تهجير سكان الجزائر إلى الجبال والصحراء وحتى إلى خارج البلاد، في مقابل إعمار المدن الجزائرية بالأوروبيين، أو بمعنى أخر تطبيق سياسة الاستعمار الاستيطاني للإستقرار والإستثمار في هذه الأرض، من خلال تشجيع وتسهيل إقامة هؤلاء المستوطنين والسعي لإزالة كل العراقيل التي من شأنها التأثير على استقرارهم، فوزعت عليهم أجود الأراضي إما بالمجان أو بقروض مُيسرة، كما تم بناء القرى والمدن وشق الطرق وانجاز الجسور وغيرها، وبالتالي توفير أحسن الظروف للعيش والاستقرار.

أظهرت فرنسا نيتها في تحقيق هدفها وعزمها على البقاء والاحتلال الدائم، وذلك بالقضاء على كل ما هو جزائري أصيل، وطمس كل المعالم الإسلامية وإحلال محلها المعالم الفرنسية وهذا ما عرفته المدن الجزائرية من خلال التغيير في الطابع العمراني لها، وحتى الاختفاء والاندثار في مقابل تشييد مدن جديدة على الطراز والطابع الأوروبي.

وباختصار إن الاحتلال الفرنسي للجزائر هو بمثابة بداية بناء المدن الغربية، هذه الأخيرة التي عرفت نمطا وهندسة جديدة مُبرزة للهوية الكولونيالية، والتي شُيدت على أنقاض معظم أحياء وشوارع وقصبات المدن القديمة، بعدما تم طمس المخلفات والآثار العربية الإسلامية، خاصة لما يعود للعهد العثماني وتشييد مكانها من العمارة الأوروبية التي تعكس ثقافة الغالب، وتأكيد قوته وتفوُّقه العسكري والحضاري، وظهرت بذلك الساحات العمومية الواسعة والمفتوحة التي تلبي التحركات العسكرية والاحتياجات الاقتصادية الاستعمارية، مكان الشوارع الضيقة والملتوية التي هي إحدى سمات تخطيط المدن الإسلامية، والتي كان لها الدور المباشر في التخفيف من عوامل تأثير الظروف المناخية.

إن إعادة تخطيط المدن وتنظيم مظاهر الحياة داخلها كان لسد رغبات واحتياجات العسكريين والمستوطنين، فكانت مدينة الجزائر أولى المدن التي عرفت تغيرات جذرية في مورفولوجيتها، إلى أن شملت جميع المدن الجزائرية، وبدأت ملامح جديدة في الظهور من خلال الوجه العمراني الجديد المتمثل في نمو المدن الأوروبية في مقابل فقدان المدن الحضارية

القديمة دورها الوظيفي بالتدريج. وذلك بمساهمة وتعاون الجميع سواء كانوا عسكريين أو سياسيين أو منظرين أو مهندسين معماريين أو مثقفين أو مبشرين دينيين وغيرهم، اتفقوا جميعهم على إنجاح الاحتلال الفرنسي في الجزائر، وحرصوا على محو وطمس كل أثار وإنجازات الماضي فيها، وهذا ما أدى فعلا إلى ضياع معظم الخصائص المعمارية التاريخية التي ميزت مدن الجزائر العثمانية، وأفقدها الكثير من إرتباطها وشخصيتها الحضرية، وأهميتها الثقافية والتي أصبحت منذئذ عرضة للضياع والنسيان، خاصة بعد إعادة تخطيطها وفقا لمصالح وسياسة الاحتلال.

إن ما يمكن استنتاجه من أعمال التي قام بها الاحتلال الفرنسي والتي مست مدن جزائر العهد العثماني، كان بمثابة قطيعة مع ماضيها، والتي عرفت التغيير الجذري لنسيجها العمراني، كما مست منشآتها المادية في العمق، فإذا كانت الجزائر قبل الاحتلال تزخر بمختلف الإنجازات من دور وقصور ومساجد وقلاع وحمامات وجسور وثكنات في كل مدنها وفي مختلف جهاتها منذ العهود القديمة، فقد عرفت التغيير في بنيتها بصفة عامة لما أحدثه الاحتلال الفرنسي، من خلال عمليات الهدم والتحطيم لأحيائها وشوارعها وقصباتها، مما أثر على تراثها الأصيل، وحتى في أداء دورها الطبيعي واستمرار تاريخها الطويل، وبطبيعة الحال أثر هذا الواقع سلبا على حياة السكان المحليين وعلى أملاكهم وأرزاقهم، والذي كان مصيرهم البؤس والعيش في دور القصدير والأكواخ والأحياء العشوائية، وفي النهاية كان مشروع استعماري أرادت فرنسا من ورائه اجتثاث جذور الشعب الجزائري والقضاء الكلي على مقوماته المادية والروحية حتى تكون القطيعة مع ماضيه العريق ومحو تاريخه المجيد.

وفي الأخير أنهينا دراستنا بخاتمة ضمناها أهم النتائج المتوصل إليها من خلال هذا البحث، فإذا كانت المدن الجزائرية خلال العهد العثماني عرفت النمو والتوسع والتشييد خاصة ما تعلق بالمنشآت الحربية والدينية والمدنية، فإنه في المقابل مس التراث المعماري الهدم والتخريب والتغيير في معالمه وملامحه العربية الإسلامية منذ بداية الاستعمار الفرنسي، بحجة إعادة البناء والتجميل والتوسيع، ما أدى إلى اندثار الكثير من مباني وانجازات العهد العثماني، وكان الهدف من وراء ذلك هو محاولة الفرنسيين فصل الجزائر عن العالم العربي الإسلامي والخلافة العثمانية من جهة، وقطع كل صلة مع ماضيها وتراثها الإسلامي العريق من جهة

أخرى، من منطلق محو وطمس شخصية الشعب الحزائري، وإحلال محل المدن الجزائرية الأصيلة مدن ذات طابع غربي أوروبي بداية من أول يوم من الاحتلال.

الفصل التمهيدي

الفصل التمهيدي: المدن الإسلامية في المغرب الأوسط- النشأة والخصائص

المبحث الأول: تعريف المدن ونشأتها

1- تعريف المدن

2- عوامل نشأة المدن

المبحث الثاني: نشأة المدينة الإسلامية وتطورها

1- ظهور المدينة الإسلامية بعد الفتوحات

2- خصائصها ومميزاتها

المبحث الثالث: مدن المغرب الأوسط قبل العهد العثماني

1- تأسيس المدن وتطورها في المغرب الأوسط

2- نشاط وأهمية المدن في المغرب الأوسط قبل العهد العثماني

المبحث الأول: تعريف المدن ونشأتها

إن نجاح الإنسان في الاندماج مع البيئة التي يعيش فيها، هو بمثابة أكبر تحدياته للطبيعة، فمنذ أن خُلق، عمل جاهدا على تحقيق الكثير من الإنجازات والعديد من الاختراعات بفضل استعمال قدرة عقله، وفهم كل ما يدور حوله وبالتالي تحقيق طموحاته التي مكنته من أن يصبح سيدا في الأرض والعيش فيها بأمان، متحديا لكل الأحوال والظروف، ساعيا لتوفير جو مريح وآمن لحياته. "وكانت الحضارة أكبر وأرقى إنجاز حققه الإنسان لما كلفه الله بتعمير الأرض والاستقرار بها، والمدينة وليدة تلك الحضارة أو أنها في الواقع هي الحضارة." (شاكر، 1988، ج1: 9).

فإذا كانت "الحضارة هي جملة المظاهر التي تعبر بواسطتها الأمم عن ثقافاتها، فالمدينة هي الجزء المادي منها. فكل حضارة تودع في مدنها صورة حضارتها. كما أن التاريخ يستعين في تسجيل الأحوال والأحداث بالآثار والعمائر والروايات والمعاهدات والمذكرات والأساطير. إذ يمكن فهم الحضارات المبكرة من خلال مبانيها وأشكالها الفنية، حيث أن العديد من الثقافات الأولى لم تترك أي سجلات مكتوبة، ولم يكن من الممكن فك رموز سجلاتها، ولذا تعد هذه البقايا الخالدة والمنحوتات مصدرا أساسيا للمعلومات." (المالكي، 2011: 15-16).

أوجد الإنسان المدينة لأجل العيش فيها وتحقيق أمنياته ورغباته وإنجاز كل أهدافه، هذه الأخيرة التي كانت مهد حضارته ومنطلق لأفكاره ومنبع اختراعاته. إذ عرف الكائن البشري الانتقال من الوجود الفردي إلى الوجود الجماعي الذي هو في حد ذاته تحضر إنساني. وبما أن تكوين الأسرة يرجع منبعه إلى الأفراد فإن الجماعة من الأسر كونت القرية والتي هي بدورها اتسعت وأصبحت شعبا مكونا للمدينة. ففي النهاية فإن المدينة هي المكان الطبيعي لإقامة الإنسان، الذي كان همه الأول خلق الجو المناسب لحمايته ضد العوامل الطبيعية وتقلباتها، والأمن من أذى الحيوانات وشرور الناس بصفة عامة.

إن الشواهد العمرانية من بقايا البنايات لمختلف الحقب التاريخية هي الدليل والبرهان على وجود تجمعات بشرية يمكن تسميتها بالمدن، تعود معظمها إلى الأزمنة الغابرة، إلا أن ما أندثر منها واختفى يكون أكبر مما بقي، وعليه فإن المحافظة على تلك الآثار والشواهد هو بمثابة الحفاظ على تاريخ وماضي البشرية.

1. تعريف المدن:

اختلف العلماء والباحثون حول تعريف محدد للمدينة وإن كانت المدينة كمظهر عمراني مألوف يمكن تمييزها عن القرية بوضوح سواء في شكلها المورفولوجي أو حجمها الخارجي أو في وظائفها أو حتى نموها وتطورها التاريخي، إلا أن الثابت هو أنه ليست هناك قاعدة محددة يمكن أن تحدد بواسطتها تعريف المدينة.

لقد تميزت كل مدينة عن أخرى، معنى هذا أن كل مدينة فريدة ومختلفة في نشأتها أو تأسيسها أو ظهورها، فما ينطبق على مدينة لا ينطبق على أخرى. كما أن المدينة بشكل عام عاصرت تطور الإنسان الذي حقق حاجاته وغاياته عبر الزمن، فهي بذلك تتطور مع تطور الزمن، فانتقلت من مدينة تعتمد أساسا على الزراعة إلى مدينة كانت التجارة مصدر ثرواتها، فهي تبنى وتتطور حسب حاجات سكانها. وبذلك تعرف المدينة بأنها المكان أو الرقعة من الأرض التي يجتمع فيها الناس ويقيمون فيها ولها حدود ثابتة.(ناجي، 2001، ج1: 61).

يذكر ابن المنظور في كتاب لسان العرب على أن" مدن: مدن بالمكان: أقام به، فعل ممات، ومنه المدينة، وهي فعيلة، وتجمع على مدائن، بالهمز، ومدن بالتخفيف والتثقيل، وفيه قول آخر أنه مفعلة من دنت أي ملكت، قال ابن بري لو كانت الميم في مدينة زائدة لم يجز جمعها على مدن وفلان مدن المدائن: كما يقال مصر الأمصار...والمدينة: الحصن يبنى في أصطمة الأرض، مشتق من ذلك. وكل أرض يبنى بها حصن في أصطمتها فهي مدينة، والنسبة إليها مديني، والجمع مدائن ومدن."(ابن المنظور، المجلد13: 402).

والمدينة كما تقررها المعاجم العربية مأخوذة من مدن بالمكان أي أقام به، وهي من المساكن والأبنية، كما أنها في التعريف الحديث-حقيقة مادية مرئية في المظهر الأرض من حيث الكثافة السكانية والكتلة البنائية والبعد التاريخي والحيثية الإدارية. وعليه ليست المدينة بخبرة جديدة من التفكير الإنساني. وهي من أعظم منجزات الإنسان الحضارية.(الموسوي، 1982: 15).

والمدينة:-والجمع: المدن، والمدائن-: هي البلدة العظيمة تجمع المنازل والأسواق- واشتقاق المدينة من الفعل: مدن-بالمكان-أي أقام به.(عمارة، 1993: 524).

أما القزويني فيشير قائلا أن "لو اجتمع البشر في صحراء لتأذوا بالحر والبرد والمطر والريح، ولو تستروا في الخيام لم يأمنوا مكر اللصوص والعدو، ولو اقتصروا على الحيطان والأبواب كما ترى في القرى التي لا سور لها، لم يأمنوا صولة ذي بأس، فأكرمهم وألهمهم الله تعالى باتخاذ السور والخندق، فحدثت المدن والأمصار والقرى والديار، ثم إن الملوك الماضية لما أرادوا بناء المدن أخذوا آراء الحكماء في ذلك، فالحكماء اختاروا أفضل ناحية في البلاد، وأفضل مكان في الناحية، وأعلى منزل في المكان من السواحل والجبال ومهب الشمال، لأنها تفيد صحة أبدان أهلها وحسن أمزجتها، واتخذوا للمدن سورا حصينا مانعا، وللسور أبواب عدة حتى لا يتزاحم الناس بالدخول والخروج، واتخذوا لها قهندازا (أي قلعة) لمكان ملك المدينة لاجتماع الناس فيه، وفي البلاد الإسلامية المساجد والجوامع والأسواق والخانات والحمامات".(القزويني: 7-8).

أما ابن حوقل فيصف المدينة أنها بمثابة الوعاء الحضاري الذي يستوعب مختلف أنشطة الإنسان الاجتماعية والدينية والاقتصادية والسياسية والعسكرية.(عبود سمار، 2016: 216).

بدأ الناس في أول الأمر يتجمعون في منطقة معينة ومحدودة تدريجيا، ومع مرور الوقت اتسعت هذه الأخيرة لتصبح قرية، ومع ازدياد عدد هؤلاء الناس ونمو معارفهم وتطور أساليبهم في توفير غذائهم خاصة بعد تحسين وتنويع الزراعة، تحولت من مجمع قروي إلى مدينة.

ولكل تعريف دلالته المتصلة مباشرة بالمقاييس والمعايير الحضارية التي تميز المدينة عن غيرها من مراكز الاستيطان الأخرى، فالمدن لا تقام إلا في حالة تواجد الهيئة الاجتماعية. والتي تتميز أيضا بسورها الذي يحصنها، الذي يعني الأمن والأمان، وكذلك وجود سلطة في المدينة ممثلة في الحاكم أو الملك، بالإضافة وجود وتوفر المنشآت التي ارتبطت بحياة ساكنيها.(عبد الستار، 1992: 17).

في بادئ الأمر كانت حياة الناس قائمة على عاملين أساسيين وهما الترحال والصيد، ومع مرور الزمن تغير نمط حياتهم وتطور بالتدريج، خاصة بعد اكتشاف وظهور الزراعة، والتي كانت أهم مورد للعيش والاستقرار، إلا انه مع اكتشاف المعادن واستعمالها في توفير الإنتاج وزيادته، ما دفع بالإنسان لأن يقيم تجمعات سكانية حول مصادر المياه لخدمة الأرض، ليتحول من جامع للغذاء إلى منتج له بعدما طور وسائل استغلال الزراعة، ونقصد هنا المحراث. هذا التحول مكنه من بناء القرى ما أدى به إلى التجمع والاستقرار، ومن هنا بدأ التغيير يظهر في نمط حياة الإنسان ومستقبله.

أما" المفهوم اللغوي للمدينة، والمفهوم القرآني، وفي الحديث النبوي، تسمح بأن نستنتج أن المدينة هي مكان محدد تجتمع فيه جمهرة من الناس ليست معظم نشاطاتها زراعية، وتقوم فيها سلطة سياسية تفرض العدل في الناس. وذلك دون تحديد واضح للحجم السكاني أو القوة السلطانية."(شاكر، 1988: ج1، 68).

أما بخصوص "مصطلح مدنية والأصل فيه في اللغة العربية مشتق من المدينة وحياة المدن، وكذلك الأصل اللاتيني مشتق من Civitat بمعنى مدينة، ومنها ساكن المدينة Civilis والمقصود بذلك أساسا هو وصف سكان مدينة روما، لأنه كانت لهم حقوق وحريات جعلتهم يختلفون عن سكان بقية الإمبراطورية الرومانية، ومن ثم كانت مواطنية روما رمزا على أشياء حضارية كثيرة من بينها الرخاء والترف والثقافة وحرية التعبير والحرية الكاملة للفرد، ومجموعة نظم وقوانين وعادات تميز أهل روما عن غيرهم."(رياض، 2014: 205).

إن كلمة مدينة مرتبطة بالمدنية، فالمدن هي مراكز إشعاع وفيها تزدهر الحضارات. وتتميز المدينة بنشاطاتها الاقتصادية المتنوعة عن القرية التي يعمل معظم سكانها بالزراعة. ولذا يمكن تعريف المدينة بأنها التجمع السكاني الذي لا تشكل الزراعة النشاط الأساسي للمقيمين فيها.(فواز: 15).

لم يستعمل العرب كلمة واحدة للظواهر الحضارية التي هي التمدين، فقد استعملوا كلمات: مصر وقصبة وحاضرة ومدينة وبلد أو بلدة وحوزا وكورة وقرية وعمل ومدرة، كما استعملوا لما يحيط بالمدن كلمات: الريف، والضيعة والربض والضاحية والغوطة.(شاكر، 1988: 25).

وعليه فإن تعريف المدينة لا يمكن أن يكون تعريفا شاملا وموحدا، ولا يمكننا أن نطبقه على جميع المدن وفي كل الحضارات. وكل هذه الاختلافات في أراء الباحثين والعلماء حول تعريف موحد للمدينة إنما هي أراء حول أولى مناطق التجمعات البشرية عبر التاريخ.

لقد تضاربت الأقاويل وتعددت الآراء حول أقدمية العمران الإنساني وأول ظهوره في العالم، وبما أن العمارة هي التعبير الصادق لحضارة الإنسان وتطوره عبر الأزمنة، فهي الفن العلمي لإقامة المباني والمنشآت التي تلبي حاجيات الإنسان المادية والنفسية والروحية. وإلى جانب الاحتياجات الضرورية للإنسان من الماء والغذاء لأجل استمراره في الحياة، فهو يحتاج إلى مأوى يحتمي فيه من قوى الطبيعة وغيرها، لوقايته من عواملها وأخطارها وتقلباتها.

وقد "نشأت أولى الحضارات في العالم بمنطقة ما بين النهرين وهي منطقة قديمة تقع في جنوب غرب أسيا، أطلق اليونانيون القدماء اسم ما بين النهرين على هذه المنطقة لوقوعها بين نهري دجلة والفرات، والمنطقة تغطي قسما كبيرا من شرقي سوريا الحديثة وجنوب تركيا ومعظم أرجاء العراق. بدأت القبائل المرتحلة بالاستقرار فيها في حوالي سنة 10.000 ق.م، وأسست أولى القرى فيها في حوالي 7.000 ق. م، كما نمت المدن الأولى في السهل الفيضي الخصيب في جنوب ما بين النهرين. وقد تمكن الناس بعد اختراع وسائل الري من إنماء المحاصيل الكافية لتغذية سكان

المنطقة الذين كانت تنمو أعدادهم باستمرار، كما عرفت المنطقة بغناها بالموارد الأولية من أسماك وفواكه وخضار ولحوم وجلود."(أفندي، 2016: 5).

إن سكان العراق منذ القديم اهتموا بتخطيط المدن وتوزيع المهام بها، والتي كانت معظم مدنهم تنموا حول المنطقة الموجود بها المعبد. كما "اهتموا أيضا بالتركيب الوظيفي للمدينة، حيث قاموا بتقسيم المدينة إلى عدة قطاعات لكل قطاع وظيفة معينة، إذ خصصت إحدى القطاعات للسكن، والأخرى للعبادة، ومنها مخصصة للزراعة."(الجواري، 2013: 17).

والجدير بالذكر أن ظهور المدن نابع من فكر الإنسان الذي أوصله بعد الاجتماع مع بني بشرته واتخاذها موطن له، والتي مرت في تكوينها بمراحل متتابعة من التطور والنمو وفق قواعد كانت الظروف البيئية المحيطة طرفا مهما فيها.

وعليه فإن المدن نمت وتطورت على مر الزمن، ولكل مدينة هويتها الخاصة وميزتها المرتبطة بنشأتها وتطورها المعماري والاجتماعي، وبالتالي ساهمت المدن بطريقة أو بأخرى في تكوين الحضارة الإنسانية وتطورها.

2.عوامل نشأة المدن:

تعددت النظريات الحديثة التي حاولت تفسير نشأة المدينة وأسباب ظهورها، ومن ثم المعايير التي تميز كل مدينة عن غيرها من مراكز الاستيطان، وذلك حسب ظروف وأحوال كل مدينة، فقد نشأت بعض المدن نتيجة للتبادلات التجارية، أما البعض الأخر فظهر نتيجة للبحث عن الأمن، ومنها من نشأ أيضا بسبب ظهور مقومات الصناعة وتوفر فرص العمل، ومنها من نشأ بسبب الأهمية التاريخية...الخ. إلا أن هذه المسببات تطورت مع مرور الزمن حتى أصبحت في معظم الأحيان الوظيفة الرئيسية التي تمارسها المدينة حتى أن كثيرا من المدن عرفت واشتهرت بوظيفتها، فالوظيفة هي مبرر وجود المدينة، ومحدد نمط الحياة فيها والأساس في قيامها وتشكيلها.(سايح، 2015: 18).

منذ القديم اتفق معظم الباحثين على وجود "ثلاثة عوامل أساسية تتحكم في نشأة المدن مهما كانت الأغراض في إقرار وجودها، وهذه العوامل هي:

1 . العامل الاستراتيجي الاقتصادي

2 . العامل العسكري الأمني

3. العامل الطبيعي الارثي (الطوبوغرافيا)

وإذا كان العامل الأول مرتبط بوجود المياه، وإشراف المدن على طرق القوافل مع ما يتطلبه الإنسان من عناصر المعيشة له ولأنعامه، فإن العاملين الأخرين هما اللذان يحددان نوع المدن وشكلها وحجمها بل ونوع تحصيناتها."(خلاصي، 2011: 11).

إن الدفاع عن المدن هو عامل أساسي في نشأتها، كما أن له دور كبير في حمايتها وأمنها، فموقع المدن بالأماكن الإستراتيجية ضروري وهام، سواء كانت نشأتها بالمرتفعات أو بالتضاريس الوعرة بجبال شاهقة أو بين وديان يصعب وصول الأعداء والمهاجمين إليها وبالتالي فهي محمية طبيعية، أو من خلال بناء الإنسان للأسوار المرتفعة والحصون القوية المختلفة الأحجام والأنواع، التي تعتبر تقنيات ابتدعها الإنسان للتحصين ورد المضار بصفة عامة، ولها ضوابط من الواجب مراعاتها. كما يعد المناخ ذا تأثير كبير على شكل البيوت والمساكن المكونة للمدن، إذ أن تأثيره يعد إحدى أهم العوامل لنشوء وتشييد المدن والحواضر في أي منطقة عبر التاريخ.

أشار أفلاطون قديما إلى سببين مهمين يؤديان إلى نشوء المدينة وهما: حفظ الذات وتعدد الحاجات. أما حفظ الذات فيرى أن بداية نشوء المدن كان نتيجة لحاجة الإنسان لحفظ ذاته وإلى الحماية من أخطار الحيوانات المفترسة، التي كانت تهدد حياتهم بسبب تشتتهم وضعفهم، وكان ذلك دافعا لهم للتجمع في مدن توفر لهم الحياة الكافية لحفظ ذاتهم.

وفيما تعلق بتعدد الحاجات الفردية، فقد بين أفلاطون أثر تعدد الحاجات الفردية على نشوء المدينة، حيث اعتقد أن الإنسان ليس له القدرة على سد حاجاته بمفرده وأنه بحاجة إلى الأخرين لسد حاجاته الكثيرة، وهذا أدى إلى لزوم الأفراد في مستقر واحد أطلق عليه اسم المدينة."(الجواري، 2013: 41).

فقد أدرك أفلاطون قديما أهمية تأسيس المدن، بعد أن تناول ثلاثة مواقع أساسية لبناء أي مدينة يكون ترابطها بالمناطق المجاورة لها أساسي، وهي: موقعها البحري والذي يجب أن يكون بالقرب من البحار، وذلك لأهمية النقل البحري للمدينة في استيراد حاجاتها الضرورية، وموقعها النهري وأهميته، فقد أوضح بأن روافد مجرى النهر تعمل على حمل حاصلات المواطنين الزراعية من المناطق الجبلية إلى المدينة، وأخيرا موقعها السهلي الذي وصفه على السهل بين الجبال، وأهمية هذا الموقع كونه يمثل منطقة تربط ما بين المناطق الجبلية وساحل البحر."(الجواري، 2013: 42).

وعليه فإن "نشأة المدن كظاهرة عمرانية قديمة في الشرق الأوسط وبالتحديد في مصر والعراق وباكستان الحالية، وكان ظهورها مرتبطا بتقدم كبير في المعرفة الإنسانية والأساليب الفنية المستخدمة، وقد بدأت أولى مراحل الثورة الحضرية لدى المجتمعات الزراعية في مناطق السهول الفيضية في وادي النيل الأدنى وكذلك في القطاع الأدنى من دجلة والفرات وفي سهول نهر السند وفي هذه المناطق استقرت الحياة البشرية وقامت على دورات منتظمة لفياضانات الأنهار".(علي محمد، 2015: 193).

إن توفر المياه كان له كبير الأثر في نشأة المدن وتطورها عبر الأزمنة، وعامل أساسي في نشوء الحضارات القديمة والتي كان ظهور معظمها بالقرب من مصادر المياه (وديان وأنهار)، ومعظم المدن التي ظهرت على ضفاف الأنهار سواء دجلة والفرات أو النيل أو السند ساهمت بشكل كبير في استقرار الإنسان على ضفافها، والذي بادر إلى استعمال مياهها لزراعة الأرض واستغلالها، وبالتالي تأمين غذاءه وتنويعه وتلبية جميع احتياجاته المعيشية.

"أوضحت كشوف علماء الآثار التي تثير الدهشة في مصر والعراق وشمال غرب الهند قدم ظاهرة سكنى المدن، كما أماطت اللثام كذلك عن دور المدن المهم في تطور الحضارة، فنشأت المدن المعروفة في وديان الأنهار كوادي الفرات ودجلة والنيل والسند حوالي 3000 سنة ق. م أو قبل ذلك بقليل. وعليه نشأت على ضفاف الأودية الخصيبة حضارات من أعرق ما عرفه التاريخ كالحضارة السومرية بين الرافدين والفرعونية في وادي النيل والهندية في وادي السند، وكانت مدن وادي الرافدين من أسبق مدن العالم القديم ظهورا واستقرارا.(الموسوي، 1982: 16).

وفي شمال إفريقيا كانت مصر القديمة أرضا صحراوية جافة، فقد ساعد وجود نهر النيل المنساب شمالا عبر الصحراء على نشوء وتقدم الحضارة بها، وبدأت أولى المستوطنات البشرية الدائمة تظهر على طول النيل. وكان المستوطنون في غالبيتهم من المزارعين. كان بعضهم قد أتى من مناطق ما بين النهرين عبر البحر الأحمر، وأتى آخرون من بلاد الشام عبر البحر المتوسط. بينما كان البعض منهم قادما من قبائل إفريقية محلية هاجرت من هضاب الصحراء الكبرى. وقد كان الشريط الرملي الأسود والخصب الذي رسبته الفياضانات موردا اقتصاديا مهما، وقد سموه هبة النيل."(آفندي، 2016: 40).

تعتبر حضارات وادي الرافدين ووادي النيل ووادي السند من أقدم وأرقى الحضارات في التاريخ البشري، حيث ساهمت كل واحدة منها في نشوء أولى التجمعات المدنية، التي أدت إلى ظهور المدن. هذه الأخيرة التي تخضع في نشأتها وظهورها لقواعد عامة، كالموقع الطبيعي أو الأمني أو الاقتصادي أو الديني.

ومنذ القديم أدركت هذه الحضارات وعلى رأسها حضارة وادي الرافدين تأثير الظواهر الطبيعية من مناخ وأنهار وتضاريس في تحديد الموضع الأمثل لبناء المدن لديهم، ولهذا فقد أخذت بالحسبان المتغيرات الطبيعية في البناء، فكان المناخ أهمها، إذ تعد الرياح من المتغيرات المناخية المهمة التي تؤثر على سطح الأرض من خلال نقلها للحرارة من مكان لأخر بسبب

اختلاف الضغط الجوي. وقد كان لدى سكان حضارة وادي الرافدين إلماما بذلك وهذا ما دفعهم إلى بناء مدنهم باتجاه الرياح.

هذا وقد زادت الأنهار أهمية في نشوء المدن خاصة ما تعلق بالمدن الاقتصادية والسياسية، ففي العراق مثلا اتخذ السومريون من مجاري الأنهار أماكن لقيام مدنهم، إذ كانت المدن لديهم تقع بين نهري دجلة والفرات، كما أن سكان مدينة بابل أقاموا موقع مدينتهم بالقرب من نهر الفرات. وكانت للتضاريس دور كبير في نشأة المدن في الحضارة العراقية القديمة، فمن المعلوم أن المناطق الشديدة التضرس كالجبال من الصعب أن تنشأ فيها المدن بعكس المناطق السهلية التي تكون ملائمة لقيام المدن ونشأة الحضارات."(الجواري، 2013: 14-15).

وإلى جانب الاختلاف في تعريف وتحديد مفهوم المدينة، اختلف الباحثون أيضا في تحديد زمن ومكان نشأة العمران في العالم، والتي تعني كل ما يعمر به الأرض من سكن ومباني وتجمعات سكانية، ولم يتم ضبط تاريخ محدد لظهوره والاتفاق حول أولى مكان نشوءه. إلا أن المكتشفات الأثرية أظهرت أن الإنسان الأول قد ظهر في بلاد ما بين النهرين، بدليل وجود شواهد وأثار تعود إلى العصر الحجري القديم، كما دلت المكتشفات الحديثة على وجود قرى ترجع إلى العصر الحجري الحديث بشمال المنطقة.(صلاح، 2014: 35).

والعمارة بصفة عامة تأثرت عبر العصور بظروف متعددة: من عادات وتقاليد المجتمع، والمناخ، وطبيعة الأرض، والثروات الطبيعية بها، والديانة، وكذلك نظام الحكم، والأيديولوجية المتحكمة التي كانت تتطلب وظائف خاصة لأنواع المباني، وبصفة عامة فإن للعمران علاقة وطيدة بالحضارة وفي ذلك يذكر العلامة ابن خلدون أن الحضارة تتفاوت بتفاوت العمران، فمتى كان العمران أكثر كانت الحضارة أكمل.(ابن خلدون: 187)

إن"طبيعة العلاقة بين الإنسان والعمارة هي طبيعة استخلاف، حيث استخلف الله الإنسان في الكون ليدير موارده، ويعمره، ويظهر أسرار الله وقدرته في خلقه، وهي مهمة عظيمة أرادت الملائكة أن تختص بها، وأرادها الله للإنسان تكريما له".(كاظم، 2017: 197).

فكانت دائما وأبدا هي الصورة الصادقة والتعبير الدقيق لحضارة الإنسان وتطوره، وسارت حضارة الإنسان وسارت معها الحضارة جنبا إلى جنب في تطور هادئ رزين، وكانت العمارة دائما تتميز بصفتين متلازمتين لا يمكن فصلهما، فإلى جانب الوجود المادي المستمد من مواد البناء وطرق الإنشاء هنا كالمحتوى الحسي للمبنى، وهو ما يتمتع به المبنى من صفات فنية وهي الغرض والوظيفة بأسلوب خاص وتعبير معين.(عبد الجواد، 2009،ج2: 3).

لقد استخلف الله الإنسان على الأرض ليدير شؤونه، فكانت علاقة الإنسان بالعمارة هي علاقة استخلاف وتعمير إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ارتبط وجود الإنسان بالعمارة التي هي أحد الفنون التي تهتم بتطبيق مجموعة من التصاميم الهندسية التي تعتمد على رسم الهياكل التخطيطية لبناء المباني والمنشآت وكل المعالم الحضارية الخاصة بمكان أو مدينة ما، وذلك لقضاء حاجاته الملحة لضمان بقائه واستمرار نسله، هذا الأخير الذي سعى منذ القديم إلى استخدام كل المواد البنائية الموجودة في الطبيعة والمحيطة به لأجل تمكينه من بناء مآوى له يجتمع فيه، يوفر له الاستقرار والعيش في الأمان، لإتقاء مختلف المخاطر المحيطة به من جهة، ومن تقلبات الطقس من برودة وحرارة من جهة أخرى، وبفضل قدراته العقلية وذكائه المتميز عن باقي المخلوقات، استطاع الإنسان مع مرور الزمن أن يفكر ثم يخترع وينجز ويبني بعد تجارب ومحاولات لبلوغ هدف أسمى يتمثل في إيجاد حلول لكل المشاكل التي تواجهه في الحياة، وبما أن الحاجة أم الاختراع، اندفع الإنسان إلى البحث عن الوسائل والبدائل لتلبية احتياجاته، لأجل أن يعمر ويعيش سيدا وملكا على هذه المعمورة. فكانت العمارة إحدى الوسائل التي انحصرت مهمتها على تصميم وإنشاء المباني والإنجازات الكثيرة والمختلفة، وبالتالي ضمان بقائه.

ويجدر الذكر أن "أهمية دراسة تاريخ الفن والعمارة على أنه علم من العلوم التي لا غنى عنها لمعرفة جوانب كثيرة من تاريخ الحضارة الإنسانية."(الموسوي، 2011: 18).

وبما أن العمارة هي الفن العلمي لإقامة المباني، فهي دليل ثابت لعراقة وتاريخ أي شعب. فأي إنجاز معماري أقامه الإنسان بتدبير من عقله هو بمثابة نجاح وإبداع في حياته بما

يتماشى والظروف البيئية التي يعيش فيها. والعمارة بشكل عام هي الحضارة في حد ذاتها التي أنشأها الإنسان ولا يمكن له الاستغناء عنها ما دامت مرتبطة بالحركة البشرية المستمرة، فهو يولد في العمارة ثم يسكن فيها ويعيش بها ويعمل فيها ويتعبد داخلها إلى أن يموت ويدفن فيها. وعليه فهي تشمل كل مراحل حياة الإنسان وتضمن وتحقق له الأمن والرقي الضروريان لبقائه وتطوره.

والعمارة لغة: من الإعمار والتعمير، وهي كل ما يبنى على وجه الأرض من مبان (لسان العرب).

أما العمارة الإسلامية فهي تنحصر فيما بنى من تراث في منطقة محددة من الأرض أطلق عليها العالم الإسلامي، وفي فترة من الزمن أطلق عليها العصر الإسلامي، كما تنحصر فيما يبنى من مبان تحمل بعض العناصر المعمارية المميزة مثل القبة والقبو والعقد، مضافة إليها الزخارف الهندسية أو النباتية.(زقزوق، 2003: 1004).

واصطلاحا: كل ما يبنى على وجه الأرض بهدف التنمية العمرانية التي تسعى إلى خدمة الفرد والمجتمع، وتستجيب لكافة متطلباته، سكنية وإدارية وثقافية...الخ. ولا تتعارض مع العقيدة الإسلامية.

إن "الدراسة البشرية والعمرانية لأي مجتمع سكاني تعطينا صورة واضحة عن المميزات الموجودة بداخله، كما تمكننا من معرفة الوضعية الاجتماعية والاقتصادية لكل مدينة. فالعمران مرتبط ارتباطا وثيقا بالإنسان، فكلما كانت المدينة تعرف نموا ديموغرافيا كبيرا عرفت معها نموا عمرانيا كبيرا. ومما لا شك فيه أنه لا يوجد تاريخ محدد لبداية تاريخ فن العمارة إلا أن البعض يعتقدون أنه يعود إلى العصر الحجري الحديث حوالي 6800-3200 ق.م."(أفندي،2015: 6).

ومن الجدير بالذكر فإن كانت العمارة هي تلك المهارات العلمية التي توصل إليها الإنسان بعد تجاربه في الحياة من خلال إقامة المباني والمنشآت للانتفاع بها وكذا لحمايته من قوى وأخطار الطبيعة، فإن مشيدو المدن ومنشئوها فكروا منذ القديم في تنظيمها وضمان العدالة

لأهلها، فشرعت القوانين، حتى أن العقاب كان شديدا على كل المخالفين بقواعد السلامة في البناء، ومن جملة النصوص التي أوجدها المشرعون القدامى هو أن يعاقب المعمار الذي لا يقدر مسئوليته، ففي حالة سقوط حائط يؤدي إلى قتل ابن ساكن الدار فالعقاب هو قتل ابن البناء على قاعدة العين بالعين.

وعليه فقد حرص الإنسان منذ القديم على إتقان كل أعماله وجودة إنجازاته المختلفة، خاصة في ميدان السكن والبناء، درءا للأضرار والأخطار، وإلتزم بالقوانين والقواعد وضبط شروط البناء، حيث كان الهدف منها هو حمايته وضمان سلامته، وبالتالي إعماره على الأرض لأطول فترة زمنية ممكنة، وهذا ما تحقق فعلا مع مرور الزمن، فكل ما نشاهده اليوم من إنجازات وشواهد باقية وشامخة منذ ألاف السنين هو خير برهان على حرص هؤلاء البناة وتفانيهم في الأعمال التي أنجزوها للسلامة والدوام. وإن معيار المحافظة على الروح البشرية وتأمينها من كل الأخطار كانت أهم خطوة في كل بناء. وهذا ما لمسناه من العقوبات التي تستند إلى نص المادتين (229 و230) التي تخص عقاب ومسئولية البناء السالفة الذكر المستنبطة من قانون حمو رابي المتكون من 282 مادة قانونية، التي تم صياغتها لهدف سن تشريع يخدم الفرد والمجتمع.(صلاح، 2014: 38).

هذه التشريعات وغيرها والتي ظهرت منذ الأزمنة الغابرة عملت على تلبية حاجيات المجتمع وسلامته، وحافظت على النظام العام له، كما أن أحكامها كانت شديدة على كل المخالفين، وبالتالي كانت ضمان لتطبيق العدالة الاجتماعية في حماية كل ضعيف ومظلوم شملت كل مجالات الحياة وعلى رأسها مجال العمران.

وفي الأخير يمكن القول إن المدينة تُعبر عن أحد أشكال التجمعات الإنسانية، والتي تحتوي على العديد من الوظائف التي ساهمت في وجودها منذ القديم، كما أنها صورة من التطور الحضاري، وأن لكل مدينة كيانها الخاص بها، يميزها عن غيرها من المدن حسب ظروف نشأتها وتاريخها، أما في العصر الحديث فيعد النمو السكاني في المدن وتضخمها

السمة الرئيسية التي يتميز بها السكان. وقد تزايدت أحجام المدن نتيجة لزيادة معدلات التحضر، وبالتالي سيطرت المدن في معظم دول العالم على مظاهر النشاط البشري، وهو ما يعرف بالهيمنة الحضرية.(علي محمد، 2015: 193).

وبذلك يعتمد بناء المدن على عدة عوامل، وإن اعتبرنا أن العامل الجغرافي هو من أهمها في إختيار مواقع المدن لما له من تأثيرات، والمتمثلة خاصة في التضاريس، تلك المواقع الطبيعية الثابتة والتي هي من صنع الطبيعة، وأهميتها في عدة مجالات، كالحماية من الأخطار وتوفير الأمن أو سهولة الحركة التجارية إن وجدت بالقرب من الأنهار والبحار، وأيضا الواقعة بالسهول في ضمان ووفرة الغذاء والكلأ المهمان في استمرار وبقاء الإنسان.

أما في العهد الإسلامي فقد اختيرت مواقع بناء المدن بعناية كبيرة، إذ تم اختطاطها من خلال بناء أول وحدة معمارية والمتمثلة في المسجد الذي يتوسط كل مدينة، وهو بذلك المحور الذي تدور حوله كل النشاطات، كما انه أقدس مكان فيها، ثم تبنى الوحدات المعمارية الأخرى وتكون مجاورة له، كدار الإمارة أو الحاكم، والسوق الذي يعتبر مركز نشاطها الاقتصادي إلى جانب الوحدات المدنية من مساكن وبيوت وغيرها، وكلها وحدات أساسية وحيوية مكونة للمدينة الإسلامية.

المبحث الثاني: نشأة المدينة الإسلامية وتطورها

1: ظهور المدينة الإسلامية بعد الفتوحات

ارتبطت المدينة الإسلامية ارتباطا أساسيا بالإسلام كطريقة في الحياة، باعتباره المحور الذي تدور حوله الصورة الحقيقية لها. إذ كان للإسلام أثر كبير في توجيه الحركة الفكرية والحضارية للبشرية، والانتقال بها إلى درجات أسمى، خاصة بعد أن حرر الفكر الإنساني من تشدد العصور الوسطى.

استفادت الحضارة الإسلامية من الحضارات التي سبقتها، إذ مثلت المدن التي شيدها المسلمون الصورة الصادقة لتلك الحضارة، وحين أنشأت المدن الإسلامية توافقت مع أحكام البناء التي استندت إلى الكتاب والسنة، باعتبار أن الإسلام ونظمه هو المحور الأساسي الذي تدور حوله حياة الفرد بالمدينة، والتي خططت لتلبي طلبات ومستلزمات ساكنيها بهدف توافق الاحتياجات المادية والمعنوية لأجل تحقيق المصلحة العامة.

إن المدن العربية الإسلامية امتدت في جذورها إلى مدن ما قبل الإسلام، وتأثرت بها، كما أن "العرب اختطوا، وشيدوا في العصرين الجاهلي والإسلامي مئات من المدن والقلاع والحصون. وقد انحصرت مدنهم التي بنوها في الجاهلية في جزيرة العرب فقط. أما المدن التي بنوها بعد الإسلام فلم تقتصر على جزيرتهم فحسب بل امتدت إلى البلاد التي افتتحوها في آسية، وافريقية، وأوروبا. كما يمكننا أن نؤكد أن ما في الجزيرة العربية من هذه المدن، إنما كان من إنشائهم وحدهم دون أن يشاركهم في اختطاطها أحد على الأرجح كمدن مكة ويثرب والطائف... فالعصر الجاهلي يعتبر من أهم مصادر الحضارة الإسلامية."(معروف، 1964: 12-13).

وعليه يمكن اعتبار أن بعض المدن العربية كانت موجودة قبل الهجرة النبوية كمدن مكة والمدينة ودمشق ويعود تاريخها إلى زمن بعيد.

تعتبر مدينة مكة أهم مدينة جسدت العمران قبل الإسلام، هذه الأخيرة التي كانت أعظم وأكثر المدن شهرة ومكانة، وإن لم نقل أقدم مدن الأرض وأقدسها. حيث تقع في الجزء الغربي من جزيرة العرب، تميزت بمناخ حار جاف، وتقع في واد غير ذي زرع، إلا أن مساهمة بئر زمزم (البئر المقدس) كانت كبيرة في تنشيطها وبث الحياة فيها بالرغم من قلة منابع المياه فيها، وكانت محطة مهمة لمرور القوافل التجارية بين بلاد الشام واليمن، مما أهلها أن تكون سوق رئيسية، الأمر الذي أدى إلى نمو واتساع عمرانها.

إن نشأة هذه المدينة كانت على عكس مدن الحضارات الأخرى التي ظهرت على ضفاف الأنهار، تلك المدن التي اتسمت بمقومات الحياة لما يوفره عنصر الماء الذي هو أساس الوجود، خاصة إذا كانت الزراعة ومحاصيلها الغذائية المختلفة أهم الموارد التي تؤدي إلى زيادة النمو السكاني والتوسع العمراني في أي منطقة من العالم.

كانت البداية الأولى لنشأة المدينة الإسلامية بعد ظهور الإسلام من مدينة يثرب، وذلك بعد هجرة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم من مكة إليها، والتي أصبحت مركزا للدين الجديد، وهي المدينة التي تميزت أرضها بالخصوبة وطيب مناخها، لاحتوائها ووفرتها على العيون والآبار، سماها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة، وهي المكان الذي احتضنه واستقبله أهلها بعد أن أوذي من قريش بمكة.

كانت مدينة يثرب (المدينة المنورة فيما بعد) المرجع الأصلي والأساسي للعمران الإسلامي وبناء المدن الإسلامية في المستقبل، شيدها وأسس نظامها رسول الله صلى الله عليه وسلم كأولى المدن الإسلامية، والتي أخذت في التحول إلى مدينة حضارية بمعنى الكلمة، لتنتشر المدن والحواضر بعد الفتوحات لتشمل أقطار وقارات عديدة فيما بعد.

ارتبطت نشأة المدينة الإسلامية وتطورها بتاريخ الإسلام وتطور حضارته، "ففي يثرب، وبعد الهجرة النبوية إليها مباشرة بدأ ميلاد المدينة الإسلامية، فالرسول الأعظم بأعماله ونشاطاته خلال السنوات العشر التي قضاها في يثرب حول هذه الواحة من عدة قرى متقاربة إلى وحدة حضارية واحدة ومنحها مفهوم المدينة. وأوجد معظم الأسس لما سيظهر في المدن الإسلامية المقبلة من مؤسسات، صورتها تكاملت على يده."(شاكر، 1988، ج1: 300).

هذه المدينة التي كانت في الماضي عبارة عن قرية صغيرة يتكون نسيجها العمراني من مجموعة من القرى لقبيلتي الأوس والخزرج وبعض اليهود، متناثرة على مساحة كبيرة تفصل بينها غابات النخيل والحقول، فهي أرض منبسطة تتوفر على المياه وتعتمد على المحاصيل الزراعية ومنتوجات مختلفة أخرى. هاجر إليها الرسول صلى الله عليه وسلم وشيد فيها مدينة جديدة، فكان إنشاء المسجد هو أول ما قام به للعبادة وتسيير شؤون المسلمين.

اكتسبت المدينة مع مرور الزمن مركزا سياسيا وإداريا من خلال الأعمال والإنجازات المعمارية التي باشرها الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان المسجد الجامع نواتها الأولى الذي بنيت حوله دور ومنازل المهاجرين على الأراضي التي وهبت للأنصار، ليتواصل عمران المدينة في التوسع والامتداد، واستكمالا لمرافقها أنشئ السوق وربطت الشوارع والطرقات لتسهيل الوصول إلى المسجد الموجود بمركزها. إلى أن زادت الحاجة إلى المنشآت والمباني بعد استمرار الفتوحات الإسلامية من جهة، وزيادة السكان والقادمين مع الجيوش وأهاليهم من جهة أخرى، وتضاعفت المنشآت التي ستسع هذه الزيادات، فشغلت جل المساحات والفضاءات، وهذا ما أدى بدوره إلى نمو وتزايد السكان رافقه توسع عمراني للمدينة، ما أدى إلى حدوث تغيرات واضحة لمعالمها العمرانية. خاصة وأنه كان يراعي في بداية الدعوة عند بناء المدن الإسلامية الموقع البري، أو بعبارة أخرى أن لا يفصل بين المدن المشيدة وبين دار الخلافة فاصل مائي، كما كان العامل الحربي أهم دافع إلى إنشاءها.(المعتصم ،1980، العدد2: 220).

يلاحظ مما سبق أن تخيير المواضع زاد من إستراتيجية البناء والتشييد. واختيار المواقع في بناء المدن كان من أهم عوامل نشأة المدن الإسلامية، وأول وأهم خطوة فيها. فقد اهتم المسلمون على بناء مدن برية عكس الأمم والحضارات التي سبقتهم من فينيقيين ويونان ورومان، وركزوا على اختيار الموقع قبل الشروع في البناء، لما له من الأهمية في حياتهم المعيشية والصحية والأمنية.

إن لكل حضارة إستراتيجيتها وتخطيط بناء مدنها، فإذا كانت الحضارات القديمة تعتمد على الأنهار والبحار في قيامها ونشأة مدنها، بغية تسهيل التبادلات التجارية، وسهولة الاتصال بالأخرين، فإن المدن الإسلامية ظهرت نتيجة الفتوحات، كما أنها اعتمدت في نموها وتوسعها على تجارة القوافل وخدمة الأرض في أغلب الأحيان. وبذلك فهي مختلفة ومغايرة عن سابقاتها الفينيقية والرومانية في الانتقال من المواقع الساحلية البحرية إلى المواقع الداخلية البرية، وذلك بمراعاة أن لا يفصل بين مواقع المدن المنشأة فاصل مائي بينها وبين مقر الخلافة، فقد بنيت البصرة سنة 16هـ لتكون مقرا للمسلمين الذين لم يشأ أن يتخذوا من المدائن عاصمة الفرس القديمة مقرا لهم. كما فضلوا موقع البصرة لأنه لا يفصل بينها وبين مقر الخلافة فاصل مائي حتى يتمكن الخليفة عمر بن الخطاب أن يمد المسلمين بالجند في فارس. إلا أن سرعان ما اكتشف المسلمون لعدم صلاحية موضع البصرة بسبب كثرة ما يحيط بها من مستنقعات مما جعلهم ينقلون مقر حكومتهم في فارس إلى الكوفة بعد سنة واحدة من تأسيسها.(المعتصم، 1980، العدد2: 226).

كما كان هذا الاتجاه واضحا عند بناء الفسطاط سنة 20هـ على ضفة النيل الشرقية، مع أن موقع مدينة منف على الجانب الغربي ظل الموقع الأكثر تفضيلا لدى الكثير من الحكام المصريين في عهد الفراعنة، وهذه المدينة أيضا حلت محل الإسكندرية التي كانت حاضرة لمصر خلال العصر الروماني. كل ذلك لتميزها بعدم وجود فاصل مائي بينها وبين مقر الخلافة ووقوعها في قلب مصر. بالإضافة إلى انتقال الأهمية من أنطاكية إلى دمشق في الشام

ومن قرطاجة إلى القيروان في تونس. هذه الأخيرة التي اختار موقعها البري عقبة بن نافع سنة 50هـ ليكون المسلمون في مأمن من غارات أساطيل الروم.

إلا أنه وابتداء من عهد خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه تغيرت الإستراتيجية حيث بدأت الدولة في إنشاء قوة بحرية لتوسيع الفتوحات عبر كامل المعمورة.(المعتصم، 1980، العدد2: 227).

إلى جانب هذا تميزت المدن الإسلامية بخصوصيتها بالعامل الديني، الذي ساهم بشكل كبير في نشأة معظمها، والذي يمثل المحور الأساسي في قيامها وتخطيطها، وكان المسجد والجامع أهم معالمها، فالعامل الروحي في تكوين أي مدينة عربية إسلامية يتجسد في إنشاء بيت صلاة المسلمين باعتباره نواة تشكيل المدينة، ومن هنا تتسابق المنشآت المعمارية الأخرى العامة والخاصة لتجد لها مكانا بالقرب منه حتى يتسنى للمسلمين ممارسة شعائرهم في أوقاتها.

لقد كانت دار الرسول عليه الصلاة والسلام في المدينة المنورة نقطة البداية في تاريخ العمارة العربية الإسلامية، بعد أن تحولت إلى مسجد، وما توالى عليه من إضافات وتعديلات حتى انتهى إلى شكله النهائي أيام عثمان بن عفان، والذي صار نموذجا يحتذى به المسلمون في تشييد مساجدهم في أنحاء العالم الإسلامي، ثم ما إنبثق بعد ذلك من أنواع مختلفة من العمائر ومن أساليب وتقاليد تصميمية وبنائية على مر العصور واكبت مسيرة الحضارة العربية الإسلامية في مراحل تاريخها. "وكان الغالب على الجماعة الإسلامية الناشئة في عصر النبي وفي عصر الخلفاء الراشدين من بعده، البساطة وخشونة العيش والجهاد في سبيل الله. ولم يعرف عن العمارة في ذلك العهد سوى دار الرسول وبعض مساجد ذات جدران من اللبن وأسقف من زعف النخيل، بسيطة في تخطيطها، محاطة بجدران.(سامح، 1991: 5)

وكان مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم أول بناء في الإسلام، وأول مبنى ديني شيده المسلمون، وهو بذلك مرجعية لكل المعماريين من المسلمين في بناء وتشييد المساجد لاحقا.

ومنذ أن تولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه الخلافة عرف عهده "كثرة الفتوحات، واتسعت رقعة البلاد الإسلامية، وبعدت على المسلمين الشقة، واحتاج الجند إلى أماكن يستريحون فيها من عناء السفر، حتى يلقوا عدوهم والسفر لم ينتقص قوتهم، فكان لابد لهم من منازل يشتون فيها إذا شتوا، ويأوون إليها إذا رجعوا من غزوهم، ومن ثم وجدت الدواعي لبناء المدن والأمصار."(شلبي، 2012: 203).

كانت العمارة الإسلامية مستقلة بفكرها المنتمي إلى الثقافة والدين الإسلاميين. بالرغم من أن انطلاقاتها الأولى قد تأثرت بعمائر الحضارات التي سبقتها، "وكانت مباني العرب في غاية البساطة. ولم يكن في مكة إلا مبان قليلة أهمها (الكعبة). وكانت دور الأغنياء تبنى بالحجارة، على حين كانت معظم مباني المدينة تبنى من اللبن. وكانت الدور في الغالب من طبقة واحدة...ولما اتسعت الفتوح الإسلامية في عهد عمر بن الخطاب وكثرت الأموال في الحجاز، توافد على المدينة كثير من الخبراء في العمارة من الأجانب، فارتقى فن العمارة فيها، وشيد كبراء العرب في مكة والمدينة القصور الواسعة من الحجارة والرخام، ويقال إن الدار التي بناها عثمان بن عفان كانت غاية في العظمة والبهاء."(حسن، 1996، ج1: 420).

إن تحديد مفهوم العمارة الإسلامية والمتمثل في مجموع البنايات وكذا المنشآت التي شيدت في المدن الإسلامية الممتد تاريخها منذ ظهور الإسلام، كانت انطلاقتها وظهور ملامحها منذ تشييد المسجد النبوي. وعليه يمكن القول "أن فن العمارة الإسلامية، هو من أهم وأقدم الفنون التي عرفها العالم، فقد نشأ الفن الإسلامي في القرن الأول الهجري(السابع الميلادي) ونما حتى بلغ مرحلة الشباب في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلادي ثم دب إليه الضعف منذ القرن الثامن عشر بعد أن تأثر المسلمون بفنون الغرب. ويعتبر فن العمارة الإسلامية من أوسع الفنون انتشارا، فقد امتدت الإمبراطورية الإسلامية من الهند وآسيا الوسطى شرقا إلى الأندلس وبلاد المغرب غربا، ومن جنوب ايطاليا وصقلية شمالا حتى بلاد اليمن جنوبا، ومن الطبيعي أن الأساليب المعمارية في الإمبراطورية الواسعة لم تكن ذات طراز معماري واحد في القرون

الطويلة التي ازدهر فيها الفن الإسلامي. فهي تختلف وتتميز عن بعضها في كل إقليم في العصور المختلفة."(سامح ،1991: 5).

إن المدن الإسلامية والحواضر التي شيدها المسلمون لأنفسهم بعد انتشار وتوسع الإسلام، دون المدن التي افتتحوها، لم تزل بعضها عامرة إلى اليوم كمدينتي القاهرة وبغداد، ومنها ما اندثرت مع مرور الزمن، ذلك أن الفكر الإسلامي شكل المرجع الأساسي في تخطيطها، فمنذ بداية الفتوحات، والتي شملت قارات آسيا وأوروبا وإفريقيا، كانت نتائجها أن شهدت هذه المناطق نهضة عمرانية كبيرة تمثلت في تأسيس وازدهار العشرات من المدن خلال عدة قرون."إذ ولد فن العمارة الإسلامية في عصر بني أمية، ولكنه سرعان ما نما وترعرع فكانت من آثار الطراز الأموي عمائر يبدو فيها أن المسلمين أفادوا من فتوحاتهم ووحدوا كثيرا من العناصر الفنية في أجزاء دولتهم وألقوا منها طرازا ممتازا."(حسن، 1996: 429).

وبعد أن ظهر الإسلام كقوة سياسية جديدة على خريطة العالم، انصب اهتمام الحكام بالعمارة وبناء المدن والذين ساهموا وشاركوا في تخطيطها وإنشاءها، بعدما اختاروا المواقع المميزة وأضافوا إليها فنونهم المختلفة. فكان الأثر واضحا من خلال تميز العمارة الإسلامية عن باقي العمارات. وبصفة عامة يمكن تصنيف المدن الإسلامية كغيرها من مدن الحضارات الأخرى حسب نوعية النشاطات الغالبة فيها، فتنوعت من مدن للدفاع إلى مدن تجارية أو دينية، "أما المدن التي بناها العرب بعد إسلامهم، في بلادهم، والبلاد التي خضعت لهم فيمكن أن نشير إلى أنها مدن عربية لأنه قد تم إنشاؤها أو توسيعها،أو تجديدها على أيدي الخلفاء، والملوك، والأمراء، والقادة العرب، ولأن القواعد التي خضعت لها وأنشئت بموجبها تمت على أيدي العرب أيضا."(معروف، 1964: 15).

تجدر الإشارة أن الظروف والأحوال أملت تخطيط وتشييد المدن الإسلامية، نتيجة تفاعل الإنسان مع بيئته الجديدة، وتفاعله هذا جعله يجمع بين الجانبين الروحي والمادي، فكان الجامع مركزا للمدينة يتميز بدوره التعبدي والتعليمي، في حين كان السوق المركز التجاري وشريان

الاقتصاد. وكلاهما مهمان وضروريان في حياة المسلم، كما أن بناء وتشييد أي مدينة إسلامية لا يتم إلا بوجودهما.

"لقد امتدت العمارة الإسلامية جغرافيا امتدادا واسعا، فقد امتدت من الصين شرقا إلى الأندلس غربا، ناهيك عن العمق الزماني الطويل الذي امتدت فيه والذي يزيد عن الأربعة عشرة قرنا، وعليه نرى أن تكون دراسة الزمان والمكان اللذين شكلا العمارة العربية الإسلامية من خلال الأنماط الوظيفية المتنوعة التي تمثلت فيها الأبنية الإسلامية، ولعل أهمها المساجد والجوامع، وإلى جانب الجامع هناك القصور ثم المدارس والأضرحة وهذه بدأت متأخرة في العالم الإسلامي".(المالكي، 2011: 150).

"إن العرب أفادوا من موقع دولتهم بين آسيا وإفريقية وأوربا في الربط والتنسيق بين الحضارات التي صادفوها في هذه القارات الثلاث، وفي إقامة حضارة جديدة شامخة لا يمكن أن توصف إلا بأنها عربية إسلامية".(عاشور، 1963: 17).

وبذلك يمكن اعتبار أن جذور المدينة الإسلامية تمتد إلى المدن القديمة التي سبقتها، وكأن هناك ترابط وتواصل حضاري فيما بينها، كما أن فكرة تخطيطها قد تطور حسب زمان ومكان تشييدها، فكان تأثير الإسلام فيها كبيرا، على أساس أن الدين هو المحور الأهم في حياة كل فرد في المجتمع، وعليه اختير بناء المسجد والجامع كنواة في وسط المدينة، باعتباره المؤسسة الدينية والتعليمية والقضائية وحتى السياسية. بالإضافة إلى منشآت معمارية مدنية أخرى تحيط به والمتمثلة في السوق ودار الحاكم وسائر بيوت المسلمين وهي بمثابة ملامح المدينة الإسلامية الأصلية والتي تميزها عن غيرها من المدن.

2: خصائص ومميزات المدن الإسلامية

ساهم المسلمون في الحضارة الإنسانية بمجموعة من الانجازات والإبداعات في مختلف المجالات، أهمها مجال العمارة وبناء المدن، الذين تميزوا في بناءها وتشييدها على التركيز على التوازن في عمارة الأرض وكذلك للعيش الحسن في الدنيا والفوز بالآخرة.

"كانت الصفة الدينية هي أهم مميزات المدينة الإسلامية، بينما جاءت بعد ذلك الصفتان العسكرية والتجارية، وهذه الصفات مجتمعة معا، شكلت الهيكل الرئيسي لتخطيطها، ووضع معالمها. وقد ظهرت المدن العربية، وانتشرت مع الفتوحات، ولقد أسهم العرب قديما في إنشاء المدينة الجديدة. ومع ظهور الإسلام كون المسلمون إمبراطورية واسعة ازدهر فيها العمران، وظهرت مدن أدت دورا مهما في نشر الثقافة وتقدم التجارة" (علي محمد، 2015: 195).

تمثل المدينة في الإسلام صورة المجتمع الإسلامي، التي تطورت مع مرور الزمن وتغير الأمكنة التي نشأت فيها، باعتبارها الكيان الذي يلبي حاجات المجتمع وانسجامه مع ساكنيها، تستقي أحكامها وأصولها من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

كان تأثير الإسلام واضحا على العمران، والذي يعتبر المحور الأساسي للحياة، فكانت المساجد أهم معالمها، "ومما لا ينكر أن العرب قد تأثروا بالأمم التي انضوت تحت راية الإسلام، فاقتبسوا منها عناصر معمارية جديدة من أثر تحويل بعض المعابد والكنائس إلى مساجد، فيلاحظ أن العرب نقلوا إلى مساجدهم من وحدات هذه الأبنية القديمة ما وجدوه ملائما ومتفقا مع شعائر دينهم... وقد ظل الإسلام مصدر الإلهام والوحي للعرب في إبداعهم وابتكاراتهم في فن تخطيط المدن وعمارتها مدنيا وعسكريا، وبهذا مد ظلالا جديدة للعرب وللإنسانية جمعاء. وتبدو لنا من هندسة المدن العربية الإسلامية وبناء مرافقها المدنية أو العسكرية أنها لم تكن من الأمور المرتجلة، وإنما كانت ثمة شيء من التنظيم منذ أول شروع العرب في التخطيط"(الموسوي، 1982: 216).

عُرف عن الحكام المسلمين مشاورتهم ومشاركتهم المباشرة في عمليات التخطيط والإنشاء، وكثيرا من المدن التي بنيت كانت وفق الطراز العربي، على الرغم من أنها كانت في أرض غير عربية. بل وأصبحت هي الطراز العربي كما يشاهد ذلك اليوم في إسبانيا والبرتغال وصقلية وخراسان والهند.(معروف، 1964: 18).

حرص المسلمون الأوائل عند اختيارهم واصطفاءهم لمواضع المدن التي أرادوا إنشائها، بلوغ عامل الأمن والأمان، ولهذا كان العامل الحربي أكثر العوامل تأثيرا على مواضع المدن.

وبصفة عامة كان العرب ملتزمين وجد حريصين إذا أرادوا بناء مدينة ارتادوا الأماكن المختلفة، وقاموا بإجراء تحريات طبوغرافية أولية لأجل تخطيط مدنهم، لمعرفة صلاحها للأغراض العسكرية، كما فعلوا ذلك عندما بنوا مدن الكوفة، وواسط وبغداد وسامراء، وغيرها من المدن، فكانوا يبنون مدنهم على الأنهار، أو على مقربة منها، كما كانوا يحرصون على أن يكون المحل المختار صحيا، خاليا من الحشرات، والهوام.(معروف، 1964: 27-28).

وصفوة القول أن علماء المسلمين أكدوا منذ البداية على الضوابط الواجب مراعاتها عند اتخاذ المدن والحواضر وإنشاءها وفقا لشروط دقيقة، يقول ابن خلدون في شروط اختيار مواقع المدن ما يلي:

1. أن تحاط بسور يدفع المضار.
2. أن تحتل موضعا متمنعا من الأمكنة على هضبة أو على نهر أو بإستدارة بحر...الخ
3. مراعاة اتخاذ الموقع الذي يتمتع بطيب الهواء للسلامة من الأمراض.
4. جلب الماء بأن يكون البلد على نهر أو بإزائه عيون عذبة.
5. طيب المراعي لسائمتهم.
6. مراعاة المزارع فإن الزرع هي الأقوات.(ابن خلدون، ج3: 839-840).

وكحتمية في بناء المدن فإنه"من واجب المسلمين في بناءها مراعاة أصلين مهمين وهما جلب المنافع ودفع المضار. والواقع أن الإسلام في روحه الأعمق وفي جوهره دين مدني، مرتبط بالحضر، وبالمدن والعمران وبالحياة الفكرية والاجتماعية والاقتصادية المتطورة، وبالتنظيم المستقر للناس، وبالاجتماع الأوسع المتعاون".(شاكر، 1998، ج1: 23).

والإسلام في حد ذاته هو دين مدني، فهو يعتني بتنظيم حياة الإنسان الدنيوية وتحقيق كل مصالحه وفق ضوابط وقيود شرعها هذا الدين السماوي.

ولعل ما يميز المدن العربية الإسلامية هو موقع معظمها في المناطق ذات المناخ الحار، مما أثر على طبيعة الحياة فيها، فكان لزاما على مؤسسي تلك المدن والحواضر التفكير والاهتمام بكيفيات الحماية من أشعة الشمس الحارقة، وتلائمها مع الظروف المناخية القاسية للعيش والاستقرار فيها، فقد بدأ تأثير الظروف الطبيعية واضحا على العناصر الأساسية للعمارة الإسلامية قاطبة، فندرة الأمطار والمناخ الصحراوي الجاف قد أظهر أهمية المياه عند مؤسسي تلك المدن، ولذلك أكثروا من بناء الأسبلة العامة، كما زود الكثيرون من نبلاء الطبقة البرجوازية قصورهم ومنازلهم ببرك المياه، والنوافير كنوع من الأبهة.(مارسيه، 2016: 11).

هذا وينطبق تأثير المناخ على جميع الأمم والحضارات الذي له صلة مباشرة في انتقال الحضارة من معقل إلى أخر. فالمناخ يعد مكونا أساسيا لاستقرار البشر ومن ثم نمو حضارته، ولهذا فالتأقلم والصبر على الطبيعة ضروريان لبقاء الإنسان واستمراره في الحياة.

إن للمدن الإسلامية خصائص مشتركة، فهي تظهر على أنها جميعا نتاج للثقافة الإسلامية التي بدأت منذ أكثر من أربعة عشر قرنا من الزمن. فتميزت جميعها بكثرة عدد المساجد فيها، فقد سادت لدى المسلمين الأوائل نزعة وجدانية عارمة بالمساجد. والمسلمين الأوائل عند بنائهم المدن الجديدة في المناطق التي دخلوها اهتموا ببناء المساجد في وسطها وعلى مقربة من مقر الحاكم أو الوالي.

كما ولوا أهمية كبيرة في بناء القلاع والحصون والأبنية ذات الفن الإسلامي، ويعود اهتمامهم بذلك إلى كثرة الأعداء الحاقدين على الإسلام مما اضطر سكان المدن الإسلامية ليقوموا بتحصينها درءا للأخطار وحماية للنساء والأطفال والشيوخ ممن يسكنوها. بالإضافة إلى وجود أدبيات التراث الإسلامي من مكتبات تدل على الشكل الديني والثقافي للمجتمع بالمدن الإسلامية.(العفيفي، 2000: 15-16).

والمسلمين كغيرهم من الأمم والشعوب، فقد لعب عامل تزايد السكان عندهم من ناحية، وتنوع حاجات الإنسان نتيجة لتطوره من ناحية أخرى، دورا أساسيا في عملية التوسع الذي اتصفت به مدنهم، وهذا ما خلق نماذج مميزة لأول أنواع المدن المعروفة في العالم.

إذ عني المسلمون الأوائل على أن يجعلوا من العمارة مهمتها الأساسية هي خدمة الدين، فكان المسجد هو حجر الزاوية فيها. ثم تنوعت وكثرت العمائر الدينية حتى شملت الجوامع والمساجد والمدارس والزوايا والكتاتيب وغيرها، أما العمائر المدنية فقد احتوت على القصور والديار والأسواق والحمامات والحوانيت، وفيما يخص الحربية فقد ضمت الحصون والقلاع والأسوار والرباطات. وما يمكن ملاحظته أن جميع المدن التي اختطها المسلمون الأوائل اتبع فيها نظام موحد، فكان اختيار الموقع يتماشى وسير الفتوحات خارج الجزيرة العربية، بمراعاة توفر المياه لأجل وفرة المحاصيل الزراعية، وطيب الهواء تفاديا للأوبئة والأمراض، ثم تخطيطها كان على أساس بناء المسجد الجامع ودار الإمارة في وسطها، ثم قيام السوق بجانبهما، لتوزع بقية أجزاء المدينة من دور ومنازل تأوي المشاركين في الجيوش الإسلامية وبذلك تتكون المدينة وتتسع فيما بعد.

اتخذ المسلمون في جانب حصانة الموقع المختار وسائل دفاعية قوية تمثلت في الأسوار العالية التي تحيط بالمدينة أو أحد أحيائها درءا للأعداء وحمايتها من الهجمات الأجنبية، كما كانت مزودة بوسائل الدفاع في أبراجها المتواجدة بأركانها ومداخلها، لغرض الحماية والأمن، والتي تخللتها بوابات عديدة تربط بين الداخل والخارج.

ومع مرور الوقت تحولت المدن الإسلامية الأولى من معسكرات مؤقتة إلى مدن كبيرة وعامرة، ابتدأت أول أمرها باستعمال مواد بناء أساسا من القصب ثم من طوب اللبن ثم استخدم الأجر والجص، إلى أن اتسع الثراء واستقرت الأحوال فكان البناء بالحجر المنحوت وغيره.

تميزت العمارة الإسلامية بمختلف أشكالها ووظائفها عن باقي العمائر بخلوها من الصور المجسمة، وركزت على التشكيلات الرمزية للخط العربي المرتبط بمعاني القرآن الكريم كأحد معالمها البارزة، والذي استعمل في زخارفها وجميع عناصرها."فكانت الزخارف مستمدة من المناظر الطبيعية والأشكال الهندسية والنباتية، وتحاشى المسلمون التماثيل والصور المجسمة، لأنها محرمة عليهم، حتى لا يتشبهوا بعبدة الأوثان".(شلبي، 2012: 217).

يظهر لنا أن هندسة المدن العربية، وبناء مرافقها العسكرية، أو المدنية لم تكن من الأمور المرتجلة، وإنما كان ثمة شيء من التنظيم منذ أول شروع العرب في اختطاط البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان... من وضع العلامات على الأرض، إلى التخطيط على الأرض بالرماد، أو بالكلس وهو الجبس، إلى عمل الخرائط، والتصاوير، والرسوم للأبنية، والكتابات، والزخارف، على الورق أو الجلود أو الأقمشة. إلى التصاميم المجسمة للقصور، والمساجد، والقرى... وكان لاختلاف العصور والأمكنة، والأسر الحاكمة، وتعدد الدول الإسلامية أكبر الأثر في تنوع هذه الوسائل، ودقة التنظيم، ووفرة الإنتاج.(معروف، 1964: 30-31).

وبهذا يظهر أن هذه المعالم قد جسدت مكانة المدينة الإسلامية واختلافها وتميزها عن غيرها خاصة خلال ازدهارها، والحديث عن المسجد والذي يعد من أهم عناصرها بل هو النواة التي تقوم المدينة من حوله، مرجعه إلى الدور الكبير الذي يضطلع به، ففيه يتناقش المسلمون في كل أمورهم، فهو بذلك مكان للعبادة وندوة للنقاش السياسي ومجلس للقضاء، كما قام أيضا بدور المدرسة لما يقدمه من دروس تعليمية وتربوية، ولهذا أصبح يعرف بالجامع. ولوقوعه في وسط المدينة أحيطت الأسواق به، بالإضافة إلى أنه لعب دورا هاما في إيواء المسافرين من طلبة العلم.

ومن المعالم الهامة أيضا التي صاحبت إنشاء المدن الإسلامية وميزتها، دار الإمارة، المواجهة للمسجد في غالب الأحيان. والتي عرفت تطورات في بناءاتها، فشهدت الانتقال من البساطة إلى الفخامة خاصة بعد اتساع المدن وتطورها، وتوريث الحكم وتنافس الحكام والأمراء عبر الزمن. كما أنها أحيطت بالحدائق وتزينت بها، والتي باتت تسمى بالحدائق الإسلامية، لما لها من جمال وتنوع نباتاتها، خاصة ما شهدته الإمارات والمدن الأندلسية. إلى جانب هذا تميزت شوارع المدن وأزقتها بالضيق والتعرج، وهذا ما كان مألوف لدى السكان الذين زادت من قربهم من بعضهم البعض وتراحمهم واتحادهم.

أما الأسوار والقلاع فيعتبران من العناصر الأساسية في كل مدينة، ولا يمكن أن نتصور بناء مدينة إسلامية بدونهما، واللذان يقومان بتحصينها والدفاع عنها، إلى جانب القيام بعمليات الهجوم منها على الأعداء والمغيرين. والتي تكون في غالب الأحيان مزودة بالبوابات، والأبراج والشرفات والقلاع، كما تم إلحاق المدن بالرباطات وهي نوع من المباني العسكرية والدينية، والتي عرفت خصوصا بالمغرب الإسلامي لصد محاولات وغزوات الصليبيين المتكررة، والتي انتهت مهامها بعد ظهور أسلحة العصور الحديثة التي قضت على وجودها.

ونظرا لأهمية العمارة الإسلامية في الحضارة الإنسانية فقد تميزت بخصوصيتها عن غيرها من عمارة الحضارات الأخرى خاصة ما تعلق "بامتدادها الأفقي، هذا التخطيط والذي يمكن أن يكون نابعا من طبيعة الصحراء الساكنة حيث لا يرى إلا الأفق الممتد، هذا الأخير الذي يجسد فكرة المساواة بين أفراد الجماعة الإسلامية الذين يقفون في الصلاة في صفوف متماثلة، فكأن الأفقية في بيت الصلاة تعبير عن البساطة والتنزيه في الإسلام، على عكس الامتداد الرأسي الذي يظهر في كتدرائيات أوروبا من الطراز القوطي مما يمثل الطبقية في المجتمع الإقطاعي هناك".(عاشور، 1996: 450-451).

وقد حرص المسلمون على استخدام الأقواس والعقود والقباب بأشكالها المختلفة، وبطرق مبتكرة كعناصر معمارية أصيلة أو كعناصر زخرفة.(عاشور، 1996: 453).

هذه الأخيرة التي تعكس أصالة الطراز المعماري العربي الإسلامي وأهم خاصيته، وفي هذا المجال يذكر سيد أمير علي أن "الطراز المعماري لأي شعب من الشعوب، إلا ويستمد ميزاته من خصائص الوطن الأصلي لذلك الشعب وأحوال معيشته البدائية، ولهذا نلاحظ في رسوم الأقواس والأعمدة والمنائر والقباب المستعملة في الفن المعماري العربي تشابها قويا مع تقوس وتقبب أحواض وأحواش النخيل المحببة إلى قلوب العرب."(علي، 1938: 169).

ومع مرور الوقت واتساع الفتوحات الإسلامية شرقا وغربا بلغت العمائر الإسلامية سواء من حيث التخطيط أو أساليب البناء والزخرفة درجة عالية من الفخامة والجمال، وزاول المعماريون المسلمون تشييد شتى أنواع المباني، كما خلفوا لنا أنماطا كثيرة من العمائر الإسلامية من مساجد ومدارس وقلاع وقصور وأسواق وأربطة ومساكن وغير ذلك من المباني الدينية والمدنية والعسكرية. كما خططوا المدن وعبدوا الطرق وشقوا القنوات وشيدوا القناطر." (الباشا، 1999، المجلد1: 125).

بعدما عرف المجتمع الإسلامي الجديد في البداية نوعا من التقيد وعدم الإسراف في تشييد المباني أو التطاول فيها، خاصة ما عرفه عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وبعده عهد الخلفاء الراشدين، والتي كانت بيوتهم مجرد بيوت لا تختلف في مظهرها عن بيوت باقي المسلمين، إلى أن جاء عهد الأمويين وازدياد اهتمام الحكام بإنجاز العمائر الكبيرة كمقرات لهم.

إن للمدينة الإسلامية شخصيتها وطابعها المميز، وتأثير الإسلام فيها كان كبير، ومن خلال خصائصها المميزة تكونت شخصيتها وهويتها التي تميزها عن غيرها من المدن والتي لازالت بعضها قائمة.

كان تأثير الفاتحين المسلمين كبيرا لدى المناطق التي انتشروا فيها، خاصة بعد تشييدهم للمدن والحواضر والذين تفننوا في تخطيطها بعد استعمالهم لأذواقهم ومهاراتهم لأجل إضفاء مناظر جميلة للمدن وتوفير جو ملائم للعيش، وتحسين بيئة الحياة بصفة عامة، ولقوة تأثير هؤلاء المسلمين الفاتحين،" كانت هناك مدنا ذات أسماء غير عربية، تقع في بلاد خارج الجزيرة

العربية وسوف تدهش القارئ أسماء بناتها، أو مجدديها أو موسعيها،(اختطها العرب في البلاد الأعجمية، مع أسماء الذين اختطوها أو بنوها) ومن بينها المدن التي سنذكرها في ما يلي:

-قم - طلحة بن الأحوص الأشعري.

-شيراز- محمد بن القاسم الثقفي.

-تبريز في أذربيجان- الوجناء بن الرواد الأزدي.

- منستير- الربيع بن سليمان القرشي.

- مرسية بالأندلس- الأمير عبد الرحمن الثاني الأموي

- مجريط (مدريد) - الأمير محمد بن عبد الرحمن الثاني الأموي.

- قزوين- سعيد بن العاص الأموي.

وأن كثيرا من هذه المدن بنيت وفق الطراز العربي على الرغم من أنها كانت في أرض غير عربية، بل وأصبحت هي الطراز العربي.

مما سبق نستطيع أن نؤكد أن هذه المدن الإسلامية إنما هي مدن عربية، بنيت في عهود كان العرب هم الحكام فيها، وأن بناتها ومؤسسيها كانوا من العرب على الرغم من أن الكثير منها طمست في عهود لاحقة، وقضي على أسمائها العربية، وأصبح العرب أنفسهم لا يعرفون شيئا عن هذا التراث العربي، الذي خلفه أجدادهم للعالم."(معروف، 1964: 15-19).

كما ساهم المسلمون أيضا في بقاء المخلفات المادية للحضارات التي سبقتهم، وهذا ما تؤكده "الدلائل المتوافرة الكثيرة على أن الجيوش العربية لم تهدم المدن الفارسية أو السندية أو مدن أسيا الوسطى، ولم تقم بأية أعمال وإجراءات تخريبية لمعالمها العمرانية أو لضواحيها ومزارعها وحقولها الزراعية المنتجة. وأنها لم تنهب أو تحرق أو تدمر قلاع هذه المدن أو أسواقها أو حصونها".(ناجي،2001: 456).

وفي الأخير يمكن أن ندرج أهم ما يميز المدينة الإسلامية عن غيرها من مدن الحضارات الأخرى هو وقوعها في وسط العالم، فالمناخ كان له كبير الأثر في نموها، كما أن نشأتها ارتبطت بقيم وتعاليم التي دعى إليها رسول الله من التآخي بين المسلمين والترابط بينهم إلى جانب نبذ النزاعات القبلية التي كانت موجودة قبل بعثته.

فكان المسجد نواتها الأولى ومن حوله تم تخطيط المنازل والمحلات وإنشاء السوق ثم ربطت الطرقات والشوارع باعتبارها شرايين الاتصال بين الوحدات المعمارية، كما لعبت الأوقاف دورا مهما في ازدياد عمران المدينة الإسلامية بصفة عامة ونمو منشآتها.

إلا أن اكتساح العمران المعاصر عديد المواقع الأثرية للمدن الإسلامية، أدى إلى تعرضها إلى خطر اندثارها، كما أن هذا الزحف العمراني لا زال يهدد مواقعها من أثار وشواهد عن المدن القديمة وخاصة الإسلامية، علما أن الكثير منه ما زال مغمورا، لم يعرف دراسات واجتهادات من شأنها أن تساهم في إنقاذ ما يمكن إنقاذه، لأجل إزالة بعض أسرار المدن والحواضر والآثار الإسلامية.

إن المآثر العمرانية هي الدليل المادي على تاريخنا المجيد، وبالحفاظ عليها هو صون ومعرفة ماضينا، الذي منه نكون هويتنا وشخصيتنا، كما أن إعادة إحياء ذلك التراث وتلك المآثر التي خلفها الأجداد هو حفظ لتاريخنا وماضينا وحضارتنا بصفة عامة.

المبحث الثالث: مدن المغرب الأوسط قبيل العهد العثماني

1: تأسيس المدن وتطورها في المغرب الأوسط

إن استقرار الإنسان في المغرب الأوسط خاصة وفي شمال إفريقيا عامة، يرجع إلى عهود قديمة، ومضى على وجوده زمن طويل، فقد أجمع الباحثون في تاريخ المنطقة قدم التجمعات السكانية بها، بدليل انتشار الشواهد والمخلفات المادية التي لازالت موجودة على هذه الأرض إلى غاية اليوم. وكثيرة هي الأدلة على التواجد والتنوع الحضاري في المنطقة، والتي عرفت تدفقا لمجموعات بشرية كثيرة ومتنوعة استقرت في هذه الأرض منذ القديم.

وفي هذا الشأن يذكر المؤرخ عبد الرحمن الجيلالي عن هذا التواجد البشري فيقول: "أما عن تاريخ أقدم سكان الجزائر أو قل-شمال افريقية-(من غير البربر) فقد تضاربت أقوال المؤرخين في ذلك، يقال إنهم مجموع طوائف ومزيج سلائل تجمعت من الطارئين على هذا الشمال الإفريقي من مختلف الأوطان في غابر الأزمان فتكونت منهم وحدة قومية وعنصر ممتاز هو العنصر الإفريقي وعرف هؤلاء من بين الأمم بالأفارقة".(الجيلالي، 1965، ج1: 45).

كما تحدث الدكتور موسى لقبال في هذا المجال حين ذكر أن من "سكن منطقة إفريقية، منذ عصر مبكر عنصر الأمازيغ، والأفارقة، فضلا عمن طرأ بعد ذلك، من الرومان، والروم".(لقبال، 1981: 16).

يجدر الذكر أن "أصل عنصر الأمازيغ غير محدد بتاريخ، حتى أن الباحثون لم يتفقوا على تحديد زمنه بالضبط، وهذا يعود بطبيعة الحال إلى قلة وانعدام تأريخ أو كتابات عنهم، إلا أن البحوث لا زالت قائمة في هذا المجال لتحديد تاريخ تواجدهم بالمنطقة. بالإضافة إلى البربر من الصعب تحديد أصلهم ونسبهم والمكان الذي قدموا منه في الأصل، فإن معظم الباحثين متفقون بأنهم ينتمون إلى الجنس السامي، ومن أبناء مازيغ ابن كنعان".(بوحوش، 1997: 8).

وعليه فإن تاريخ الجزائر قديم قدم هذه الأرض، التي سكنتها شعوب وأمم عديدة، ومرت عليها حضارات مختلفة ساهمت كلها في بناء ماضي شمال إفريقيا ككل.إذ أن"تاريخها يتوغل في العصور القديمة السحيقة إلى آماد بعيدة، ويأخذ هذا التاريخ في الجلاء والوضوح مع ارتياد الفينيقيين الشاميين لسواحل إفريقيا في القرن العاشر قبل الميلاد وقبله وبعده بحثا عن مواقع تصلح لرسو سفنهم التجارية ونزولهم بها لتبادل سلع التجارة مع السكان. وكانوا شعبا ملاحيا متحضرا عريقا يحترف التجارة، ومضوا طويلا يتعرفون على المواقع التي تلائمهم في سواحل إفريقيا."(ضيف، 1995: 21-22).

أما تسمية بلاد إفريقيا من قبل الفينيقيين فقد" جاء في كتاب (قادة فتح المغرب العربي) قوله: أطلق الفينيقيون لفظ أفري Aphri على أهل البلاد الذين كانوا يسكنون حول مدينتهم القديمة أوتيكا Utica وعاصمتهم قرطاجنة مدينتهم الحديثة، وعنهم أخذه اليونان فأطلقوه على أهل البلاد الأصليين الذين يسكنون المغرب من حدود مصر إلى المحيط، ومن ثم سميت هذه المنطقة (أفريكا) أي بلاد الأفري واستعمل هذا الاسم للدلالة على هذه المنطقة، وأخذ معنى هذا اللفظ يتسع شيئا فشيئا كلما اتسع سلطان الرومان في إفريقية فأصبحت ولاية إفريقية القنصلية تضم ولاية إفريقية الأصلية والجزء الشرقي من تونس الحالية، والمنطقة الداخلية التي تمتد حتى (فزان)، أما بقية إفريقية الرومانية فسمي الجزء المقابل منها للجزائر الحالية: نوميديا، ويلي ذلك موريتانيا بقسميها القيصرية والطنجية، فإفريقية تشمل كل ما دخل في طاعة الرومان من هذه القارة من برقة إلى طنجة."(صلابي، 1998: 116).

أما بالنسبة إلى الفينيقيين وبعد ارتيادهم سواحل شمال إفريقيا فقاموا "بعقد الصلات التجارية وأقاموا الموانئ على شواطئ المغرب لغرض التجارة وأنشئوا مدينة من أجمل المدن وهي قرطاجة التي نافست روما مدة طويلة من الزمن ثم جاء الرومان من بعدهم فدمروها وجعلوا من شمال إفريقيا ولاية رومانية كما جعلوا من أغلب دول العالم ولايات تابعة لإمبراطوريتهم."(الجزائري: 17).

ومن أهم ما يلاحظ على هذه "المدن الفينيقية العتيقة، خارج فينيقية، أنها كانت مطبوعة حضاريا بطابع شرقي واضح، ذلك أن الوافدين، الذين كان لهم الفضل الأول في نشأة المدن العتيقة على شواطئ الحوض الغربي للبحر المتوسط، لم يغفلوا عن طبع مدنهم في شمال إفريقية بالطابع التقليدي المنقول من الشواطئ الشرقية لنفس البحر، حيث نقلوا إليها عاداتهم، وتقاليدهم، ومعاملاتهم، ومعتقداتهم وحتى قصصهم وأساطيرهم التي تدور حول نشأة هذه المدن."(حليمي، 1972: 137).

ومن هنا، أخذ الفينيقيون يظهرون على مسرح الأحداث في البحر الأبيض المتوسط، حيث أقاموا مراكزهم العديدة على ضفافه الجنوبية، بعد أن أقاموا محطاتهم على ساحل المحيط الأطلسي، دون اعتراض يذكر من قبل السكان الأصليين، الأمر الذي يوحي بأنهم عقدوا صفقة ما معهم. ويقال أن محطاتهم ومدنهم وصل عددها في الشمال الإفريقي إلى 300 محطة ومدينة.(الدراجي، 2013: 70).

والفينيقيون أمة بحرية، يتركز نشاطهم الأساسي في التبادلات التجارية مع أمم وشعوب كثيرة ومختلفة، بعدما إلتجأوا إلى إقامة مراكز تموين عبر طول الشريط الساحلي لشمال إفريقيا، منطلقين من شمال بلاد الشام أي من مناطق سواحل لبنان وسوريا الحالية وصولا إلى شمال المغرب الأقصى الحالي والمحيط الأطلسي. وانتعشت علاقاتهم بفضل حنكتهم في التعامل مع غيرهم، كما ازدهرت مبادلاتهم نتيجة احتكاكهم وتبادلاتهم التجارية، وعرفوا أيضا بتفوقهم في الميدان التجاري دون الخوض في الحروب والنزاعات، فكانت نتائجها إقامة المراكز والمحطات على طول سواحل شمال إفريقيا دون اعتراض من قبل السكان والأهالي.

إن معظم المدن التي ظهرت على طول الشريط الساحلي كانت متفاوتة الحجم، منها مدن صغيرة وأخرى كبيرة، والتي كانت في أول أمرها محطات تجارية بسيطة، إلى أن صارت مدنا زاهرة بعدما تأثر السكان الأصليين بعد احتكاكهم بهؤلاء التجار، وبذلك شهد عمرانها بناءات

وابتكارات في جميع المجالات، ولا شك في أن المعابد كانت من أهم المباني التي وجدت في كل مدينة فينيقية.(أبو المحاسن، 1981: 102).

وفي مجال بناء المدن خلال العهد الفينيقي بشمال إفريقيا يذكر عبد الرحمن الجيلالي"أن في بادئ الأمر تقدموا أولا إلى ليبية وانتشروا بكامل الساحل الإفريقي فأسسوا به نحو الثلاثمائة مركز ما بين مستودع تجاري ونحو المائتي مدينة، كان منها بالقطر الجزائري مدينة إيكوسيوم- الجزائر- وصداي-بجاية- وروسكادي- سكيكدة- وهبو-عنابة-... وبهذه المواطن نشروا بضاعتهم وظهرت براعتهم في صناعة الخزف والطين والزجاج والمنتوجات."(الجيلالي، 1965، ج1: 78-79).

ويجدر الذكر أن الفينيقيون قد عُرفوا بميلهم إلى اتخاذ الطرق السلمية في احتكاكهم مع غيرهم من الشعوب والحضارات، وتجنبهم استعمال العنف والحروب، فكانت" أكثر أعمالهم في التجارة والفلاحة وبعض الصناعات، وكانوا إذا نزلوا أرضا عرفوا فوائدها الخاصة فاعتنوا باستثمارها."(الميلي، ج1: 144).

وبطبيعة الحال كانت المدن الفينيقية في بداية نشأتها صغيرة الحجم شأنها في ذلك شأن المدن القديمة بصفة عامة، ولهذا "كان الطابع الغالب عليها هو ضيق الطرق والممرات وازدحامها بالمنازل وتكاثرها إلى درجة تلاصق بعضها البعض، ونظرا لأن مساحة المدينة كانت محدودة بسور فإن كل زيادة في السكان في فترات الازدهار لا يصحبها اتساع وراء الأسوار في بداية الأمر، ولكن كان ينعكس في الاتجاه بالمساكن إلى الأعلى ولهذا كان الغالب على المنازل أن تتكون من أكثر من طابق بناء".(أبو المحاسن، 1981: 100).

رغم إنشاء المدن بكل سواحل شمال إفريقيا "فإن الجزائر كانت بالنسبة للفينيقيين منطقة عبور أساسا بين المراكز التجارية البعيدة للأطلسي التي تراقب نحو الجنوب ونحو الشمال أسواق الذهب والقصدير أين كانت تتمول التجارة الفينيقية، ومركز الاستهلاك والتوزيع الذي هو قرطاجة. لقد كان البحر الطريق المفضل للفينيقيين، وعلى طول هذا الطريق كان بحارتهم في

حاجة إلى قواعد للتموين، الشيء الذي لا يتم إلا في الماء العذب. وهكذا أقاموا محطات اتصال في كل ثلاثين أو أربعين كيلومترا وعلى امتداد السواحل الجزائرية."(قداش، 1993: 43).

إن التجار الفينيقيين كانوا بمثابة رسل لحضارتهم، مع كل الشعوب الذين تعاملوا معهم، فقد أثروا وتأثروا بهم، فكانت تجارتهم عبر البحار الوسيلة في إيصال معارفهم ورسالتهم الحضارية إلى الأمم والأقطار وعلى رأسها المغرب الأوسط. "ذلك أن الفينيقيين، عمالقة الحضارة القديمة، ومخترعي الأحرف الهجائية، ومكتشفي أقطار العالم بواسطة مغامراتهم البحرية التجارية، قد أموا بسفنهم وبمصنوعاتهم سواحل المغرب العربي، واستقروا فيه، ولم يكونوا مستعمرين ولا فاتحين، وإنما كانوا رواد مدنية، ودعاة تبادل ثقافي، واقتصادي، وعلى بساط السلم والمعاملة الحسنة، فأسسوا على سواحل القطر الجزائري مدنا كانت تدعى المراكز التجارية."(المدني: 45).

أما في العصر الروماني الذي شكلت فيه هذه الإمبراطورية مرحلة حاسمة في تاريخ العالم بوجه عام وتاريخ شمال إفريقيا على وجه خاص، شهدت امتدادا واسعا جعلها من أكبر إمبراطوريات العالم القديم، والذي عرفت المنطقة في ظله الاستعمار العسكري والاقتصادي، كان هدفه الاستبداد بسكانه والاستيلاء على خيراته."(عثمان، 1992، ج1: 198).

وأما المدن التي شيدت في العصر الروماني بشمال إفريقيا فقد صنفت إلى ثلاثة أنواع، فكانت المدن البحرية والفلاحية والعسكرية. وعرف عن المدن البحرية: أن أغلبها كانت-في الأصل-مدنا بونيقية، تم تجديدها وتوسيعها. ويغلب عليها النشاط التجاري والصيد البحري، منها عنابة وسكيكدة والقل.

أما المدن الفلاحية، فكان معظمها عبارة عن قرى مغربية، تحولت بموجب الاستيطان اللاتيني إلى مدن كبيرة، نتيجة لنمو النشاط الفلاحي المكثف. وسكانها مغاربة ولاتينيون. ومنها سوق أهراس وقالمة وقسنطينة وميلة وسطيف.

وأخيرا المدن العسكرية والتي كانت منتشرة بكثرة في الجزائر الحالية، على خلاف بقية الأقطار المغربية، إذ كانت تساير تمدد الليمس الروماني، ذلك الخط الدفاعي الذي كان يتجدد كلما اقتضى الحال توسعا جديدا في عمق البلاد المغربية. ومن بين سكانها قدماء الجند بعائلاتهم، ولا يقتصر النشاط فيها على الشئون العسكرية فحسب، بل تنوع النشاط فيها إلى الأعمال الاقتصادية مثل الفلاحة والتجارة والصناعة، ومن تلك المدن: تبسة وتيمقاد ولمبيز وبسكرة وجميلة. وإلى جانب تلك المدن الكبيرة تنتشر-عبر السهوب والهضاب والجبال- أعداد كبيرة من القرى والمداشر، التي يسكنها المغاربة الذين يعملون في الفلاحة ورعي الحيوانات، وهؤلاء هم الغالبية العظمى من سكان المغرب الأصليين. وهكذا بقيت تلك القرى مستقلة تماما عن سلطة الرومان، ولم تكن تخضع سوى لشيوخ القبائل."(الدراجي، 2013: 97-98-99).

ومن خلال هذا يمكن اعتبار أن أهم خاصية للعمران الروماني هو تميزه واهتمامه ببناء المدن بالمناطق الداخلية في البلاد، وهذا ما يعكس اتجاه الفينيقيين فيما قبلهم الذين اتخذوا بناء المدن على السواحل بغية ترويج تجارتهم عبر البحر المتوسط.

عُرف عن "الرومان في سبيل بسط نفوذهم على شمال إفريقية اتخاذهم سياسة إنشاء المعسكرات الدائمة المجهزة بكافة الاحتياجات الرئيسية لجنودهم. وكان المعسكر بمثابة مدينة عسكرية تتضمن المخازن والإسطبلات وساحات التدريب العسكري، وقد تطلب تشييد هذه المدن الحربية مجهودات ضخمة في عملية البناء وتزويد المدينة بالمياه والغذاء، وارتبط تشييد هذه المدن بإنشاء الطرق اللازمة للتحركات العسكرية والمدنية، ومن ثم خلف الرومان شبكة طويلة من الطرق التي تعتبر من أهم مخلفاتهم في شمال إفريقية."(الجوهري،1980: 121).

كانت للمدن الرومانية أهمية في كل المجالات، حيث "تقدم الآثار الحالية فكرة عن أهمية المدن الرومانية، الأغلبية تبرز كمدن صغيرة من 5 إلى 6000 ساكن، حوالي 10000 بالنسبة إلى الكبيرة. لم يكن في هذه المدن تجار وحرفيون فحسب بل كان هناك

فلاحون...فكانت المدن توجد في كل مكان، على طول الساحل وفي داخل البلاد."(قداش، 1993: 184).

كما أقام الرومان أيضا شبكات الطرق التي تربط بين القلاع العسكرية والمدن التي تربط بينها تحقيقا لرغبة الاتصال السريع بين مختلف الحاميات العسكرية الرومانية بإفريقيا، ومن الطرق التي مددوها الطريق الرابط بين تبسة وعنابة وسطيف وسور الغزلان.(بوعزيز،2007: 60)

"وعلى الرغم من الطابع المدني الذي تتميز به بعض المدن، إلا أنها بقيت-طوال الحكم الروماني- تخضع لمستعمرين أجانب يحتمون بقوات من الجيش الروماني، ولا تهمهم مصلحة أهل البلاد الأصليين، وكل ما يشدهم إليهم هو استغلالهم في الأعمال الحقيرة والأشغال المتعبة، وحملات السخرة والأعمال الإجبارية، التي تضمن للمحتلين خدمات رخيصة أو مجانية، يقوم بها أولئك السكان التعساء في تلك المدن أو المعسكرات. ومن هنا تتضح بعض الأسباب التي حالت دون النمو المطلوب لمعظم المدن الرومانية في بلاد المغرب. لأن الإقامة في تلك المدن لا تكون مريحة إلا لبُناتها أو قدماء الجند، وبعض المستعمرين اللاتينيين. أما الباقون من العمال الكادحين والعبيد المسحوقين، فلا يعرفون طريقا للراحة أو الاستمتاع بسكنى المدن الرومانية. غير أن ثمة فئة قليلة من المغاربة كانوا يسكنون تلك المدن الزاهرة، وهم فئة ميسورة الحال، كانوا قد ارتبطوا بالرومان-منذ البداية- بروابط وثيقة. سواء كانوا من أسر جنود، أو أسر موظفين مدنيين خدموا الدولة الرومانية بإخلاص، وقد احتلت بعض المدن مكانة مرموقة في المجالات الثقافية والعلمية، من بينها المدن التي تشتمل على ما يمكن تسميته بجامعات أو معاهد عليا- سوق أهراس وتبسة وقسنطينة."(الدراجي، 2013: 102).

وبصفة عامة فإن "نموذج المدينة الرومانية هي خلاصة نماذج المدن الفينيقية والإغريقية قد أصبحت أفضل أنواع التنظيمات العمرانية، وهو ما كان سببا في تدهور النماذج الأخرى

وانحلالها فيها تدريجيا وذلك تبعا لدرجة تأثير الحضارة الرومانية في المقاطعات الخاضعة لسلطة روما".(شنيتي، 1999، ج1: 86).

خلال القرن الخامس الميلادي عرفت أرض شمال إفريقيا عهدا جديدا وذلك بعد انتشار الوندال بعد الغزاة الرومان، هذه الأرض التي كانت مصدر تموين روما بمختلف المنتوجات الفلاحية ومواردها الطبيعية، والتي اعتبرها البعض خزان روما، لما تجود به هذه الأرض لما عرفت به من خصوبة وملائمة طقسها من جهة، واستنجاد الحاكم الروماني بونيفاس بهم من جهة أخرى، فكانت سببا مباشرا لطمع قبائل الوندال فيها واحتلالها بعد عبورهم مضيق جبل طارق قادمين من أوروبا. والذين غزوا وسيطروا على معظم أراضي شمال إفريقيا في مدة وجيزة، وحلوا محل الرومان الغزاة. والوندال هم طوائف جرمانية، كان الرومان يطلقون عليهم اسم الوحشيين، وكان دخول الإمبراطورية الرومانية ممنوعا عليهم بسبب ظلمهم وعسفهم وتخريبهم وعيثهم في النفوس والأموال.(نور الدين، 2006: 20).

انتقل الوندال من إسبانيا إلى إفريقيا في شهر ماي 429م. حيث سبب وصولهم إفريقيا ذعرا حقيقيا...وكثيرا ما تحدثت النصوص عن فظاعاتهم. إذ تسببوا في تخريب الدور والفيلات ونهب وانتهاك الكنائس وتعذيب الكهنة. فعلا كان الغزو فظيعا. وبصفة عامة فإن قسوة الوندال كانت ضد الأرستقراطية الرومانية والكنيسة.(قداش، 1993: 233-234).

وزادت معاناة الأهالي بعد هذا الغزو الذي دام حوالي قرن من الزمن لم تعرف فيه الجزائر بناء أو تشييد للمدن ولم يعرف لهم أثار عمرانية كبيرة. وكان هذا الاستعمار غير مرغوب ولا مرحب به" فلم يتخل الأباطرة أبدا عن محاولات إعادة غزو المقاطعة المفقودة. فقد حاولت كل من روما والقسطنطينية في جولات عديدة إسقاط نظام الوندال...كانت أداة التواجد البيزنطي هي جيش الاحتلال قبل كل شيء، أي التركيز على المنشآت العسكرية".(قداش، 1993: 249).

كما أن الوندال لم يكونوا أهل حضارة ولا كانوا يقدرون القيم الحضارية، فهم قوم غلاظ يرتبط اسمهم بكل مفاهيم الوحشية والهمجية، حكموا البلاد بالاستبداد المطلق وصادروا الضياع

من الأهالي، وانتزعوا منهم أملاكهم وأراضيهم، حتى أنهم بالغوا في تهديم كل معالم الحضارة والعمران.(بوعزيز، 2007، ج1: 64-65)

وهكذا بعد أكثر من قرن من وجودهم بشمال إفريقيا استطاع البيزنطيين إنهاء وجودهم بعد أن سيطروا على المدن والولايات الرومانية بشمال إفريقيا، ليبدأ عهد جديد، فكان البيزنطيون مثل أسلافهم الرومان يمارسون سياسة التعسف والظلم والاضطهاد ضد الأهالي، بعدما استولوا على مدن: عنابة وقسنطينة وقالمة وبلاد الحضنة وأوراس وشرشال وتنس وبجاية وغيرها، كما امتد نفوذهم إلى الجهات الجنوبية وسيطروا على مدن: تبسة وخنشلة وتيمقاد ولامبيس والمسيلة وبريكة، وبصفة عامة فإن البيزنطيون لم يخلفوا وراءهم سوى بعض الحصون والقلاع العسكرية، وتمديد الطرق لتسهيل الربط بين مختلف الحاميات العسكرية، فلم تزدهر الثقافة ولم يكثر العمران في عهدهم. (بوعزيز، 2007، ج1: 66-65)

يظهر لنا من خلال ما تقدم أن تاريخ تأسيس المدن بالمغرب الأوسط يعود إلى حقب زمنية بعيدة، فإن كانت المدن الفينيقية عرفت بتمركزها على سواحل البحر المتوسط لاعتمادها على التجارة والنشاط البحري، فذلك يعود إلى براعتهم في فن العمارة والتشييد، فخلدوا مدنا كاملة شملت جميع المرافق، كانت تعد من أعظم ما عرفه العالم القديم.أما الرومان فقد أولوا اهتماما كبيرا بالعمران أيضا، حيث برعوا في تشييد المدن العسكرية الداخلية على عكس الفينيقيين، لأسباب أمنية واقتصادية، كما خلفوا المنشآت المدنية والدينية ومختلف المعالم من معابد ومسارح وحمامات بقيت شاهدة على براعتهم واهتماماتهم بالعمران المدني على الخصوص إلى يومنا، وهي الآثار التي تزين مختلف الساحات بمدن الجزائر. أما الوندال والبيزنطيين بعدما أن استولوا على شمال إفريقيا كانت أثارهم العمرانية قليلة في الجزائر، بعدما ركزوا على تمديد الطرق لتسهيل الربط وسرعة التحرك لأجل الاستيلاء والتحكم، ويعود ذلك لقصر مدة احتلالهما وكذا اهتمامهم بالحروب والنزاعات مما حال دون نمو العمران في المنطقة، إلى أن تمكن العرب الفاتحون من إنهاء وطي صفحات الاحتلال الأوروبي ليبدأ العهد الإسلامي بالمغرب الأوسط.

2.نشاط وأهمية المدن في المغرب الأوسط قبل العهد العثماني

تشكل المدينة في المغرب الأوسط البناء الحضاري والخلية الحية والأساسية للمجتمع، والتي ميزها الطابع المغربي المحلي والأندلسي على السواء.

والمغرب الأوسط هو جزء لا يتجزأ من العالم الإسلامي، "وهو المنطقة الواقعة بين المغرب الأدنى (تونس) شرقا والمغرب الأقصى (مراكش) غربا ويحدها شمالا البحر الأبيض المتوسط وجنوبا الصحراء. ظلت تلك المنطقة تعرف ببلاد المغرب الأوسط قديما منذ الفتح العربي حتى العهد العثماني حيث صارت تعرف باسم الجزائر.(السيد، 2000: 141).

حملت الجيوش الإسلامية الفاتحة لشمال إفريقيا معها رسالة حضارية، شملت جميع مجالات الحياة الفكرية والاقتصادية والسياسية، فكان لانتقال العلماء والأدباء والفنانين والخبراء مع الفاتحين الأوائل دليل على المسعى الحضاري للفاتحين، ولأجل تحقيق ذلك كان لبناء المدن وإقامة دعائم العمران فيها أولى إهتماماتهم في المنطقة.

"اهتم بعض قادة الحملات منذ بداية وصولهم إلى إفريقيا، على اختيار الأمكنة المناسبة، لنزول الجند بحريمهم، وذراريهم وأثقالهم، ويضربون فيها خيامهم ويجتمعون فيها كلما انتهت الحرب، ريثما يرجعون إلى المشرق. أما فكرة بناء قاعدة ثابتة، وترك حامية عربية، لحراسة ما وفق المسلمون إلى فتحه، فلم تظهر بين مشروعات القادة الأولين، وأول من اختار قيروانا للنزول فيه هو معاوية بن حديج الذي لاحظنا أن إستراتيجيته الجديدة تعتبر إرهاصا حقيقيا، لما تم فعلا في عصر خلفه، عقبة بن نافع الفهري، الرجل الذي غير وجهة الحرب المغربية، تغييرا كبيرا، فسعى ونجح في تمكين العرب من إقليم المغرب."(لقبال، 1981: 28-29).

كان الغرض من وراء تأسيس مدينة القيروان كأول مدينة إسلامية بشمال إفريقيا هو تثبيت الفتوحات الإسلامية بالدرجة الأولى بهذه المنطقة، ثم محاولة دعم استقرار هؤلاء الفاتحين خارج

شبه الجزيرة العربية، وعليه شيدت المدينة بعيدة عن البحر وعلى حافة الصحراء مثلها مثل المدن الإسلامية الأولى كالبصرة والكوفة وغيرهما. وكان بناء المسجد أولى معالمها العمرانية.

وبذلك "لما تولى عقبة بن نافع ولاية إفريقيا عام 50هـ/670م، أنشأ مدينة القيروان على بعد أميال من الساحل على طريق المواصلات، وبنى بها الجامع ودار الإمارة ثم أحاطها بسور ونمت بعد ذلك حتى صارت مركزا للقيادة الإسلامية."(السيد، 2000: 97).

يجدر الذكر أنه "إذا كان العهد الروماني في بلاد الجزائر قد اشتهر ببناء المدن المحصنة لصد هجمات الثوار من سكان البلاد ضد الظلم الاستعماري فإن العهد الإسلامي قد اشتهر بتنمية العمران المدني والإكثار من بناء المدن المحصنة وغير المحصنة. ويتفق هذا مع نوع الحكم الذي أنشأه الإسلام في البلاد التي دخلها المسلمون. ولا نبالغ إن ذكرنا أن المدينة كانت المصنع الأول للحضارة العربية طوال عصر الخلافة وما بعده من عصور ازدهار بالنسبة للمدن العربية وعصور الظلمات بالنسبة للمدن الأوربية."(حليمي، 1972: 199).

كانت العمارة بصفة عامة خلال العصور الأولى أو بما يصطلح تسميتها بالعصور المبكرة لانتشار الإسلام تستمد إلى التأثيرات والأساليب الفنية الآتية من الشرق، بحكم قدوم الفاتحين منها، إلا أن بعد قيام دولة المرابطين خضعت عمارتها إلى الطابع الأندلسي القادم من شبه جزيرة إيبيريا بحكم تقارب المسافة والعلاقات المتبادلة فيما بين دولة المرابطين بشمال إفريقيا والأندلسيين.

ومع مرور الزمن وتعاقب الدول على المنطقة، خاصة بعد انهيار دولة الموحدين، والتي قامت على أنقاضها ثلاث دول متنازعة ومتحاربة فيما بينها، والمتمثلة في دولة بني حفص شرقا، ودولة بني مرين غربا، ودولة بني زيان بالوسط، لم يعرف فيه المغرب الإسلامي من المنشآت العمرانية وتشييد المعالم الحضارية إلا القليل، نتيجة الحروب والانقسامات التي ميزت كل دولة، ونفس المصير لقاه المغرب الأوسط الذي لم يعرف إنجازات كبيرة ماعدا ما عرفته

العاصمة تلمسان، في حين عرفت بلاد الأندلس آنذاك نموا معماريا وازدهارا مس كل المجالات.

لقد حكم بنو زيان المغرب الأوسط "وكانوا ولاة للجزائر من قبل الموحدين فلما ضعف سلطان الموحدين وأعلن الحفصيون في تونس استقلالهم عنهم، لم ير بنو زيان بدا من استقلالهم هم الآخرون، واتخذوا تلمسان عاصمة لهم، وقد اشتهروا بغلبتهم على المغرب الأوسط.(شبانة، 2008: 128).

وخلال حكم الزيانيين بالمغرب الأوسط "اهتم أمراءهم بتطوير عمران مدينة تلمسان والتوسع فيه، فشيدوا المساجد والمدارس والمنازل والقصور والأبراج والحصون والأسوار العالية وزينوها بالبساتين والمتنزهات وتأثروا في ذلك بالفن المعماري الأندلسي، خاصة بعد هجرة الأندلسيين من إسبانيا جراء الخطر المسيحي، كما اهتم ملوكها ببناء المرافق الاجتماعية كالمستشفيات والحمامات والفنادق والطرق والمياه.(عمورة، 2002: 87).

لقد تركت هجرة الأندلسيين إلى بلاد المغرب الإسلامي أثارا حضارية بارزة من إنجازات عمرانية مختلفة، مما جلبوه معهم من معارف وفنون وعادات وتقاليد من بلاد الأندلس، والتي مست جميع مجالات الحياة خاصة في مجال العمران. ومن المؤكد أن تأثيرات الجالية الأندلسية كانت جد مهمة، وذات أثر كبير في تشييد وبناء مدن وحواضر كثيرة بالمغرب الأوسط، بفضل استخدام مهاراتهم وخبراتهم التي وضفوها منذ أن حلوا بالمغرب الأوسط.

فكانت "العلاقات بين بلاد المغرب وبلاد الأندلس وثيقة في معظم فترات التاريخ، وبصفة خاصة في الفترة الأخيرة من حكم الدولة الأموية بالأندلس، وقد أدى ذلك إلى انتقال العديد من التأثيرات الأندلسية إلى عمارة بلاد المغرب، امتدت إلى ما بعد فترة سقوط المدن الأندلسية المختلفة في أيدي الإسبان، ومن ذلك على سبيل المثال أنه عندما سقطت غرناطة عام 1492م انتقلت مجموعة كبيرة من سكان غرناطة إلى بلاد المغرب، وانتقلت معهم بالتالي التأثيرات المعمارية والفنية."(البهنسي: 122).

مما لا شك فيه أن المغرب الأوسط استفاد كثيرا "من انتقال مهندسي الأندلس إلى تلمسان، وذلك في النصف الأول من القرن 13م حتى منتصف القرن 14م، كما حضر عدد كبير من مهندسي غرناطة في هذه الفترة إلى تلمسان، وتظهر التأثيرات الأندلسية في المسجد الجامع بتلمسان، من خلال كثافة الزخارف الجصية المتنوعة.

ومن المباني التي يظهر فيها التأثير الأندلسي واضحا مجموعة من الدور، منها دار السرور، ودار الملك، كما يظهر هذا التأثير في المساجد التي أقيمت في عصر بني زيان، ومنها مسجد "بلحسن" الذي جاء مشابها إلى حد كبير لمسجد الحمراء في الأندلس."(البهنسي: 124).

عُرف عن حكام بني زيان بميلهم واهتمامهم بالعلماء ونشر العلم والثقافة في المغرب الأوسط، تجسد ذلك في كثرة إنجازاتهم للمعالم العلمية والدينية والثقافية من مدارس فسيحة ومساجد كبيرة وزوايا مختلفة بكامل الدولة على أيدي الأهالي ومشاركة الأندلسيين، فكانت تلك المعالم آية من آيات الفن المعماري العربي الإسلامي.

وإلى شرق مدينة تلمسان، وبمدينة الجزائر كانت لمسة الأندلسيين واضحة وجلية في ما أنجزوه من منشآت وبناءات مختلفة زادت من جمال وبهاء المدينة،" التي كانت بالنظر لسكانها، مجزأة إلى جزأين هما: الجزء الأعلى، أي الجبل، وتقطنه العائلات الموريسكية وهو عبارة عن متاهة من الشوارع الضيقة والملتوية ويتكون أساسا من الأحياء السكنية الراقية بمعنى سكنات عائلية بدون أية أنشطة للإنتاج والتبادلات، وفيه تتقلص الأداة الجماعية إلى الحد الأدنى أي: المسجد والفرن، بدون تجارة ولا ورشات.أما المدينة السفلى، فهي الجزء المسطح: الأكثر حيوية وتعددا وينظر إليه على أنه فضاء عمومي يحتضن سكان من مختلف الأعراق ووظائف الإنتاج والمبادلات."(ايشبودان، 2007: 59).

"إن المثال العمراني لمدينة الجزائر لا يختلف كثيرا عن بقية النسيج العمراني في البلاد العربية الإسلامية، ذلك أن مركز الجذب للسكان ولكل المجموعات المحلية لا يختلف في شكله

العام عن بقية المدن الإسلامية من حيث التوزيع وتركيز نقاط الحياة العامة، والتي تتركز أساسا في وسط المدينة، والتي تشتمل على عدة مراكز أساسية تقوم عليها المدينة وتحتاج إليها، ولا يستكمل إطارها إلا بها، وهي على وجه الخصوص:

1 . مقر دائرة وقصور حكام البلاد.

2 . المسجد الجامع وبقية المساجد الأخرى.

3 . الأسواق الكبرى ومنطقة التجار الموزعين حسب الاختصاص.

4 . الطريقان الرئيسيان المعروفان بمحوري المواصلات".(عقاب، 2002: 27).

إن معظم مدن المغرب الأوسط قبل مجيء العثمانيين تميزت في بناءها بالحصانة والمناعة وذلك لضمان الأمن والحماية لساكنيها ودرءا للأخطار الخارجية المحيطة بها، خاصة الخطر الصليبي الذي يهددها بين الحين والأخر بعد سقوط الممالك الإسلامية بالأندلس، والذي زادت خطورته على المغرب الإسلامي نتيجة الهجمات المتكررة للمسيحيين بعد التشتت والانقسامات الذي عرفها نتيجة الحروب والنزاعات فيما بين دول الزيانيين والحفصيين والمرينيين من جهة، والصراعات والفتن الداخلية فيما بين الأسر المالكة في كل دولة من جهة أخرى، إلا أنه وبالرغم من كل هذه الظروف، فقد أعجب كثير من الرحالين الأوربيين بعمران المغرب الأوسط وطرازه المعماري المميز باللمسة المحلية والأندلسية، خاصة ما عرف من المنشآت الدينية والعلمية والمدنية والتي مازالت باقية إلى يومنا هذا، التي تنم عن الذوق الفني الرفيع للحرفيين والمعماريين الذين أنجزوها، كانت ومازالت جوهرة الفن الإسلامي عامة، وخاصة بعد اللمسة التي تركها الأندلسيون والتي من خصائصها اعتماد البساطة من الخارج وكثرة الأعمال الزخرفية في داخل البنايات.

وبصفة عامة ترك الأندلسيين في مجال العمران بصمات واضحة على مدن المغرب الأوسط في الفترة التي سبقت قدوم العثمانيين، وكانت مشاركتهم في تلك الانجازات بمثابة الامتداد الفني والمعماري للفن والعمارة بالأندلس والتي عرفت رواجا آنذاك.

تميز بناء وتشييد معظم مدن المغرب الأوسط في المواقع الإستراتيجية، لأجل حفظ أنفس وأملاك وأعراض المسلمين، فاختير بناء معظمها على قمم جبال شامخة أو في وسط تضاريس صعبة، وهذا ما سهل الدفاع عنها. ومن بين المدن التي عرفت تحصينا طبيعيا، أي اختير موقعها في مكان محصن في الجزائر نذكر بعضها فيما يلي:

مدينة بجاية:

وهي"مدينة عتيقة بناها الرومان في منحدر جبل شاهق على ساحل البحر المتوسط، تحيط بها أسوار عالية متينة، وتناهز كوانينها ثمانية آلاف." (الوزان، 1983، ج1: 50).

كما يذكر الباحث فاليرين هذه المدينة و يؤكد على الامتياز الذي نالته من خلال موقعها الإستراتيجي، إلا أنه في المقابل غير ملائم للتوسع السكاني، ذلك أن أغلب جهاتها محاطة بالجبال، وهذا ما شكل دفاعات طبيعية، تستند في الشمال على جبل قوراية الذي تبلغ ذروته 672 متر. ويتدحرج هذا الأخير تدريجيا من الغرب إلى الشرق نحو البحر.(فاليرين، 2014: 139).

بالإضافة إلى أن أهم المنافذ إليها محمية من جانب البر بتضاريس جد صعبة. إذا ما استثنينا الطريق المار بحوض الصومام، فإن الطرق إليها نادرة وغير عملية، نظرا لإلزامية اجتياز تلك التضاريس الصعبة.(فاليرين، 2014: 151).

وهذا ما جعلها مدينة منيعة ومحمية طبيعية، عمرت طويلا وساهمت في تاريخ المنطقة.

مدينة جيجل:

وهي مدينة قديمة على ضفة البحر حسب ما ذكره ابن حوقل، فكان البحر يحيط بها ويضرب سورها، كما يضيف أنها كانت تشمل على مرسيان مرسى في جنوبها وعر وصعب الدخول إليه لا يدخله إلا بدليل حاذق. ومرسى من جهة الشمال ساكن الحركة كالحوض. لكنه صغير لا يحتمل الكثير من المراكب.(شاكر، 1988: 468-470).

مدينة عنابة:

وسميت قديما بونا Bona فهي مدينة جزائرية عريقة أسسها الفينيقيون في القرن الثامن عشر قبل الميلاد على ساحل البحر، وأسموها بونا، وهي مدينة بها العديد من الحقول والبساتين الخصبة، ذات ميناء تجاري هام على مقربة من مصب نهر سيباو. وقد كانت محطة لسفن الاحتلال الفرنسي في حقبة الاستعمار البغيضة. وعلى مقربة من المدينة هناك أنقاض معبد هيبو رجيس Regius Hippo الذي شيد في العصر الروماني.(العفيفي، 2000: 141-142).

كما نجد أن "أغلب الجغرافيين والمؤرخين العرب، واغلب المصادر تذكر أن اسم عنابة القديم هو بونة وهو الاسم الذي اشتهرت به قديما. ولم يتغير اسمها إلا في القرن الخامس عشر ميلادي حيث اكتسبت فيه المدينة اسمها الحالي عنابة، ولم يرد اسمها في المصنفات التاريخية والتقارير الجغرافية".(كعرار، 2007-2008: 23).

مدينة قسنطينة:

تعتبر من أكبر مدن المغرب الأوسط وأقدمها، يمتد تاريخها إلى عصور قديمة، وقد ورد ذكرها أنها بنيت في زمن عاد قبل إبراهيم الخليل عليه السلام، يشهد لهذا القول أننا نسمع من أهل العلم أنها من زمن إبراهيم عليه السلام وهي عامرة لم تطفأ لها نار ولا دخلها عدو قاهر.(بن العطار،2011: 13).

وإنه لمن الأهمية لهذه المدينة ما كان لها من خصوصية، وهي أنها كانت على درجة كبيرة من المناعة والحصانة يصعب على المغيرين احتلالها، وبذلك كان لأمن المدينة قيمة أساسية في نشأتها واستقرار وتزايد السكان فيها وديمومتها، وكأنها مدينة أبدية.

مدينة مليانة:

هي مدينة ومركز تجاري نشط، تقع في منطقة زراعية خصبة تحيطها الحقول والبساتين، ومعروفة بزراعة الكروم والزيتون والفاكهة إلى جانب زراعة أنواع كثيرة من الحبوب.(العفيفي، 2000: 468).

إن أهم ما يميز هذه المدينة هو موقعها الممتاز، فهي تقع على السفوح الجنوبية لجبال الزكار، إذ يتحكم موقعها الاستراتيجي في الممر الطبيعي الرابط بين الشرق والغرب، مما جعلها محمية حصينة. "كما أن موقع هذه المدينة الشهيرة في قلب المغرب الأوسط وتأسيسها بين أهم عواصمه ووجودها من بين ثغور بعض الإمارات بمكان تبرعت فيه الطبيعة بكل ما يحلم به القاطن والزائر من مياه وزرع وضرع وفواكه وخضر...كل هذا جعل منذ فجر التاريخ، مليانة تلعب دورا سياسيا وعلميا وتجاريا رغب الكثير من الملوك والأمراء في امتلاكها."(الجيلالي، 2007: 287).

مدينة معسكر:

مدينة تقع أسفل المنحدرات الشمالية بجبال أطلس العربية في منطقة السهول الزراعية الخصبة الموازية لساحل البحر المتوسط، وتحيطها السهول والبساتين. وقد عاشت هذه المدينة عهود ازدهار إبان فترات حكم العصور الوسطى وخاصة في عهدي دولتي المرابطين والموحدين، ولكنها تعرضت للاحتلال الفرنسي في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي-الثالث عشر الهجري.(العفيفي، 2000: 436).

مدينة تاهرت:

"فهي من مدن المغرب الأوسط المشهورة، قديمة كبيرة، عليها سور صخر، ولها قصبة منيعة على سوقها تسمى المعصومة، وبلد تاهرت شديدة البرد، كثيرة الغيوم والثلج."(مراكشي: 178).

وتعتبر من أهم المدن الداخلية للمغرب الأوسط، أسسها عبد الرحمن بن رستم، وأصبحت عاصمة الرستميين، كما أنها منطقة عبور للقوافل التجارية ما بين الشمال والجنوب، وهي مدينة

قديمة وعريقة بالجزائر، تقع شرق مدينة تلمسان، سكنها البربر تحت سلطة الروم البيزنطيين، وبنوا فيها حصنا منيعا حتى دخلها الإسلام الحنيف على يد عقبة بن نافع عام 64هـ/683م، وقد عاشت تلك المدينة عصورا مزدهرة لموقعها الممتاز في وسط شمال الجزائر. وفي عام 161هـ/778م، وعندما أسس عبد الرحمن بن رستم دولته أقام لها مدينة تاهرت، بعد أن شيد فيها مقر حكمه، وخط فيها أحياء جديدة وحصنها وأسماها تاهرت. وقد قامت هذه المدينة بدور تجاري نشط، كما أنها ساعدت على نشر الإسلام بين قوافل التجار الذاهبة إلى مدن إفريقيا جنوب الصحراء. وبحلول القرن الثالث الهجري غدت المدينة في غاية الازدهار والرقي والاتساع والتحصين. وأحاطتها البساتين والحقول، وكثرت فيها المساجد وكان لها أربعة أبواب، ومكتبة عظيمة تسمى المعصومة، وقد دخلها الفاطميون بعد عام 296هـ/ 909م، وبعدهم بنو حماد في القرن الخامس الهجري، ولشدة إعجاب الناس بها وصفها بعض الرحالة بأنها عراق المغرب.(العفيفي، 2000: 159-160).

مدينة الجزائر:

كانت على دوام حقب التاريخ جيدة التحصين لأنها مدينة تجارية هامة. وسميت مدينة الفضة بسبب البريق الذي كان يشع من مبانيها والتي كانت تبدو من بعيد وكأنها خارجة من البحر المتوسط، وفي العصر الإسلامي شهدت ازدهارا واسعا في عهد دولة آل زيري، ثم شهدت توسعا عمرانيا في العهد العثماني إلى أن تدهورت حالتها بعد الاحتلال الفرنسي.(العفيفي، 2000: 188).

لقد اختيرت مواقع مدن المغرب الأوسط بعناية في أوساط طبيعية وتضاريس جد مدروسة لتكون في مأمن من أخطار وهجومات المغيرين في كل الأوقات والأزمنة، هذه المواقع الوعرة والحواجز الطبيعية الصعبة من أنهار أو جبال أو بحر كانت الغاية منها تسهيل الدفاع عنها ونجدة أهاليها ساعة الخطر، سواء من الغزوات الخارجية أو الأخطار الداخلية، لأجل بقاؤها ومقاومتها لأي طارئ، وبذلك فإن عامل الأمن أساسي في دوامها، يضاف إلى هذا ما تركه

المشيد والبناء من معالم وإنشاءات مدنية ودينية وحربية كانت سببا مباشرا في ديمومتها واستمرار وجودها، وساهمت في بقاءها وازدهار عمرانها.

"ضمت الجزائر في فترات متلاحقة من التاريخ الإسلامي كثيرا من الدول، أدت دورها الريادي في مجال العمارة والفنون الإسلامية على الوجه الأكمل وقدمت روائع أثرية، اتسمت بأنماط مبتكرة وأساليب مميزة عن أخواتها في دول الإسلام المختلفة، مما يدل على أن هناك من أسهم في تكوين ذلك الإرث الحضاري، وعملوا على ترقيته بمختلف الأساليب، سواء كان ذلك على أيدي الولاة الذين استعملوا نفوذهم السياسي بتقديم الأموال أو استخدام الصناع المهرة والفنانين حتى ولو عن طريق استقدامهم من بلدان أخرى."(عقاب، 2002: 5).

إلا أن اندثار الكثير من ملامح مدن المغرب الأوسط في الفترة التي سبقت التواجد العثماني، بسبب التخريب والهدم المستمرين، خاصة ما عرفته المدن الحضارية والتاريخية الكبرى إبان الاحتلال الإسباني ومن بعده الفرنسي، فاندثرت بذلك وزالت معظم المخلفات المادية التي تعود لتلك الحقبة، والتي مثلت أهم مآثرنا العمرانية وتراثنا الثمين وثروة نفتخر بها، وبذلك كانت حصيلة هذه الأعمال فقدان لملامح العمران المحلي والأندلسي الذي تفنن فيهما المعماري المسلم سواء البناء الجزائري أو الوافد الأندلسي، والتي ميزت الشخصية الجزائرية.

ومما يثير الانتباه أن بعضها ما يزال شامخا يتحدى عوامل الزمن ويد الإنسان، خاصة منها بعض القصور والحصون وحتى المساجد التي مازالت تؤدي فيها الصلوات بقيت صامدة، وهو الإرث المادي ومرآة لمدن المغرب الأوسط.

الفصل الأول

الفصل الأول : الأوضاع العامة للمغرب الأوسط قبيل العهد العثماني

المبحث الأول : الوضع السياسي للمغرب الأوسط قبيل الوجود العثماني

1 – الأوضاع الداخلية للمغرب الأوسط

2 – الاحتلال الاسباني لمدن المغرب الأوسط

3 – الاستنجاد بالدولة العثمانية

المبحث الثاني : حالة العمران في المغرب الأوسط قبيل العهد العثماني

1 – تأثيرات الجالية الأندلسية على مظاهر العمران بالمغرب الأوسط

2 – مساهمة حواضر المغرب الأوسط في رصيد الحركة العلمية والفكرية

3 – التنظيم العمراني في المغرب الأوسط قبل العهد العثماني

المبحث الأول: الوضع السياسي للمغرب الأوسط قبيل الوجود العثماني

1. الأوضاع الداخلية للمغرب الأوسط

تميز العالم بوجود صراعات ونزاعات منذ أن خلق الله الإنسان على الأرض، وازدادت حدتها مع تكاثر وازدياد البشر، وتفرقهم في مواطن عديدة، ومن بين أكثر مناطق العالم حدة في النزاعات والحروب، تلك المجابهة والمطلة على البحر الأبيض المتوسط، الذي يعتبر فضاء جغرافي وتاريخي عرف الأزمات والصراعات أكثر مما عرف عهود السلام المديدة. (الخوند، 1997: 68).

عرفت هذه المنطقة بروز حضارات عديدة تعاقبت عليها والتي ساهمت كثيرا في الحضارة الإنسانية. والمغرب الأوسط هو إحدى أهم البلدان المطلة على البحر المتوسط، والذي ساهم بشكل كبير في معظم الأحداث التي جرت بالمنطقة، ولعل العصر الحديث هو من أهم العصور التي مكنت من تبوأ بلاد الجزائر مكانة مرموقة بين الأمم بعد مجيء العثمانيين لفترة زمنية فاقت الثلاثة قرون، كذلك عرف حال الجزائر العثمانية الأمن والسلم تارة والاضطرابات والنزاعات تارة أخرى،شأنها في ذلك شأن كل الدول والمماليك عبر التاريخ.

كانت الجزائر حلقة مهمة وشريكة في كل الأحداث التي عرفها شمال إفريقيا، خاصة دورها وإسهاماتها في فرض السلم والاستقرار في منطقة عرفت تعدد وتنوع الأجناس والحضارات، على أرض رفضت كل أشكال الاستعمار ووحدها الدين الإسلامي، والتي عرفت مع قدوم العثمانيين إستقرار جماعات كثيرة ومتنوعة من الشعوب والقوميات ومن مختلف الديانات سواء مسيحيين أو يهود أو غيرهما، استقر جميعهم بالمنطقة، نتيجة عدة عوامل منها سهولة انتقال الأفراد في أرجاء السلطنة العثمانية بكل حرية وأمان ودون الشعور بالاغتراب. حيث كان آنذاك"لا يرى تنوع مثل تنوع السكان الذين يعيشون على هذه المساحة لغويا ودينيا وعرقيا إلا في ندرة من إمبراطوريات التاريخ".(أورتيلي، 2014: 47).

مع بداية القرن السادس عشر الميلادي، وبعد أن تمكن الإسبان من الاستيلاء على أهم مدن وموانئ المغرب الإسلامي عامة وبلاد المغرب الأوسط خاصة،إذ حاولوا التقدم واحتلال المدن الداخلية أيضا، وذلك نتيجة تدهور الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية للدول والمماليك التي مزقها الضعف والانقسام والفتن، ما سهل على الإسبان من احتلالها، إذاك ظهر العثمانيون على مسرح الأحداث كمنقذين لكل بلدان شمال إفريقيا ومخلصين لشعوبها من طغيان وظلم المسيحيين، إلا أن السؤال الذي يمكن أن نطرحه في هذا المجال، ما هي الظروف والأحوال التي سادت بلاد المغرب الأوسط إلى أن بلغت هذه الدرجة من الضعف والانهيار؟ أو بعبارة أخرى بماذا اتسمت الأوضاع والأحوال الداخلية للمغرب الأوسط قبيل الوجود العثماني؟ وكيف كانت الأوضاع السياسية القائمة آنذاك قبل الاستنجاد بالدولة العثمانية؟إلى أن يحتدم الصراع ويتوسع بين الإسلام الذي تمثله السلطنة العثمانية، والمسيحية التي تقودها الإمبراطورية الإسبانية، والذي كان مسرحه البلدان المطلة على البحر الأبيض المتوسط، وعلى رأسها المغرب الأوسط الذي لعب الدور البارز في هذا الصراع المرير لزمن طويل.

لقد اشتد هذا الصراع خاصة بعد انقسام العالم آنذاك إلى قوتين كبيرتين بارزتين متنافستين ومتصارعتين، بعد أحداث كبرى غيرت مجرى التاريخ، والتي تمثلت في فتح القسطنطينية عاصمة بيزنطا عام 1453م على يد العثمانيين المسلمين من جهة، وسقوط غرناطة أخر الممالك الأندلسية عام 1492م على يد الإسبان المسيحيين من جهة أخرى.

لقد ساءت أحوال المغرب الإسلامي منذ القرن الثالث عشر ميلادي بعد سقوط دولة الموحدين وبروز ثلاث ممالك مستقلة والمتمثلة في الحفصيين والزيانيين والمرينيين. إذ من المعلوم أن انهيار الدول وقيام أخرى هو من طبيعة هذا الكون، كما يقول ابن خلدون في المقدمة"إن الأفراد والكائنات الحية تمر بأدوار ومراحل مختلفة من نمو وقوة وضعف ثم فناء" (ابن خلدون، 1967: 300).

تدهورت ظروف المغرب الأوسط قبل الاستنجاد بالدولة العثمانية وساءت أحواله، على غرار كل دول المغرب الإسلامي آنذاك، خاصة بعد انتهاء الوجود الإسلامي بالأندلس وتزايد تهديدات الخطر الصليبي عليها من جهة، وكثرة الانقسامات والصراعات والفتن الداخلية من جهة أخرى، وكلها عوامل ساهمت في إضعاف كيان دول شمال إفريقيا ككل، إذ استغل الإسبان والبرتغاليون الظروف الداخلية المضطربة لها، خاصة بعد ازدياد وتفاقم الصراعات والحروب فيما بينها،ورغبة كل دولة في التوسع على حساب الأخرى، كما بلغت الانقسامات داخل كل دولة. ما دفع بالغزاة الصليبيين من التدخل والاستعمار شمل كل أراضي المغرب الإسلامي، ابتداء من الموانئ والمدن الساحلية، حين ذاك سقطت معظم الموانئ والمراكز الإستراتيجية الساحلية للمغرب الأوسط على أيدي الإسبان، على غرار احتلال المرسى الكبير ووهران وبجاية في الفترة الممتدة من سنة 1505م إلى سنة 1511م، وهي أولى الخطوات للسيطرة والتحكم في الطرق التجارية البحرية والبرية على السواء، إلى أن واصلوا إلى احتلال سواحل الحفصيين شرقا، كما قاموا بفرض الجزية التي أنهكت كاهل السكان وأضعفتهم. أما البرتغاليين فركزوا في حملاتهم على غزو سواحل بني مرين غرب المغرب الأوسط.

يجدر الذكر أن جذور هذا الصراع قديم، يعود بالدرجة الأولى إلى ضعف دولة الموحدين منذ أوائل القرن الثالث عشر الميلادي، نتيجة الهزيمة القاسية التي منوا بها في معركة العقاب."(فارس، 1969: 5-6).

كان لهذه الحادثة الأثر البالغ في تاريخ الصراعات التي نشبت بين المسلمين والمسيحيين بالأندلس،ولم يقم للمسلمين بعدها قائمة،حيث كان همهم طرد المسلمين من الأندلس ثم يتبعه التوسع والاستيلاء على مدن وحواضر المغرب الإسلامي.

ورغم كل الجهود والمبادرات التي سعى من خلالها الموحدون وفيما قبلهم المرابطون، لحماية أراضي المغرب من الخراب والدمار بعدما تصدوا بكل قوة للغزاة، إلا أنه حالما بدأت

علائم الضعف الإداري تتسرب إلى نظام الدولة الموحدية، عادت المنطقة إلى سابق عهدها من الانقسام والتناحر، مما كلفتها ظهور تلك الدويلات الثلاث."(عزيز، 1989: 16).

ففي تلك الفترة لم تكن أحوال المغرب الإسلامي تختلف كثيرا عن أحوال المشرق الإسلامي، "فعلى أنقاض دولة الموحدين التي سقطت عام 1269م قامت ثلاث دول صغيرة تقاسمت فيما بينها ملك المغرب، وهي: دولة الحفصيين في تونس، وبنو زيان في المغرب الأوسط، والمرينيون في المغرب الأقصى. ولا شك أن هذا التفكك وما صاحبه من تنافس وتنازع بين هذه الدول، أطمع فيها القوى الأوروبية".(إسماعيل، 1997:24).

هذه الدول التي أصبحت تمثل واقع الخريطة السياسية للمغرب العربي في القرن التاسع الهجري، إذ تجدر الإشارة إلى أنه من غير المعقول أن كل دولة من تلك الدول كانت تبسط نفوذها على المنطقة التي ظهرت فيها، فنفوذ كل دولة كان نسبي حسب كل فترة وأخرى، وقوة كل دولة وضعفها، أما الحفصيين فمن التسامح القول بأنهم كانوا يحكمون ما هو الآن تونس، والزيانيين يحكمون ما هو الآن الجزائر، ذلك أن معظم المدن الكبرى الواقعة بالشرق الجزائري كقسنطينة وعنابة وبجاية وبسكرة وتقرت كانت تحت هيمنة الدولة الحفصية، وكان ما يعرف اليوم بالغرب الجزائري تحت نفوذ الدولة الزيانية التي اتخذت تلمسان عاصمة لها. كما كانت منطقة الوسط منطقة عازلة بين الحفصيين والزيانيين، ومن ثم كانت منطقة صراع دائم بين القوتين، ولذلك ظهرت فيه إمارات محلية صغيرة كانت تحتفظ بحيادها أحيانا ولكنها كانت في أغلب الأحيان تتبع الأقوى. ولم يكن التنافس والطموح مقصورين على الزيانيين والحفصيين، بل لقد تدخلت في ذلك منافسة وطموح المرينيين أيضا ضد الزيانيين المجاورين تارة وضد الحفصيين البعيدين عنهم تارة أخرى، ويضاف إلى هذا التطاحن الصراعات والخصومات الداخلية العائلية المستمرة على السلطة والملك، أبرزت نتائج وخيمة على الفرد والمجتمع، فكثرت الحروب وعمت الفوضى وانتشرت اللصوصية وقل الأمن وفقد الرعية أمل العيش في أمان. وزادت التدخلات الأجنبية التي يقودها الإسبان والبرتغاليين

الطين بلة وأصبحت تهديداتهم بالغزو والاحتلال حقيقة عاشها سكان المدن الساحلية قبل غيرهم.(سعد الله، 1998، ج1: 40-41).

تزامنت تلك الأحداث والأندلس في أخريات أيامها، فكان الانتقام من أهل بلدان شمال إفريقيا هو الموقف الذي اتخذه الصليبيون ضدهم نتيجة إمدادهم لمسلمي الأندلس بالمساعدات العسكرية والبشرية لإعادة بعث الماضي المجيد.لكن هل يمكن الجزم على أن غزو الأجانب لدول المغرب الإسلامي عامة والمغرب الأوسط خاصة آنذاك، كان نتيجة ضعف هؤلاء وتشتتهم وبالتالي أصبحت أراضيهم سهلة المنال، واحتلالهم أمر لا مفر منه؟ وهل وجدت عوامل أخرى ساهمت في تغيير الخريطة السياسية لشمال إفريقيا؟ أو بعبارة أخرى لماذا اختارت جيوش شبه الجزيرة الإيبرية المسيحية غزو واستعمار شعوب شمال إفريقيا دون غيرهم من الأمم والأجناس؟

إن الشيء الذي لا جدال فيه هو أن هذه الدول بعدما أنهكتها الحروب الداخلية واستنزفت كل طاقاتها سواء البشرية أو الحربية بعد فقدانها لخيرة شبابها، وكل إمكانياتها، أدى بهاإلى انهيار اقتصادها وإتلاف مواردها، وهي نتائج حتمية وطبيعية، نتيجة النزاعات والخصومات والحروب التي كانت قائمة بين زعماء وحكام الممالك على السلطة والحكم بالدرجة الأولى، يضاف إلى تلك المحن، الكوارث الطبيعية التي عرفتها المنطقة والتي أضرت كثيرا بالحرث والنسل، كما زادت نكبة سقوط الأندلس وانهيار الحضارة العربية الإسلامية بالجهة المقابلة للمغرب الإسلامي من حدة معاناة وآلام المسلمين. فالإسبان والبرتغاليون الذين ملكوا الأساطيل البحرية العملاقة، يحسنون ركوب البحر ومتفوقون فيه بامتياز، إذ لم يكتفوا باضطهاد المسلمين في بلدانهم وإجبارهم على الخروج منها، فكانت عندهم دوافع اقتصادية لاحتلال موانئ دول المسلمين، حيث كانت خطتهم تقضي بالتحكم في خيرات شمال إفريقيا، وإجبار سكان هذه المناطق على دفع ضرائب لهم وتمويل حروبهم الاستعمارية.(بوحوش، 1997: 49-52).

وهذا يعني أن السيطرة على التجارة وطرقها كان من أهم عوامل الاحتلال،فاستغلال ثروات الدول والتحكم فيها هو بمثابة معيار القوة والتفوق،مما زاد من طمع الغزاة والمحتلين.ومن جهة أخرى لعب التعصب الديني والرغبة في نشر الديانة المسيحية ومحاولة كسب أكبر عدد ممكن من المعتنقين بتلك الأقطار والمناطق دور كبير،مما سيسهل في غزو كل بلدان شمال إفريقيا فيما بعد.(Braudel, 1928, 199).

يقول بروديل أيضا في هذا المجال:" إن الحروب الإسبانية في إفريقيا أخذت صبغة الصليبية الحقيقية، وذلك نظرا للدور الكبير الذي قام بأدائه رجال الكنيسة والكهنوت، فالكنيسة بإسبانيا قد ساهمت بكل ما لديها من حماس ومن الجرأة في هذه المعركة، واعتبرتها معركة خاصة بها لوحدها." (Braudel, 1928,201).

بسط الاستعمار الاسباني نفوذه على شمال إفريقيا كلها حين تلاءمت الظروف، بعدما ساد الضعف والتشتت والانقسام، وعانى الأهالي كثيرا من هجمات الصليبيين.

واعتبرت دولة بني زيان في تلك الفترة إحدى أهم حلقة في النزاع، خاصة وأن موقعها الجغرافي الذي يتوسط دول شمال إفريقيا، وسواحلها المجابهة والقريبة من سواحل الغزاة والمستعمرين، لاسيما إسبانيا، وبالتالي كانت طرفا مهما في ذلك الصراع.

أما من الناحية الثقافية وبالرغم من كل الأحوال والظروف السياسية السائدة والتي مرت بها دولة بنو عبد الواد في تسيير شؤون المغرب الأوسط، فقد عرف عهدهم ظهور نهضة ثقافية وعلمية بلغت أثارها دول المغرب والمشرق الإسلاميين، الذين اتخذوا تلمسان عاصمة لهم،والتي تميزت بإشعاعها العلمي والثقافي نافست أهم المراكز والعواصم العلمية في العالم الإسلامي، واعتبرت دولة بنو زيان التي ظهرت في منتصف القرن الثالث عشر بعدما اتخذت من تلمسان حاضرة لها، عرفت الازدهار والتطور، مما جعلها مطمع لدول الجوار كتونس والمغرب الأقصى.(الجوهري، 1970: 179-180).

وعلى هذا الأساس كان للنمو المعرفي والعلمي الذي عرفه بنو عبد الواد نقمة عليهم من قبل جيرانهم الحفصيين والمرينيين الذين طمعوا في احتلالهم، هذا رد فعل إخوانهم في الدين، أما الإسبان فكانوا أكثر انتقاما من المسلمين، فالفتن والانقسامات الداخلية سهلت

وسارعت في غزوهم لديار بنو زيان،بعدما تميز ذلك العصر بالفوضى ولا أمن نتيجة ضعف وتنافس الحكام، وحتى الكوارث الطبيعية زادت من مأساة المغرب الإسلامي، فالمعاناة الداخلية نتيجة عدم الاستقرار السياسي بعد تفاقم الصراعات العائلية والقبلية وعدم التمكن من فرض الحماية زاد من الخطر الأجنبي. وعرف عن الطابع السياسي السائد آنذاك بعدم أهلية الحكام والملوك وضعف شخصياتهم حين ولوا الحكم والسلطة، مستغلين تحكيم مبدأ وراثة العرش الذي لم يكن يحكمه دستور ولا قانون، وإنما يخضع لحكم صاحب السلطة.فكل واحد من الإخوة أو الأبناء أو من كل أفراد العائلة، ولو تجاوزوا هذه الطبقة، يفكر في أن له الحق في وراثة عرش العائلة.(غلاب، 2005: 333-334).

اتصفت أحوال المغرب الأوسط بكثرة المؤامرات والغدر والدسائس فيما بين أفراد العائلات المالكة، عوضا من الاتفاق والاتحاد لدرء الأخطار ولم الشمل، وبذلك زادت أحواله سوءا، "فانقسم على نفسه إلى إمارات صغيرة مفككة متناحرة، حين ذاك وجدت إمارة جبل كوكو ببلاد القبائل، والإمارة الحفصية بقسنطينة، وإمارة الذواودة بالحضنة والزاب، وإمارة بني جلاب بتقرت ووادي ريغ، وإمارة بني بزناسن وفقيق بالحدود الغربية، وإمارة الثعالبة بجزائر بني مزغنة ومتيجة".(بوعزيز، 2009: 8).

ومع تكاثر الدويلات والإمارات "كان أوائل القرن العاشر الهجري مرتعا للحروب الأهلية الممزقة وغرضا ملحوظا للأجانب المتوثبين، فعانى المغرب الأوسط الأمرين من الملوك المتنافسين والرؤساء الجائرين المتنازعين والنصارى المغيرين تتميما لبرامجهم وخططهم الصليبية المرسومة فكثر يومئذ ازدحامهم واشتد تحاككهم على هذا الشمال الإفريقي وخاصة منها الجزائر، وذلك بعدما قضوا على دولة الإسلام والمسلمين بالأندلس وصقلية."(الجيلالي، 1965، ج2: 221).

وعرفت أقاليم الجهة الشرقية للمغرب الأوسط أيضا التقسيم والتشتت فيما بين إمارتي الحفصيين وعبد الواد، إلى عدد كبير من الإمارات، والقبائل، ومناطق نفوذ زوايا دينية وموانئ شبه مستقلة بالشمال التي كونت في ذلك الوقت، من مدينة جربه بالمغرب الأدنى

حتى موانئ المغرب الأقصى، ما يشبه الجمهوريات، فعملت في حركة الجهاد البحري الإسلامي، إذ قامت كل من تونس، وبنزرت، وبجاية، والجزائر، ووهران، وحنين، والحسيمة على إنشاء وتسليح السفن على حسابها، للعمل في البحر المتوسط فكونوا رجال جهاد ضد المسيحيين، كما كانوا يفكرون في حركة التجارة وتنميتها، إلا أنه بالمقابل ساهموا بطريقة أو بأخرى على عملية التفكك السياسي(جلال،1999: 55-56).

واستمرت الأوضاع والأحوال في التدهور والانحطاط،حين مس جميع الميادينسواء السياسية منها أو الاجتماعية أو العسكرية، وبذلك عرف المغرب الأوسط كل أنواع الهزائم، بما فيهم الحكام والملوك الذين كانوا مغلوبين على أمرهم نتيجة تفرقهم وتشتتهم، ومازالت شوكتهم تضعف شيئا فشيئا بسبب الخصومات التي كانت قائمة بين الزيانيين وأبناء عمهم بني مرين منذ نشوء مملكتيهما، وبينهما وبين الحفصيين الذين أخذوا يتوسعون في المغرب الأوسط. ولم يستطع بنو زيان ردهم على هجوماتهم وتوسعاتهم بحيث ملك هؤلاء بجاية وقسنطينة وعجز بنو زيان على القيام بحماية رعاياهم بالشرق الجزائري(بنأشنهو: 11).

وعليه فإن الأحوال السياسية أثرت سلبا على جميع المجالات في المغرب الأوسط، ومنها المجال الاقتصادي،إذ عرف السكان نقصا فادحا في محاصيلهم الزراعية وبالتالي تقلصت موارد معيشتهم،كما عرفت تجارتهم الركود، مما أدى إلى هجرات العلماء والتجار نتيجة تلك الأوضاع، والغزاة أو بالأحرى الصليبيون يترقبونهم للإحتلالهم وغزوهم(الجوهري، 1970: 141).

والخلاصة أن أوائل القرن السادس عشر ميلادي، حين بلغ التفكك السياسي مداه، سهل على الغزاة الاسبان الصليبيين من تحقيق أهدافهم، فكانت بداية لأحداث هامة في تاريخ المغرب الأوسط والمتمثلة في الاحتلال الإسباني لأهم ومعظم مدنه الساحلية ومراكزه الإستراتيجية، فكان هذا الأخير ضحية سهلة المنال نتيجة الضعف الذي ساد المنطقة والانقسامات الداخلية والصراعات اللامتناهية على الحكم والملك.

2.الاحتلال الإسباني لمدن المغرب الأوسط

بعد ظهور الممالك والدول في المغرب الإسلامي، كان من الطبيعي أن يحدث النزاع والتشتت والانقسام فيما بين المسلمين، الذين اتسمت أحوالهم منذ القديم إما بالتفرق والتمزق وإما بالإتحاد والجهاد، خاصة مع نهاية القرن الخامس عشر ميلادي أين عرفت المنطقة الضعف نتيجة التفرق والحروب المستمرة بين المرينيين والزيانيين والحفصيين، إلى جانب ظهور الخطر الأوروبي الصليبي المتزايد بعد سقوط غرناطة أخر معاقل المسلمين بالأندلس عام 1492م. ويعتبر هذا التاريخ نهاية الوجود الإسلامي بأوروبا. بالإضافة إلى أنه كان بداية لمرحلة جديدة في برنامج التوسع الإسباني وازدياد أطماعهم وحماسهم في غزو واحتلال مدن المغرب الإسلامي عامة والمغرب الأوسط خاصة، التي كان ملوكها وأمرائها منغمسين في سلسلة من الحروب والفتن والمؤامرات دون انقطاع.

لقد أدرك الاسبان أن مسلمي شمال إفريقيا كان لهم الفضل الأكبر في فتح الأندلس وبقاءهم مدة زمنية فاقت الثمانية قرون بشبه الجزيرة الإيبيرية. فاغتنموا فرصة التفكك والانقسام الذي أصاب تلك الممالك، وترصدوا لهم بعد أن أنهكت قواهم فقاموا بشن الغارات عليهم واحتلالهم، مدركين أن المسلمين يمثلون مصدر خطر دائم لاستقرارهم.

إن لقرب المسافة الموجودة بين الضفة الجنوبية لإسبانيا والضفة الشمالية للمغرب الأوسط كانت إحدى أهم العناصر التي حفزت في تسهيل مهمة المهاجمين الغزاة، فالوثائق الإسبانية تذكر أن المرحلة بين موانئ جنوب إسبانيا، والدولة الزيانية لا تتعدى أربعا وعشرين ساعة خلال القرن السادس عشر.وهذا ما زاد من حماس وإرادة الإسبان في التركيز على غزو هذه المناطق القريبة في المسافة، والسطو على خيراتها بدل المغامرة في الأراضي والجزر المكتشفة والبعيدة فيما وراء البحار والمحيطات آنذاك.(حساني، 2009:63).

لقد تعددت الدوافع التي مكنت الاحتلال الإسباني وحفزته من غزو وبسط نفوذه على دول المغرب الإسلامي عموما وبلاد المغرب الأوسط خصوصا. حين سارع في تنفيذ مخططاته الاستعمارية، خوفا من وحدة وتكاتف المسلمين واسترداد قوتهم وهذا ما تخشاه اسبانيا.

ويجدر الذكر أن معظم المصادر تتفق على أن الدافع الديني هو أقوى وأكبر عامل اتخذه الإسبان المسيحيون لإقناع الرأي المحلي والعالمي آنذاك لشن هجوماتهم وغزواتهم ضد مسلمي شمال إفريقيا، الذين سارعوا دون تردد في احتلال معظم المدن الساحلية من جهة، وفرض الجزية على المدن والسكان الآخرين من جهة أخرى. فالإسبان لم ينسوا أبدا أن "حكومة قرطبة قد استفادت بكل ما تحتاجه من المقاتلين من فرسان زناتة بالمغرب الأوسط، حيث لم تتردد حكومة تاهرت في إمداد الأندلس بهؤلاء المحاربين بصورة مستمرة." (هلايلي، 2010: 8).

إن الصراع القائم بين المسيحيين والمسلمين بالمغرب الإسلامي قديم، تمتد جذوره منذ انطلاق أول حملة إسلامية لفتح الأندلس بقيادة طارق ابن زياد، واستمر خلال مراحل الدولة الإسلامية، ذلك أن هؤلاء السكان كان لهم الدور الأساسي في الفتح واستمرار بقاء الدولة الإسلامية في الأندلس، لذلك كانت إسبانيا تخشى من استعادة هذه الدولة لمجدها المنهار وتفوقها، مما جعلها تنظر إلى شعوب إمارة بني زيان نظرة العدو الذي طالما هدد كيانها واستقرارها. خاصة بعد أن "قصد المهاجرون الأندلسيون مختلف المناطق الساحلية للمغرب الأوسط، واتخذوا من مدينة الجزائر ملجأ لهم، ومن الحكم العثماني نفوذا مناسبا لآمالهم وطموحاتهم."(هلايلي، 2010: 18).

إن الفتوحات الإسلامية التي عرفتها المنطقة زادت من دعم ووحدة السكان، فساهمت العقيدة الإسلامية في توحيد مصير شعوب شمال إفريقيا ونظمت سلوكاتهم وحياتهم، في حين سعى المسيحيون على العمل لقلب تلك الموازين وإضعاف المسلمين من خلال تشتيتهم وتفريقهم لأنه السبيل الوحيد لدرء خطرهم، وضمان أمنهم واستقرارهم، فكان عامل التعصب للدين المسيحي هو أكثر الدوافع انتهاجا وأقواها تبريرا لاحتلال المغرب الأوسط.

مع بداية النصف الثاني من القرن الخامس عشر، عرفت إسبانيا حدثا هاما بلغ تأثيره خارج حدودها، المتمثل في توحيد أكبر مملكتين في شبه الجزيرة الإيبيرية، وبالتالي توحيد أجزاء كبيرة من أوروبا، كانت في الماضي عبارة عن ممالك منفصلة ومتحاربة فيما بينها، تارة تتحد لدرء الخطر الإسلامي في شبه الجزيرة، وتارة أخرى تختلف وتتنازع فيما بينها،

حتى تم توحيد كل من قشتالة وأراغون عام 1469م بزواج الملكين فرديناند وإيزابيلا، فكانت نتيجة ذلك توحيد المسيحيين ضد المسلمين في كل مكان. هذا الاتحاد الذي من شأنه أن يكون وبالا على مستقبل المغرب الإسلامي الذي تتحارب وتتقاتل دوله على الملك والسلطة.

كما كان هذا القران بمثابة أهم خطوة للوحدة السياسية التي عرفتها شبه الجزيرة الإيبيرية، اتخذ صبغة دينية كاثوليكية ما أدى إلى إثارة العداوة المستمرة ضد مسلمي الأندلس آنذاك وسكان المغرب الإسلامي لاحقا. فكان أول وأهم عمل يعكس هذه السياسة هو الاستيلاء على غرناطة مطلع عام 1492م. إلا أن هذا الحدث الهام لا يعني أن الحضارة العربية الإسبانية اختفت فورا، وطواها النسيان، فالحق أنها واصلت سيرها وتأثيرها بعمق، إلى أن طرد الموريسكيين نهائيا من إسبانيا. وحينئذ انتقلت مراكزها إلى شواطئ شمال إفريقية. (بروفنسال، 1994: 36).

وبسقوط غرناطة أصبح الإسبان على مقربة من البلاد الإسلامية الضعيفة المشتتة والمتناحرة فيما بينها، وفي هذه الأحوال اعتبرت إسبانيا نفسها دولة فتية قوية يحركها الحماس ونشوة الانتصارات. وهكذا انطلقت في تنفيذ مشروعاتها التوسعية من خلال غزو واحتلال المناطق الإستراتيجية الممتدة على طول سواحل شمال إفريقيا، على الخصوص أراضي المغرب الأوسط، وهذا بعد الاتفاق مع جيرانهم البرتغاليين على تقاسم مناطق النفوذ والتوسع خارج حدودهما بالتراضي والتفاهم حول تقسيم أملاك الممالك الضعيفة لدول الحفصيين والزيانيين والمرينيين. وفي هذا المجال "عقدت الملكة ايزابيلا مؤتمرا في توردي سيللاس وأسفر عن معاهدة مع البرتغال قسمت بمقتضاها المغرب إلى قسمين. قسم يقع شرق حجر باديس، ويتولى الإسبان فيها مهمة حرب الاسترداد، وقسم يقع غرب هذه المنطقة، وقد تركت للبرتغال".(العقاد 1993: 14-15).

لقد سجل التاريخ بوضوح عنف العامل الديني في تصرفات الإسبان، وقد كان رد فعل الطبيعي للإسبان بعد انتصارهم على المسلمين في شبه الجزيرة هو مواصلة الغزو داخل تراب شمال إفريقيا والقيام بحركة مد حقيقية داخله.(الميلي، 1964: 30).

ولإرساء الاحتلال الاسباني في المغرب الأوسط وغزو بلاد المسلمين،برزت عدة شخصيات دينية مسيحية نادت إلى الاحتلال، وكان الكاردينال خيميناس المشهور بتعصبه

الديني أهمها، والذي كان من أبرز الدعاة إلى مواصلة الحرب ضد المسلمين في شمال إفريقيا وتوطيد الاستعمار الإسباني، إذ خشي أن يكون سقوط غرناطة وفرار فلول العرب والمسلمين من الأندلس، إيذانا بتوقف الهجومات ضد العرب والمسلمين، لذلك أثار مخاوف الملكة إليزابيت التي كان يعرف أنها أشد تعصبا من الملك فرديناند من فرارهم، واستعمل اللهجة التي كان يعرف أنها ستكون مسموعة ولاشك من طرف الماسكين بزمام الحكم في إسبانيا المسيحية. (الميلي، 1964، ج3:19).

وفي هذا المجال يذكر الأستاذ حليمي عبد القادر أن هذا الكاردينال كان بمثابة المرشد الديني للملكة إيزابيل زوجة ملك إسبانيا، وكان مدرك جيدا عاقبة هجرة المسلمين الأندلسيين إلى مدن شمال إفريقيا، وأنها هجرة مؤقتة، أو فترة فيها يتحزب المسلمون مرة أخرى ثم يعودون إلى غزو بلاد الأندلس.(حليمي، 1972: 163).

وبالتالي كان تأثيره واضحا تحققت من وراءه حلم كل مسيحي آنذاك، والنيل من المسلمين. ومن كثرة حماسه لفكرة الغزو الصليبي أنه شارك فعليا في الحملات الإسبانية على الشمال الإفريقي.(عطا الله الجمل، 1977: 78).

كثفت إسبانيا مع مطلع القرن السادس عشر نشاطاتها الاستعمارية ضد الإمارات المتطاحنة فيما بينها والمنهكة عسكريا واقتصاديا والمتفرقة سياسيا، مما سهل عليها وساعدها على احتلال أهم السواحل.(الجوهري، 1970: 185).

وهكذا أصبحت إسبانيا، وفي فترة زمنية وجيزة تسيطر على كل المواقع الرئيسية، والنقاط الحصينة الموجودة على ساحل المغرب الأوسط، فاستطاعت احتلال البلاد واستعباد العباد ونهب الثروات، ويعتبر هذا الاستعمار أول استعمار أوروبي في العصر الحديث.

عاث الإسبان فسادا وظلما وجورا وقتلا في حق كل سكان المدن التي وطأتها أقدامهم، فكانت المرسى الكبير ثم وهران أولى محطاته الاستعمارية بأرض المغرب الأوسط، ذلك أنهم اعتبروا هجوماتهم كأحسن وسائل الدفاع، فاغتنموا تفكك أقاليم المغرب الإسلامي

وانقسامه مما شجع وزاد من طموحهم، وبذلك كان المغرب الأوسط يمثل لهم فريسة سهلة المنال. (جلال: 59).

في عام 1505م رست الحملة الإسبانية الضخمة أمام المرسى الكبير،وأصبح الغزو الإسباني حقيقة عاشها مسلمو وأهالي المغرب الأوسط، وقد ذهل سكان المنطقة من الهجوم المفاجئ الذي حقق الإسبان من خلاله نصرا ساحقا، دفع حامية الميناء للاستسلام، وقد ارتكب الإسبان أعمالا وحشية قلما عرف التاريخ لها مثيلا، حيث تفيد المصادر الإسبانية أن المدينة غدت خالية من الطيور والحيوانات، ولم ينج من سكان الجزائر، إلا من تمكن من الفرار إلى قمم الجبال.(عزيز، 1989: 17).

وبالرغم من بسالة المدافعين في رد ذلك الهجوم، إلا أن الخسائر كانت كبيرة وفظيعة، حينذاك عرف عدد كبير من المسلمين القتل وحتى الذبح دون مراعاة للإنسانية، وتم تحطيم الديار والاستيلاء على الممتلكات، فأظهر هؤلاء الغزاة المسيحيين حقدهم تجاه المسلمين. فقد بلغ طغيانهم إلى درجة تحويل مساجد المرسى الكبير إلى كنائس بعد انهزام المقاومين. (De Grammont, 1887, 08)

وبذلك يكون الإسبان قد تفوقوا فعلا على المسلمين المقاومين في المرسى الكبير، ولكن باستعمالهم أقصى أنواع القهر والتسلط وبكل وحشية لم يعرف التاريخ لها مثيل.كان عزم الإسبان على احتلال الشواطئ الإفريقية كبيرا، فباحتلال المرسى الكبير يكون قد سقط أول مركز ضحية لهجومهم على التراب الجزائري والذي يعد من أحسن وأوسع ميناء من موانئ العالم، الأمر الذي أدى بهم إلى احتلاله قبل غيره لكي يكون أسطولهم في مأمن من شواطئ إفريقيا.(بن اشنهو: 47).

يحتل المرسى الكبير موقعا استراتيجياهاما في الحوض الغربي للبحر المتوسط، فهو محمي طبيعيا لوجود جبال تحميه من الرياح الجنوبية، كما يتميز بعمق مياهه التي تسمح برسو كل أنواع السفن التجارية كانت أو الحربية. (Lieussou, (1850), 17)

وباعتبار أن ميناء المرسى الكبير كان من أهم موانئ المنطقة،فقد كان بإمكانه رسو مئات المراكب والسفن الحربية فيه بكل سهولة، وهي في مأمن من كل عاصفة وإعصار.(عباد، 2012: 27).

يقول دو طو كفيل المؤرخ والسياسي الفرنسي عن هذا المرسى أنه يمثل الحصن والموقع المنيع الذي استغلته فرنسا واستفادت من خدماته بعد احتلالها للجزائر، كما يؤكد في هذا الشأن أن"الإسبان تركوا لنا مؤسسة رائعة في مرسى الكبير، ذلك انه يشكل دفاعا قويا من جهة البر، حيث من الصعب على الأوروبيين والمستحيل على العرب أن يهاجموننا".(دو طوكفيل، 2008: 226).

تطلع الإسبان إلى احتلال معظم مدن الشمال الإفريقي، بعدما استقر بها عدد كبير من المسلمين الفارين من الأندلس، وما كان ذلك الغزو، إلا بداية تنفيذ وصية الملكة إيزابيلا في مطاردة المسلمين، والسعي إلى تنصيرهم، ومن ثم احتلال كامل شمال إفريقيا وفي مرحلة مقبلة التوغل جنوبا واستعمار كامل قارة إفريقيا فيما بعد.

وبعد حوالي أربع سنوات من احتلال المرسى الكبير، وجه الإسبان ضربتهم الثانية إلى مدينة وهران للاستيلاء عليها، وكان ذلك بعد الاستعدادات الحثيثة التي قام بها الكاردينال خيميناس الذي عرف بتأثره الشديد وتقليده للقائد الروماني سيبيون الإفريقي (Scipion L'africain)، وحين ذاك جهز حوالي 15000 محارب لاحتلال المدينة.(ChPicquet (1830),2éme Edition, 9)

كما أن هذه المدينة لم تسقط بأيدي الصليبيين لو لا الخيانة التي كانت السبب المباشر في احتلالها، والتي ربما يكون من لا ضمير لهم من الخونة قد أسهموا في تسليمها، التي امتنعت عليهم لحصانتها، وارتكب الإسبان مرة أخرى مجازر رهيبة تؤكد مدى الحقد الديني الدفين ضد المسلمين. إذ تؤكد المصادر أن هذه المدينة، قام فيها الإسبان بمجزرة

عظيمة ذبح خلالها 4000 من الأهالي، كما تم فيها أسر ثمانية آلاف مقاتل، وحولوا أثنين من مساجدها إلى كنائس كاثوليكية بإشراف الكاردينال بنفسه.(جلال: 60-61).

يؤكد الشيخ أحمد بن عبد الرحمن الشقراني الراشدي ذلك، حين قال "إن الكفار أخذوا وهران من يد بني زيان غدرا بمداخلة يهودي ونكبوا أهلها بين قتل وأسر".(الراشدي،2013: 62).

مرة أخرى تم انتهاك حرمات المسلمين والانتقام من الإسلام في ديارهم، حين اعتبر هؤلاء الغزاة أن الأرض التي احتلوها هي أراضي تابعة لإسبانيا، وكأنها امتداد لأوروبا. وهذا ما يؤكده جورج مارسي الذي قال أن سقوط مدينة وهران هو بمثابة بداية الحملة الصليبية المظفرة، وتوقع غزو بجاية وتونس فيما بعد. (Marçais, 2004, 63)

اتبع الإسبان الإستراتيجية الاستعمارية التي تقوم على المحافظة على كل المدن التي احتلوها وعدم التخلي عنها، ثم القيام بالاستثمار فيها من خلال بناء المراكز العسكرية والقلاع وتحصينها، وهذا ما يظهر نوايا الاحتلال في البقاء الدائم، وأخذوا يعملون في تثبيت أقدامهم عليها لتكون نقطة انطلاق لاحتلال المراكز الأخرى في الشمال الإفريقي والتي كانت أنظارهم تتجه إليها.(سالم: 73).

ومباشرة بعد الاستيلاء على مدينة وهران عام1509م، كلف كسيمينيس بييدرو دو نافارو بغزو عدد من المدن الشاطئية ومن بينها بجاية التي وصل إليها في بداية شهر جانفي 1510م، وتوالت النكبات وتكررت الجرائم إلى أن احتلت المدينة بعد المقاومة العنيفة لأهلها وكان ذلك بعد نهب البيوت وتخريب المعالم والقصور والمساجد، وهاته الأعمال الوحشية ليست بالجديدة على السكان بل هي سيمة المستعمر الصليبي في كل غزواته، والأهم في ذلك أن خسر الإسلام بسقوط مدينة بجاية أهم حاضرة علمية نافست كبريات المدن على غرار فاس وتونس.أما بقية الموانئ الجزائرية وأهمها دلس وشرشال ومستغانم فقد قبلت دفع الجزية والتخلي عن نشاط الجهاد والملاحة.(هلايلي، 2008: 124).

كانت عمليات دفع الجزية للإسبان من قبل بعض المدن التي رأت أن المجابهة المباشرة معهم لا يجديها أي نفع، بل بالعكس كان هذا خيارها،واتقاء شر وعنف الصليبيين وتهديداتهم، وبدل من الخوض في معارك وحروب بات من المستحيل الانتصار فيها ما دامت أحوالهم الداخلية مشتتة يسودها الضعف والانقسامات، وحتى أن جيوشهم المنهكة لا تضاهي الجيوش الإسبانية القوية والمنظمة.

أما عن مدينة جزائر بني مزغنة، ولأجل إضعافها عمل الإسبان على احتلال وتجهيز قلعة البينون المقابلة لها وتهيئتها كقاعدة حربية للهجوم عليها في كل وقت، ومراقبة كل تحركاتها ونشاطها من هذا المكان. وبالتالي عرف المغرب الأوسط الغزو والاحتلال لمعظم سواحله ومراكزه البحرية الممتدة من مدن المغرب الأقصى غربا إلى سواحل تونس شرقا، واحتلوا تونس نفسها واستكملوا بذلك الاستيلاء على ساحل إفريقيا الشمالية منتهكين في ذلك حرمة أهل هذه الثغور الإسلامية.(الجيلالي، 1994: 14).

ومن جهة أخرى كان للجانب الاقتصادي دور كبير في هذا الصراع، فقد كان حوض البحر الأبيض المتوسط شريان النشاط التجاري بين الدول المطلة عليه، فأراد الإسبان السيطرة على الضفة الجنوبية منه للمحافظة على تجارتهم، لأن بروز القوة العثمانية وتحركاتها سيؤثر حتما على مصالحهم التجارية، خاصة بعد احتكار التجار الإسبان للتجارة الخارجية لدولة بني زيان.(حساني، 2009، ج2: 179)

إن ازدهار ونمو التجارة يحتاج إلى عدة مقومات من أجل ازدياد نشاطها واستمرارها، وأن توفير المواد الأولية واستغلال الموارد الطبيعية ضرورة لأجل إنتاج أكبر وأوفر، ومنه التحكم في الأسواق الخارجية، ويتحسن مستوى معيشة السكان وترتقي حياتهم، ولا يتحقق ذلك إلا بتوسع الدول القوية على حساب الممالك والدول الضعيفة والمشتتة، وهذا ما طبقها الإسبان على ممالك المغرب الإسلامي بداية من القرن السادس عشر ميلادي، وأصبحوا فيما بعد رواد التجارة في العالم. إذ "عمد الإسبان بعد سيطرتهم على إمارة بني الأحمر بسقوط

عاصمة الدولة غرناطة، إلى استعمال كل السبل للسيطرة على الضفة الجنوبية للبحر المتوسط ومن أبرزها وهران والمرسى الكبير حتى يمكن لهم التحكم في شريان التجارة."(حساني، 2009، ج2: 138).

ومن نتائج الاحتلال الإسباني لسواحل ومدن المغرب الأوسط، أن اتخذ السكان من الهجرة سبيلا للنجاة، وهذا ما جعل مناطق كثيرة تفقد لمواردها البشرية والاقتصادية، وعلى رأسها الحرفية والزراعية، بعد اتخاذ الأهالي والسكان الجبال والصحاري كملاجئ لهم،فكان له تأثير على معيشة السكان بصفة عامة، هذا ما ساهم في نقص المواد الغذائية وكثرة المجاعات والأوبئة، وفي المقابل عرفت حرفة الرعي النمو والتوسع، فأصبحت أكثر نشاطا يمتهنه السكان وأهم مصدر للثروة آنذاك، نتيجة عدم استقرار الرعاة، وقدرتهم على الهروب من الغزاة كلما اقتضت الضرورة، الذين تميزوا بالفرار بمواشيهم كلما علموا بتحركات الإسبان خوفا على أنفسهم وثرواتهم، فانتشرت المواشي على نطاق واسع وتغيرت بذلك طرق معيشتهم،وسعوا في البحث عن أساليب جديدة تقيهم المجاعات والاحتياج.تزامن ذلك مع تقديم سكان بني زيان الضريبة إلى الإسبان، التي زادت من معاناتهم وفقرهم.(حساني، 2009، ج2: 119).

إن الإعلان عن الجهاد ضد الصليبيين كان في نظر أهالي المغرب الأوسط هو السبيل الوحيد في الخلاص من هذه الأوضاع، ولا يتحقق ذلك إلا بالاعتماد على أنفسهم من خلال الدفاع عن أملاكهم وأرزاقهم، فكان اختيار أسلوب المقاومة هو الحل الوحيد لاتقاء بطش وظلم الصليبيين الأجانب، وصراعات الملوك والأمراء على الحكم والسلطة. إلا أن إمكانياتهم في ذلك الزمن كانت محدودة وغير كافية من ناحية العدة والعدد لمجابهة الإسبان الذين تغذيهم روح الحروب الصليبية، بينما كان المسلمين مشتتين يغلب عليهم الضعف والتفرقة، وبذلك فإن القوتان غير متكافئتان، خاصة وأن "القوة الإسبانية عرفت في الربع الأول من القرن السادس عشر ميلادي اتحادات وتوسعات في أوروبا أكثر من ذي قبل،

فصارت تشمل كامل إسبانيا والنمسا وبلجيكا وهولاندا وجزءا كبيرا من ألمانيا ومن إيطاليا". (المدني، مجلة الأصالة، العدد 26: 38).

وكبديل عن خيار المواجهة المباشرة مع الصليبيين، قرر سكان المغرب الأوسط الاستنجاد بقوة مكافئة لقوة الإسبان، والتي تمثلت في العثمانيين إخوانهم في الدين الذين ظهروا على مسرح الأحداث في العالم آنذاك،أملين في إنقاذهم من الاحتلال،ليكون الخلاص على أيدي الأخوين عروج وخير الدين ومن معهم من جماعتهم من العثمانيين.فكان العصر الحديث بداية لدخول العالم عهد جديد بظهور القوتين الإسبانية والعثمانية المتنافستين، والتي سيكون البحر الأبيض المتوسط مسرحا لها، فالأولى هدفها إتمام وإنجاح الحملة الصليبية الاستعمارية وتوسعها خارج أراضي الأندلس بمباركة البابا في روما. والثانية لأجل صد وإيقاف التوسعات المسيحية بأراضي المسلمين وعلى رأسها المغرب الأوسط، والتي وقفت كحاجز مانع في طريق غزواتهم ببلاد المسلمين.

3.الاستنجاد بالدولة العثمانية

عرف المغرب الأوسط خلال نهاية القرن الخامس عشر ميلادي ظروفا صعبة،نتيجة الفتن والحروب الداخلية التي أنهكت كل قواه في مجابهة الخطر الأجنبي المتسلط عليهم من قبل الإسبان خاصة ما عرفته المدن والمراكز الإستراتيجية الساحلية.

إن انهيار الحضارة العربية الإسلامية بالأندلس دفع بالإسبان إلى تغيير سلوكاتهم تجاه مسلمي المغرب الإسلامي بصفة عامة والمغرب الأوسط بصفة خاصة، وأظهروا حقدهم تجاه المسلمين، وتفننوا في إيجاد دوافع ومبررات لغزوهم واستعمارهم، والتي تنوعت بين دوافع دينية وسياسية واقتصادية، فقد كانت حرب الاسترداد المسيحي ضد البقية الباقية من المسلمين في الأندلس أهم ما حركها.

إن تفرق الممالك المسيحية وانفصالها عن بعضها البعض، كانت سببا من أسباب ضعفها وتناحرها فيما بينها، ولكن القوة قد بدأت تسري في عروق تلك الممالك عندما تركت

خلافاتها جانبا بتوحدها أمام عدوها الوحيد، ألا وهو الوجود الإسلامي، وعليه لم يكن العامل الاقتصادي بالإضافة إلى العامل الديني هما المحركان الوحيدان للاستعمار الإيبيري لبلدان المغرب الإسلامي، فكان هناك أيضا العامل السياسي الذي دفع كل من إسبانيا والبرتغال إلى ملاحقة الموريسكيين في الشمال الإفريقي وبلاد المغرب عامة، والقضاء عليهم وضمان عدم معاودة مهاجمة السواحل الإيبيرية أو القيام بأية مؤامرات ضد الوجود المسيحي داخل شبه الجزيرة "(سالم، 2011: 64-66).

هذه العوامل وغيرها سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو دينية جعلت السكان يفكرون في صد ووضع حد للاعتداءات والتحرشات الصليبية ضدهم، وهذا ما دفع بهم إلى التفكير الجدي في الخروج والهروب من نير الاحتلال الأوروبي، ولا يكون ذلك إلا بطلب النجدة والإنقاذ، والالتجاء إلى قوة إسلامية تضاهي قوة الغزاة الإسبان آنذاك، والمتمثلة في الدولة العثمانية. تلك الدولة الإسلامية التي تأسست في آسيا الصغرى،ثم توسعت وهيمنت فيما بعد على أجزاء كثيرة من القارات الثلاثة آسيا وإفريقيا وأوروبا. والتي "يشهد لها الكثير من المؤرخين الغربيين على أن التسامح الديني والمذهبي الذي تحلت به هذه الدولة في مختلف عهودها كان عاملا مهما من عوامل الاستقرار السياسي الذي حققته للشعوب التي خضعت لسلطانها، بل كان سببا مهما من أسباب سهولة خضوع تلك الشعوب للحكم العثماني". (سالم، 2011: 18).

لقد برز العثمانيون كقوة إسلامية تمكنت من تحطيم أخر قلاع الإمبراطورية البيزنطية بالسيطرة على القسطنطينية عام 1453م، وسعيهم في مواجهة التحدي الأوروبي الاستعماري وتحقيق طموحاتهم المتمثلة في إعادة إحياء مجد الدولة الإسلامية.

في بداية القرن السادس عشر ميلادي ظهر على مسرح الأحداث بطلان عثمانيان يجاهدان في سبيل الله ضد العدو الصليبي، وهما الإخوة عروج وخير الدين، اللذان استقرا سنة 1504م بجزيرة جربة التونسية، وذاع صيتهما بعد أن انطلقا في الغزوات بالبحر الأبيض المتوسط، كما عرفا بدفاعهما ونجدتهما لآلاف المسلمين الأندلسيين الفارين من

جحيم المسيحيين بعد سقوط الأندلس."ووسط هذه الصراعات، تطلعت أنظار أبناء المغرب العربي إلى هؤلاء القادة البحريين، يمكنهم الدفاع عن سفنهم وموانيهم وتجارتهم وتوحيد صفوفهم في كفاحهم من أجل الاحتفاظ باستقلالهم أمام الخطر المتزايد. وهذا ما زاد التقارب بين أبناء المغرب العربي وإخوانهم في المشرق العربي وتوحدهم نتيجة لوحدة العدو والمصالح والمعركة وكذا وحدة المصير".(يحى، 1965: 38).

أما في المغرب الأوسط فقد اتخذ الأخوان بربروس من مدينة جيجل في السواحل الشرقية للجزائر الحالية قاعدة لغزواتهم، بعد إلحاح أهلها في الاستنجاد بهم لمواجهة التحرشات الإسبانية، كما كان لهاته المدينة خصوصية إستراتيجية والمتمثلة في توفر مادة الخشب في الغابات المحيطة بها، والتي ساهمت كثيرا في بناء وتصليح سفنهم.

وفي مرحلة لاحقة استجاب الأخوان لنداء سكان وأهالي مدينة الجزائر المهددين أيضا من قبل قوات الاحتلال الإسباني الذين اتخذوا قلعة البينون مركزا لمهاجمة وغزو المدينة بغية تخليصهم من الغزاة.

وفي عام 1518م وعند استلام خير الدين القيادة أدرك بتفكيره السليم ومحاكاته للواقع أنه لن يستطيع مواجهة أعداءه بمفرده بعد عصيان القبائل وتمردها عليه، وهو متأثر بسبب هزيمة أخيه ومقتله مع أفضل المجاهدين ممن كان يعتمد عليهم، وفي نفس الوقت لم تعلن البلاد خضوعها له كما فعلوا مع أخيه عروج لشعورهم بأن خير الدين لن يكون بديلا عن أخيه، هذا ما أدى بذكاء خير الدين في نهاية المطاف إلى أنه بحاجة إلى حماية دولة قوية يستند عليها في أوقات الشدة.(سالم، 2011: 93-95).

يتفق معظم المؤرخين المسلمين على أن قدوم العثمانيين إلى بلاد شمال إفريقيا كان بمثابة نجدة بعد حالة الضيق والشدة التي عرفتها البلاد من الغزو الصليبي، هذا التدخل الذي لم يكن في الحقيقة احتلالا بالقوة والعنف والنهب كما هو معروف عن الاستعمار. وآنذاك"كانت جيوش العثمانيين أقوى جيوش العالم، بالإضافة إلى ما تمتعوا به من حماسة

دينية، ورغبة في الجهاد، وحسن تدريب، وابتكار في الأسلحة، بل وفي الخطط القتالية والحربية، وعرف التاريخ منهم قادة وسلاطين عظام نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر محمد الفاتح وسليمان القانوني، كانت لهم بصمات بارزة في تاريخ الإنسانية في ذلك الوقت".(آق كوندز، 2008: 768).

عرفت التدخلات العثمانية بالفتوحات، وظلت تتجه غربا حتى عهد السلطان سليم الأول (1512-1520) الذي اتجهت الفتوحات في عهده نحو الشرق حيث تمكن من مد سلطانه إلى الأناضول وبلاد الشام ومصر والجزيرة العربية."وفي عهد السلطان سليمان القانوني(1520-1566) وصلت حدود الدولة إلى معظم بلدان المغرب العربي-عدا مراكش- بهدف إنقاذه من هجمات الإسبان وفرسان يوحنا الذين قاموا بملاحقة المسلمين هناك، واستطاعوا وقف هجماتهم، وتخليص البلاد من سطوتهم. والجدير بالذكر أن فتوحات العثمانيين للشام ومصر جاءت من منطلق التنافس وسوء العلاقات بينهم وبين الممالك، أما بالنسبة لبلدان المغرب العربي حدثت بناء على طلب الأهالي".(الجميعي،2006: 3).

اتسم ذلك العصر بصراعات وتحديات بين أكبر ديانتين سماويتين (الإسلام والمسيحية)المنتشرتين في العالم آنذاك، فكانت كل عقيدة تسعى إلى كسب اكبر عدد من الناس.وكان الصراع شديدا بين الدول الإسلامية والمسيحية بعد سقوط اسطنبول في أيدي المسلمين وغرناطة بأيدي المسيحيين، وبروز القوة الإسلامية في الشرق المتمثلة في الدولة العثمانية، وفي الغرب تمثلها إسبانيا والبرتغال، فالأولى توسعت على حساب دول مسيحية في أوروبا الشرقية وامتد نفوذها إلى أراضي الدولة الزيانية، بينما توسعت إسبانيا والبرتغال على حساب الدول الإسلامية في غرب العالم الإسلامي.(حساني، 2009: 76).

وكان العثمانيون بمثابة القوة الإسلامية الوحيدة التي حملت مسؤولية الدفاع عن الإسلام والمسلمين ومناهضة الإمبراطورية الرومانية ومحاربتها في كل مكان، وفي تلك الفترة المضطربة، بينما عم الضعف والتشتت دولة بني زيان، ظهر الحكم العثماني على أطلال

الممالك والإمارات التي مزقت البلاد تمزيقا لسوء تصرفها وجورها حين كانت البلاد في حالة فوضى وانقسام، فلا يخفى عن أحد، أن السلطة فيها كانت موزعة بين الملوك الزيانيين والحفصيين وسلاطين الصحراء وشيوخها مما كانت لها تأثيرات على الناحية الاجتماعية للشعوب والتي كانت تعيش في ضنك وظلم شديد والبؤس مخيم على القطر كله لكثرة المجاعات والأمراض والكوارث الطبيعية.(بن اشنهو: 28).

ومهما قيل عن التواجد العثماني، فإن المسلمين علقوا عليهم الآمال،خاصة بعدما استولى عليهم اليأس من جراء الكوارث التي حافت بهم في الشرق والغرب، شعروا إثر انتصاراتهم سواء في البر أو البحر بحياة جديدة ردت إليهم الآمال.(أبوغنيمة،1983: 115-116).

يعتبر عامل"الدين هو المبرر الأول لظهور العثمانيين في المشرق والمغرب... فلولا الحروب الصليبية التي شنتها أوروبا الغربية بقيادة إسبانيا ضد الجزائر (والمغرب العربي عموما وكذلك الأندلس) لما كان هناك مبرر لتدخل آل عثمان. فقد كانوا هنا، كما كانوا في أسيا الصغرى قرونا من قبل، مدفوعين برغبة الجهاد والحماس الديني للدفاع عن حدود الإسلام الغربية، وكانوا بالطبع يبحثون لهم عن حلفاء ومؤيدين، فوجدوهم في رجال الدين، وخصوصا المرابطين. كما كانت هناك مبررات كثيرة لهذا التحالف أيضا، ذلك أن الظروف السياسية والاقتصادية والدينية كانت تستوجب ذلك".(سعد الله، 1998، ج1:460).

إن ظروف قدوم العثمانيين إلى المغرب الإسلامي عامة والمغرب الأوسط خاصة كانت مغايرة لظروف تواجدهم وبلوغهم المشرق الإسلامي، إذ لم تتم الفتوحات العثمانية في بلاد المغرب الإسلامي على نفس المنهج الذي تمت به في المشرق، فقد كانت توسعات العثمانيين في الشرق نتيجة لحروبهم المظفرة ضد دولتي الصفويين والمماليك، في حين قدموا إلى الجزائر وغيرها من المناطق المغربية بناء على استنجاد السكان المحليين بهم من الغزو الإسباني الذي شمل العديد من المدن الساحلية، لذا كان تدخل العثمانيين في البدء، في

الحوض الغربي للبحر المتوسط من باب الجهاد ونصرة إخوانهم في الدين.وبعد أن خضعت الجزائر بفضل جهود الإخوة عروج وخير الدين للحكم العثماني، أصبحت تدار باعتبارها ولاية من ولايات الدولة العثمانية المترامية الأطراف.(محرز، 2013: 19).

لقد كانت غزوات الإسبان للمغرب الأوسط من أهم الأسباب التي مهدت لإستقرار العثمانيين في البلاد، وهذا ما يعتبر الجانب الايجابي من مسألة تواجدهم. وفي هذا الإطار نذكر ما شهد به عبد الرحمن بن محمد الجيلالي بحق هذا التواجد العثماني حين ذكر"قد من الله على أهل الجزائر وأولاهم بمن يدافع عنهم ويرد صولة هذه الاعتداءات الإفرنجية ويفل سلاحها، وذلك بإلهامهم إلى التجاء إلى الأمير البحري أروج بن يعقوب المدلي التركي وأخيه خير الدين المتجولين بمراكبهما القرصنية بهذا البحر الأبيض المتوسط، وقد أظهرا من البطولة الخارقة والغيرة الإسلامية على أهل الجزائر والأندلس ما يسجله التاريخ لهما بأفخر الذكر والشكر. فكان إنقاذ الموقف بمقاومتهما العنيفة لهؤلاء المغيرين من الإسبان وغيرهم من دول النصرانية."(الجيلالي، 1965،ج2: 221).

وعموما فقد اقتضت الظروف آنذاك إلى ضرورة الاستنجاد بالعثمانيين وذلك لاتقاء الخطر الصليبي بعد العجز الذي عرف عن الكيانات السياسية الموجودة بالمغرب الإسلامي، والتي كان همها خدمة مصالحها الضيقة على حساب شعوبها، وإن اقتضى الأمر التحالف والتواطؤ مع العدو. والجدير بالذكر أن في تلك الفترة حين كثرت غزوات الإسبان وقلة حيلة وقوة المسلمين في الدفاع عن بلادهم، إذ ذاك كانت الدولة العثمانية ذات شأن وقوة، وفي هذا الصدد يمكن اعتبار أن الوجود العثماني في الجزائر لم يكن في يوم من الأيام وجودا استعماريا بل هو وجود معنوي أكثر منه مادي.(قنان، 1994: 23).

وإذا كان المشرق الإسلامي قد خضع بالقوة لسيطرة العثمانيين، فإن المغرب الإسلامي على العكس من ذلك تماما، لأن شعوبه هي التي طلبت النجدة منهم وألحت على ذلك، خوفا من الزحف الأوروبي الإسباني الذي حاول تمسيحها وتنصيرها، ورضيت عن

طواعية أن تنضوي تحت لواء الخلافة، فما كان للعثمانيين إلا أن صدوا وواجهوا تلك التحديات وسجلوا صفحات مشرقة في تاريخ المنطقة.(بوعزيز، 2009، ج2: 7).

وتنفيذا لأهم قرار اتخذه خير الدين "حين كشف عن عمق حاسته وعبقريته السياسية، وذلك بأن يربط مصيره بمصير الإمبراطورية العثمانية، لأنه أدرك أنه لا يستطيع أن يحتفظ بالجزائر، ولا يقدر أن يبسط نفوذه على كامل المغرب الأوسط كما كان يحلم عروج، ما لم يضع نفسه تحت سلطة الباب العالي".(الميلي، ج3: 52).

ولأجل إنجاح هذا المسعى قام هذا الأخير بإرسال وفدا إلى السلطان سليم الأول برئاسة أبو العباس أحمد بن القاضي الذي اشتهر بجهاده ضد الإسبان لتصوير أوضاع المسلمين المتردية في الجزائر، وعرض أبعاد القضية عليه، ومطالبته بربط مصير الجزائر السياسي بالدولة العثمانية، وتقديم المساعدات العسكرية لها حتى تتمكن من قيادة عمليات الجهاد الديني ضد الإسبان وخصوصا أن النزاع بين القبائل أدى إلى توغل الإسبان في السواحل الجزائرية.(الجميعي، 2006: 5).

فقد كان الغرض من ذلك الاتصال هو تزويد خير الدين بالحماية الكافية من تلك الأخطار التي كان يواجهها بالمال والرجال من الأتراك، ومن سكان الأناضول على الخصوص، ليستطيع مقاومة المعتدين وتحقيق الاستقرار في شمال إفريقيا، فلبى السلطان العثماني سليم الأول نداءه، وزوده بألفي رجل، ثم أربعة آلاف من المتطوعين الأتراك، وبذلك وضعت الجزائر تحت الحماية العثمانية.(حليمي، 1972: 169-170).

وبذلك"لم يتأخر جواب السلطان كثيرا، فقد أعلم خير الدين وأهل الجزائر بقبول ما طلبوه، وأنه قرر أن يشمل دولة الجزائر برعايته، وتكون مشتركة مع الدولة العثمانية في الجهاد ضد المسيحية، وأضفى على خير الدين لقب (باي لرباي) أي باي البايات، باعتباره الرئيس الأعلى لكل البايات الذين يتولون أو سوف يتولون الحكم في بلاد الشمال الإفريقي".(المدني، 1968: 198).

ومنذئذ أصبحت بلاد المغرب الأوسط تحت رعاية السلطان العثماني، وفي مقابل ذلك عبر أهلها عن طاعتهم وإخلاصهم للسلطان، "فسُكت النقود وكانت خطب الجمعة والصلوات في المساجد باسم السلطان والدعوة له كخليفة".(سبنسر، 2006: 196)

إن ارتباط مصير بلاد المغرب الأوسط بالدولة العثمانية، يعتبره المؤرخون بمثابة أول إقليم في شمالي إفريقيا يصبح تحت حمايتها.مما سيكون لأبناء الجزائر شأن في محاربة الصليبيين، ولهم الشرف أيضا أن يكونوا من طلائع العالم الإسلامي في قيادة الجهاد ضدهم أيضا،بعدما "تعزز نفوذ خير الدين وقوي موقفه في الحرب ضد الإسبان من جهة، ومحاولات القوى السابقة استعادة نفوذها المفقود، وبخاصة بني زيان والحفصيين، من جهة أخرى". (طقوش، 2013: 219).

وبذلك أصبحت أرض الجزائر إحدى أهم مراكز الجهاد، وأهم قاعدة من القواعد التي يعتمد عليها في تولية قيادة العالم الإسلامي وتصديها لغزوات الصليبيين خاصة بالجهة الغربية للبحر الأبيض المتوسط. مما أكسبها حماية من أطماع الإسبان،الذين تم هزمهم وطردهم من الثغور والمراكز التي احتلوها في السابق، وكان أهمها هدم حصن البينون عام 1529م، التي تنفي المزاعم الإسبانية على أنها القوة التي لا تقهر، وبذلك زعزعت مكانتهم وهيبتهم في المنطقة. وإذا كان عام 1518م هو بداية وصول السلطة العثمانية رسميا إلى شمال إفريقيا، فإن استيلاء خير الدين على حصن البينون هو بداية لتأسيس ما عرف بنيابة الجزائر.(جباره، 2015: 130)

إن انضمام المغرب الأوسط للسيادة العثمانية كان بمثابة انتصارا لمقاومة المسلمين للصليبيين الغزاة قبل المواجهات الفعلية بين الطرفين وخطوة أولى للتحرير، وإلحاق جزء من الساحل المغربي، هذا الجزء الذي يتمتع بإمكانيات إستراتيجية في قلب أراضي حوض البحر الأبيض المتوسط.(شوفالييه، 2007: 38).

لقد أدى أهالي الجزائر دورا مهما في الدفاع عن بلادهم، الذين قاموا بمهمات تاريخية على أكمل وجه، أدت إلى تحرير معظم المدن والمراكز التي احتلها الصليبيون فيما قبل بمعظم سواحل المغرب الأوسط، ما عدا المرسى الكبير ووهران، كما تم تدمير الأسطول الإسباني في مواقع عديدة، وبذلك تم تحرير وإنقاذ الدول والإمارات الإسلامية. وتمكن العثمانيون من جعل أرض الجزائر أرض جهاد ومقاومة ضد المسيحيين. وإليهم يرجع الفضل في تجسيد نطاق حدودها بعدما حملوا إلى إفريقيا فكرة تحديد الحدود وكذا السيادة الإقليمية.(أجيرون، 1982: 11).

ليتم اعتماد النظام السياسي والإداري العثماني في الجزائر على الشريعة الإسلامية التي تستند إلى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، والقياس والإجماع، وعلى أساس المذهب الحنفي الرسمي للدولة.(الزيدي، 2009: 101).

وبذلك فإن العثمانيين جنبوا الجزائريين والإسلام مصيبة كبيرة بتدخلهم لإنقاذها في الوقت المناسب من أيادي الإسبان، وبهذا أرجئوا الاحتلال الأوروبي قرونا أخرى.(عمورة، 2002: 105).

وخلاصة القول أن الجزائر ظلت منذ ذلك الوقت ولاية عثمانية وشملتها حمايتها لمدة زمنية فاقت الثلاثة قرون، عرفت فيها مختلف الحوادث من انتصارات وهزائم، جعلت منها دولة ذات سيادة واحترام بين الأمم.كما عرفت الجزائر خلال هذا العهد تأثيرات وبصمات حضارية مست جميع جوانب الحياة، حيث شهد واقع الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية والعسكرية والعمرانية تغييرات جذرية، ورسمت لنفسها مكانة بين دول العالم كله بما تركه هذا العهد من تأثير حضاري جعل من الجزائر مطمع عديد الدول والممالك، كانت نهايته سقوطها في يد الاستعمار الفرنسي عام 1830م.

المبحث الثاني: حالة العمران في المغرب الأوسط قبيل العهد العثماني

1. تأثيرات الجالية الأندلسية على مظاهر العمران بالمغرب الأوسط

كان للمسلمين دور بارز في بناء حضارة ثرية بشبه الجزيرة الإيبيرية طيلة قرون من الزمن، إلا أنه مع تزايد سقوط المدن الأندلسية وتوسع الممالك المسيحية على حساب الممالك الإسلامية، وما تبعه من انحصار للوجود الإسلامي، بدأ النزوح إلى شمال إفريقيا نتيجة عدة عوامل أهمها القرب الجغرافي من جهة، والصلات التاريخية بين المنطقتين من جهة أخرى، والتي استوعبت أعدادا هائلة من الأندلسيين من مختلف طبقات المجتمع، والذين تركوا بصمات خالدة في الحضارة الأوروبية على رأسها العمران والاقتصاد والفنون وغيرها.

لقد كانت إسهامات الأندلسيين كبيرة في النهضة العمرانية التي عرفها المغرب الأوسط على الخصوص، فبفضل مهارات بنائيهم وحرفييهم وفنانيهم الذين نزلوا بالمدن والقرى أعادوا من خلالها إحياء وتجديد المباني والمنشآت بلمسة أندلسية ونمط عمراني عايشوه بالأندلس. كما قاموا بتشييد حواضر جديدة على غرار مدينتي القليعة والبليدة ورمموا ووسعوا في مدن أخرى. "فقد ساعد امتزاج الفن الجزائري بالفن الأندلسي على وجود صناع حذاق من الجالية الأندلسية التي استقرت منذ القرن الخامس الهجري، واستمرت عمليات الامتزاج نحو ثلاثة قرون.(بن يوسف، 2010-2011: 154).

ساهم التجار الأندلسيون كثيرا في ربط العلاقات بين الشمال الإفريقي ومدن الأندلس، كما لعبوا دورا كبيرا في نشأة المدن بسواحل المغرب الأوسط على غرار تنس ووهران ودلس وغيرهم. حيث كانت أراضي بلاد المغرب الإسلامي عامة قبلة للبحارة الأندلسيين القادمين من قرطاجنة والشرق الأندلسي بحكم قربها من الضفة الجنوبية لشبه الجزيرة لغرض تبادل وترويج تجارتهم، ومع كثرة الحروب الأهلية في الأندلس، عملوا على إقامة وتأسيس مرافئ على السواحل المغربية لتسهيل تسويق منتجاتهم، وكذا مقايضتها بالمنتجات الزراعية والحيوانية المتوفرة بالمنطقة، حتى أن تمكن هؤلاء البحارة التجار من القيام بأول عمل عمراني على الواجهة الساحلية للمغرب الأوسط، حيث أسسوا مدينة تنس الحديثة في 261هـ-875م، وربطوها تجاريا بمدينة بجانة في الأندلس،وعليه فإن وجودهم كانت طبيعته

تجارية، فالمصالح التجارية والخارجية الأندلسية لعبت أيضا دورا كبيرا في وفود العناصر الإسبانية الإسلامية إلى المناطق الساحلية في غربي بلاد المغرب ووسطها.(كولان،1980:141).

عُرف عن العمران الأندلسي بتميزه بحسن الإتقان والذوق الرفيع،من خلال اعتماده على بساطة المباني من الخارج وكثرة وتنوع زخارفها بالداخل في كل الحواضر التي أقاموا بها، والأصل أن المغرب الأوسط عرف التشييد والانجاز أيضا قبل حلول العنصر الأندلسي، إذ "كانت طريقة البناء في معظم المناطق هي استعمال الطريقة التقليدية التي طبعت بتأثيرات مختلفة أهمها التأثيرات المحلية، حيث نجد نماذج كثيرة منها بالمدن الداخلية مثل المباني الشعبية بضاحية وادي ميزاب والبناء الشعبي بوادي سوف، إضافة إلى الأحياء الشعبية الكبرى لمدن تلمسان، وهران، قسنطينة وعنابة، مع اختلاف بسيط في حجم البناء.أما التأثيرات الأندلسية فتمثلت في الهندسة الداخلية للمباني، أو في بعض التفاصيل والزخارف مثل الأطناف والأقواس والخزائن الجدارية والأبواب، وفي تبليط الأرضيات والتكسية وفي استعمال القباب".(خلاصي، ج2: 159).

وهذا ما يؤكد أن مظاهر الحضارة والعمران بالمغرب الأوسط لم يرتبط بتواجدهم فحسب، ولم يكن هؤلاء الوافدين أول من شيد وأنجز العمران بالمنطقة، ولا يمكن نكران فضل من سبقهم، بل عرفت البلاد قبلهم بناء وتشييد البنايات والمنشآت رغم قلتها، والتي كانت في غالب الأحيان تفتقر إلى اللمسة الجمالية التي ستعرفها فيما بعد، **أي** قبل أن يصل التأثير الأندلسي إلى الشاطئ الإفريقي، ولعل المساجد الجامعة في تلمسان والجزائر، الخالية أصلا من الزخارف، قد شيدت في السنوات الأخيرة من القرن الخامس الهجري-الحادي عشر الميلادي.(كولان، 1980: 167).

إن "العمارة الجزائرية بصفة عامة تمثلت في بناء المساجد والزوايا والقلاع والجسور والثكنات والدور والقصور، والتي استمد البُناة طريقتهم من حضارتهم القديمة التي شاعت أيام

الأغالبة والحفصيين والزيانيين. كما استمدوها من حضارة الأندلس التي تشترك في كثير من الخصائص مع حضارتهم".(سعد الله، 1998، ج2: 446).

وموقع المغرب الأوسط الاستراتيجي والهام، أهله أن يكون محل أطماع لكثير من الأجانب والغرباء في كل الأوقات والأزمنة كغزاة ومستعمرين، أو فاتحين جالبين للحضارة. وبعد سقوط غرناطة أخر معقل إسلامي في إسبانيا، عرف المغرب الأوسط استقبال المهاجرين الأندلسيين الفارين من قتل الصليبيين، والذين قدموا واختاروا الاستقرار والعيش فيه، باعتباره الوطن الثاني لهم، حيث ساهموا بكل ما يملكون من معرفة وعلم وخبرات مختلفة في سبيل رقيه وازدهاره ونموه،حتى شملت لمساتهم جميع نواحي الحياة، فتفننوا في كل الانجازات والأعمال التي شيدوها، والتي لازالت قائمة تشهد على براعتهم وإتقانهم خاصة في مجال البناء والعمران، سواء كان ذلك بشبه الجزيرة الإيبيرية فيما سبق أو بالحواضر والمدن التي أقاموها عبر الساحل الشمالي لإفريقيا بعدما ازدادت حركة الهجرة انتشارا، بازدياد تفكك إسبانيا الإسلامية حتى القرن الخامس عشر.(كولان، 1980: 142).

لقد تميزت الهجرة الأندلسية إلى المغرب الأوسط بمستوياتها المختلفة، فطبقات المهاجرين تلك كانت تختلف ثروة وثقافة وجاها، ففيهم أبناء الشعب البسطاء وأحفاد الملوك الوجهاء، وفيهم أصحاب الصنائع وأصحاب القلم.(سعد الله، 1998، ج1: 46-47).

بالإضافة إلى أن هذه الهجرة شملت أيضا العلماء والأدباء والحرفيين والتجار وغيرهم، مما كان لهذا الاختلاف والتنوع نتائج وانعكاسات إيجابية كبيرة مست بصفة عامة كل المجالات، وعلى رأسها العمران الذي عرف بعد استقرار هؤلاء المهرة تحولا وتغييرا مس كل المناطق والمدن التي حلوا بها.

إن فن العمارة بالمغرب الأوسط تأثر كثيرا بأسلوب ونمط العمارة الأندلسية الذي أدخلته هذه الجالية خاصة بمدن تلمسان وبجاية والجزائر، التي إكتسبت هندسة متميزة زادت من جمال مناظرها.فكان دور الجالية الأندلسية هاما، وزاد تأثيرها مع ازدياد وجودها بشدة

خلال القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر بعد طردها من إسبانيا نهائيا".(ريمون،1991: 41).

ومن جهة أخرى وظف الأندلسيون خبراتهم ومهاراتهم في ترقية وتقوية مجال الاقتصاد أيضا وبرعوا في ميدان التجارة بعد اكتساب الخبرة في الأندلس، مما أهلهم على الهيمنة في هذا المجال،وكان لهم الفضل في تطوير الزراعة وتوسيعها،مما عاد بالمنفعة على المجتمع، إلى جانب إثراء الحياة الفكرية مساهمين في خلق توازن بين النمو العمراني والاقتصادي والاجتماعي والثقافي في آن واحد.

وعليه فإن فضل "الهجرة الأندلسية إلى الجزائر كان له انعكاس إيجابي على الحالة العمرانية التي شهدت بفضل استقرار العنصر الأندلسي نموا ملحوظا وتطورا لم تعرفه الجزائر منذ العهد الحمادي، إذ نلاحظ أن هناك نهضة عمرانية بدأت ترتسم ملامحها ابتداء من مطلع القرن الخامس عشر، تتمثل بالخصوص في إنشاء مراكز حضرية جديدة وإعادة بناء المدن والقرى التي أصابها الاضمحلال".(سعيدوني، 2013: 18-19).

إن تأثيرات الحضارة الأندلسية كانت كبيرة بلغت كل دول المغرب الإسلامي عامة، والمغرب الأوسط خاصة،ويرجع ذلك لعدة أسباب منها قرب المسافة الموجودة بينهما والاحتكاك المتواصل بين شعوبهما، وتجلى ذلك التأثير في إدخال أساليب جديدة غيرت مظاهر الحياة بالمدن،فوجدوا في المغرب الأوسط المكان والملجأ الأنسب والأمثل للإقامة، حيث قاموا بتكوين جاليات نشطة، كما لعبوا أدورا مهمة في الاستثمار الزراعي في المناطق التي توطنوا فيها، كما نشطوا في المدن أيضا حيث أدت قدراتهم وفعاليتهم إلى إنعاش بعض الأنشطة خاصة المتعلقة بنسج الحرير، وصنع البلاطات الخزفية، وأعمال البناء.(ريمون، 1991: 42).

وعرف أيضا عن هذه الجالية إقبالها الكبير على الميدان العلمي، مما أهلها على تبوأ المناصب واكتساب النفوذ وفرض الوجود. ومن بين الأسر الأندلسية (من المعماريين

الأندلسيين) التي اشتهرت ونشطت في مجال تطوير العمران وتشييد الإنجازات في الجزائر، أسرة موسى الأندلسي وعلي وإبراهيم موسى.(ريمون، 1991: 44).

هذه الأخيرة التي ساهمت في بناء الثكنات والبوابات ومختلف المنشآت العسكرية، خاصة وأن الظروف السائدة آنذاك تحتم الاعتناء بكل الإنجازات التي من شأنها الدفاع عن العباد والبلاد من غزو وهجومات الصليبيين. بالإضافة إلى التركيز على مد قنوات المياه لتأمين مياه الشرب وتوفيرها إلى مختلف الأحياء.(بوعزيز، ج2: 32).

كما تم تنظيم وتسخير الشبكات المائية للاستغلال الزراعي من جهة، وتلبية حاجيات السكان من جهة أخرى.وحينذاك برع الأندلسيون كثيرا في الأشغال المرتبطة بالفلاحة والري، بفضل استخدامهم لمهارات أدت إلى تطوير وزيادة مختلف المنتجات الفلاحية، استفادت منها معظم مدن المغرب الأوسط.

ومن أشهر مظاهر الشبكات المائية التي شيدت على أيدي الأندلسيين ساقية الحامة على يد أحد أهم المهندسين آنذاك (المهندس الأندلسي الأسطى موسى) الذي انتهمن تشييدها عام 1611م في عهد كوسه مصطفى باشا خلال حكمه الجزائر، وتحصل هذه القناة على المياه من منابع حماه، وبعد مسافة 4300 متر تدخل إلى المدينة من باب عزون، ويبلغ تدفق مياهها 9 لتر/ ثانية بصفة شبه ثابتة أي بمعدل 777 ألف و600 لتر يوميا وتغذى 29 سبيلا وعدة ثكنات.(ريمون، 1991: 79).

يعتبر مجال العمارة أهم مجال تفنن فيه الأندلسيون، "فقد تميزت أماكن تجمعاتهم بمدن وفحوص الجزائر والبليدة وشرشال والقليعة ودلس بطابع عمراني خاص، فاستعمل الأندلسيون القرميد بدل السطوح المستوية التي كانت شائعة قبل حلولهم بالجزائر، كما عرفوا أيضا باستعمالهم الزخارف والمجصصات والتفنن في تشكيلها و ترخيمها، ولعل أحسن صورة لرقي هذا الفن على يدهم نجدها ماثلة بمساجد الجزائر وتلمسان، مثل الجامع الكبير (530هـ-1136م) وجامع سيدي بلحسن (696هـ-1296م) وجامع العباد (739هـ-

1338م) هذه المساجد التي لا زالت محاريبها تشهد على تفوق المهندسين الأندلسيين في مجال فن الزخرفة والكتابة".(هلايلي، 2010: 86).

عرفت مدن الجزائر وجود تجمعات الجالية الأندلسية والتي تميزت عن غيرها من الجاليات، فكانت سقوف منازلهم مغطاة بالقرميد، وهو ما يعرف بالطابع الأندلسي الأصيل،أما مناظرها الخارجية فهي مطلية بمادة الجير،هذا النمط الذي طغى فيما بعد على كل الحواضر تقريبا، وعلى رأسها مدينة الجزائر التي اشتهرت به، حتى وصفها الأجانب ببلدالجير.

أما بالنسبة لدور العبادات فكان المسجد الجامع بتلمسان أول مباني المغرب الأوسط التي تجلت فيها التأثيرات الأندلسية. ويمكن القول إن مآذن جامع أغادير، وجامع الجزائر، ومسجد سيدي الحسن، وكلها تعود إلى العهد الزياني، ومئذنتي جامع سيدي أبي مدين وسيدي الحلوي، وكلتاهما ترجع إلى العهد المريني، تحمل جميعها الدليل الواضح على التأثيرات الأندلسية المختلفة التي تلقاها المغرب الأوسط.(بوطان، 2011: 298).

وعليه يمكن القول إن ملوك بنو زيان على الرغم من كثرة حروبهم ومخلفاتها الكارثية على المغرب الأوسط، كانوا حريصين على إنشاء القصور الكبيرة والمدارس، وإقامة المصانع والمنتزهات تخليدا لهم.وفضل الجالية الأندلسية على المغرب الأوسط كبير بما خلفته من تأثيرات ومساهمات في مختلف الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية، وبما جاءت به معها من صناعات وفنون وآداب مما هو معروف في تاريخ الحضارة الأندلسية الزاخرة ولا تزال أثارها ظاهرة في الحياة الاجتماعية والفنية بعواصم أقطار المغارب الثلاثة إلى اليوم.(الجيلالي، 1994، ج3: 56).

تزامن العهد العثماني وهجراتهم التي لم تنقطع عن مدن المغرب الأوسط، حين تمكن الأندلسيون من ترك بصماتهم.الذين أعادوا بناء المدن التي سبقت وجودهم دون المساس

بطابعها العربي الإسلامي، وظلوا محافظين على أغراضها الإدارية والعسكرية إلا ما تطلب من ترميمات طفيفة أدخلت عليها.(ريبوح، 2009: 23).

وفي الختام يمكن أن نشير أن التأثير الأندلسي بالمغرب الأوسط كان له لمسة حضارية واضحة مست جميع ميادين الحياة وعلى رأسها العمران،فالجالية الأندلسية ساهمت بقسط وافر وبشكل بارز في إعطاء المغرب الأوسط عامة نمطا أندلسيا مميزا،تمثل خاصة في الإتقان والجمال الذي ميز مُدنه، بعد أن استقروا فيه وأصبح وطنهم وبلادهم الثاني،إذ شيدوا فيه المدن والقُرى ودافعوا عنهبعدما فقدوا مدنهم في الأندلس، واندمجوا في مجتمعهم الجديد وطبعوه بطبائعهم وتقاليدهم المتميزة وأثروا فيه. مما كان له انعكاس إيجابي على المجال العمراني، وذلك بتشييدهم للمراكز الحضارية مدنية كانت أو عسكرية أو دينية والتي عكست مُستواهم وذوقهم الرفيع بعد امتزاج الطابع المحلي بالأندلسي، ما زالت مُعظم أثارهم شاهدة إلى يومنا، وبذلك عرف المغرب الأوسط نهضة عمرانية غير مسبوقة.

2. مساهمة مدن المغرب الأوسط في رصيد الحركة العلمية والفكرية

تعتبر المنشآت العمرانية لدى أي بلد بمثابة الشخصية التي تُمثل بصمة الماضي فيها، إذ "تتوفر الجزائر بماضيها الحافل ومستقبلها الواعد على ثروة ثمينة من الشواهد الأثرية والمفاخر العمرانية منها ما هو قديم، روماني وبيزنطي، ومنها ما يرجع للفترة الإسلامية ويعود في جُله إلى مآثر الحماديين والمرابطين والموحدين والمرينيين والحفصيين والزيانيين، وبعضها الأخر إلى العثماني وفترة الاحتلال الفرنسي".(عقاب، 2007: 9).

إن الحالة السياسية التي عرفها المغرب الأوسط قبل قدوم العثمانيين، تميزت بالفتن الداخلية والانقسامات والحروب التي دارت بين الإخوة المسلمين فيما بينهم، بالإضافة إلى الغزوات التي شنها الإسبان على معظم المراكز والمدن الساحلية، ومع كل هذه الأحداث لم تتأثر الحياة العلمية والفكرية، فبالنسبة للدولة الزيانية التي اشتهرت عاصمتها تلمسان كحاضرة كبيرة، والتي كانت منارة للعلم ومقصد للعلماء، ويعود ذلك بالدرجة الأولى إلى

الاهتمام الذي أولاه السلاطين والأمراء لفئة العلماء والمثقفين ابتداء من السلطان يغمراسن مؤسس الدولة الزيانية الذي عرف عنه تقربه وحُبه للفقهاء، فكانت تلمسان قبلة العلم والفقه، ودار العلماء يقصدها الطلبة والدارسون من مختلف بقاع الأرض لأجل تحصيل المعرفة في مختلف التخصصات.

إن الحياة الفكرية في القرن التاسع الهجري عرفت رواجا وانتشارا، فبلغت تلمسان عاصمة دولة بني زيان درجة عالية ومُشرفة بين الأمم آنذاك، التي كانت مركز إشعاع فكري وعلمي أنار شمال إفريقيا كله، كما ساهمت بقسط وافر في انتشار الثقافة والحضارة بصفة عامة، وهذا بعد أن تم تنظيم الإدارة وهيكلتها، مما كان سببا في استقرار أحوالها، فأحسن توزيع المهام والأدوار داخل الدولة، كما أطلق ملوكها على أنفسهم ألقاب (أمراء المؤمنين) بعدما أحاطوا الدولة بسياج من الأبهة والجلال. وتم تقسيم السلطة إلى ثلاث شُعب رئيسية ممثلة كما يلي:

الشُعبة العسكرية، ويتولاها صاحب السيف، والسُلطة الإدارية، ويتولاها صاحب القلم، وأخيرا السُلطة القضائية، ويتولاها قاضي القضاء.(المدني، 1956: 65).

فكان ترتيب البيت داخليا في الدولة الزيانية مهما، إذ مكّن من إصلاح وتحسين أحوال الفرد والمجتمع، وهذا ما أدى بدوره إلى المساهمة في استقرار وتنشيط الحياة الفكرية في البلاد.

لقد اهتم الحكام والملوك آنذاك بالعلم والعلماء الذين تلقوا كل العناية والرعاية، فكان الواقع الثقافي مغاير للواقع السياسي في المغرب الأوسط.ويثبت لنا ذلك بتوفر ووجود عدد المدارس والمساجد والزوايا بأهم مدن المغرب الأوسط، وفي ذلك نذكر بعض الإحصائيات التي حددت لنا عدد مدارس تلمسان في نهاية القرن التاسع الهجري كانت على الأقل خمس مدارس، وعدد مساجدها كان حوالي ستين مسجدا. فكانت بذلك تُضاهي العدد الموجود

بمدينتي قسنطينة وبجاية اللتين كانتا تحتويان على عدد من المدارس والمساجد القريب من ذلك.(سعد الله،1998، ج1: 45).

كما يجدر الذكر أن مدينة تلمسان تعد من المدن التي تغذت بالثقافة الإسلامية الأصيلة منذ الفتوحات، فتأثرت بمختلف التيارات الفكرية سواء الآتية من الأندلس أو من المشرق الإسلامي، إذ لعب موقعها الجغرافي الذي يتوسط بين بلاد الأندلس وشمال إفريقيا وجنوبها دورا بالغا، فهي تحتل موقعا وسطا في الاتصال بين الجهتين. فكان لها ماضي تاريخي هام اكتسبته من موقعها الجغرافي والطوبوغرافي الممتاز، ومن كونها كانت عاصمة للمغرب الأوسط أكثر من ثلاثة قرون، ازدهر خلالها الفكر، وأخصبت الحضارة، وتطور العمران، واستهوت العديد من رجالات الفكر والسياسة والثقافة، مما جعلها في الأخير مدينة الفن والثقافة والتاريخ.(بوعزيز، مجلة الأصالة، العدد 26: 3).

بلغ الجانب الثقافي والعلمي مراكز مهمة نتيجة الاهتمام الذي أولاه الملوك والحكام بهذا الجانب، الذين حرصوا على الاستثمار في بناء المعالم والإنجازات المعمارية التي خدمت العلم والثقافة والدين، والتي لا زالت بعض أثارها المادية شاهدة إلى يومنا هذا.يؤكد الدكتور سعد الله ذلك من خلال استشهاده أن إنتاج القرن التاسع الهجري اعتبره من أوفر إنتاج الجزائر الثقافي ومن أخصب عهودها بأسماء المثقفين والعلماء والمؤلفات. فكان عهد إنتاج ثقافي وفير، وبالمقابل كان عهد اضطراب وتدهور على المستوى السياسي.ذلك أن الحدود السياسية للجزائر في القرن التاسع لم تكن مضبوطة وثابتة.(سعد الله، 1998، ج1:39).

ويذكر الميلي أيضا أن اتساع ثروة بني زيان أفادت كثيرا، فقد كان آل زيان بعدما مُنوا به من الحروب جادين في إنشاء القصور الضخمة والمدارس الفخمة وإقامة المصانع والمتنزهات.(الميلي، ج2: 485).

وعليه يمكن القول أن مساهمة الحكام كانت كبيرة في تشييد المعالم والمنشآت ذات الطابع العلمي والتربوي، فكان لحرصهم واهتمامهم بتثقيف الأهالي والسكان كبير، فجعلوا الكتاتيب والمساجد بمثابة معاهد ومدارس لتعميم وتعلم العلم. إذ انحصر قطاع التعليم خلال العهد الزياني في مراحله الأولى على تعلم الكتابة والقراءة وحفظ القرآن الكريم. فمس التعليم جميع فئات المجتمع، وكان تأثيره بالغ الأهمية على الحياة الفكرية والعلمية للسكان، والتي مع مرور الوقت عرفت ازدياد في تشييد المنشآت المعمارية التعليمية المختلفة التي أصبحت مراكز علمية يقصدها الطلبة والعلماء من كل الجهات.

ومع تطرقنا إلى تلك النهضة الفكرية، لا يمكننا جهل دور الأندلسيين البارز فيها، بداية من استعمال الخط الأندلسي الذي كان يغلب على الرسائل، كما تأثر الملوك بالفن المعماري الأندلسي، خاصة بعد هجرتهم من إسبانيا جراء تفاقم الخطر المسيحي واستقرارهم بتلمسان، الذين اعتنوا وتفننوا في بناء المرافق والمنشآت الاجتماعية المختلفة التي لبت حاجيات المجتمع من المستشفيات والحمامات والفنادق والطرق والمياه، إضافة إلى تشييدهم للمساجد والمدارس والمنازل، فكان يوجد بتلمسان حوالي ست مدارس وستون مسجدا والعديد من الزوايا.(عمورة، 2002: 87).

لقد زاحمت العاصمة تلمسان كبريات المدن والحواضر آنذاك، كما زاحمت بجاية قبلها القاهرة وبغداد وقرطبة، واجتمع فيها من رجال الدين والعلم والأدب ما لم يجتمع مثله أبدا في قطر الجزائر، وجاءتها وفود العلم والشعر من كل جهات العالم الإسلامي. فامتازت واشتهرت هذه الدولة ببناء المدارس الفسيحة التي تعتبر من آيات الفن المعماري العربي.(المدني، 1956: 66).

وخلال القرن التاسع الهجري أيضا عرف ظهور عقيدة المُرابط وانتشار الزوايا وافتتاح عهد التصوف بالجزائر. وهذه الظاهرة هي التي سنجدها تزداد انتشارا وإغراقا في القرون الثلاثة اللاحقة للعهد العثماني. ولا شك أن وجود هذه الظاهرة كان يعود بالدرجة الأولى إلى

ضعف الدولة أمام الانحلال الداخلي والخطر الخارجي، وقد "أدت المبالغة في الاعتقاد في الشيخ وانتشار الزوايا والأضرحة إلى نتيجتين خطيرتين أولاهما تبسيط المعرفة وثانيتهما غلق باب الاجتهاد. ذلك أن نقل التعليم إلى الزوايا قد أدى إلى الاكتفاء بالحد الأدنى منه بطريقة جافة ريفية ضيقة. وأصبحت الزاوية بذلك تنافس المدرسة والجامع (الجامعة) في نشر التعليم وفي كسب الأنصار. وبدل أن يلتف الناس حول العلماء المتنورين في المدارس والمساجد أصبحوا يلتفون في زاوية حول شيخ أو مقدم تغلب على عقله الخرافة وعلى أحواله الزهد. وهكذا تدهور مستوى التعليم".(سعد الله، ج1:48).

و"علم التصوف ويعني العكوف على العبادة، والزهد فيما يقبل عليه الناس من متاع الدنيا، وليس بمعنى الرهبنة، والانقطاع عن الدنيا. وهي كلمة غير معروفة الأصل" (رباح، 2010: 278).

ويقول المؤرخ الفرنسي شارل أندري جوليان (1891-1991) عن الصوفية"أنهم أقاموا في أواخر القرن الثامن خلوات أخذوا يحاولون فيها، عن طريق امتحانات وتعبدات زائدة عن التعبدات المطلوبة، أن يصلوا من القيام بالفرائض الشرعية حسب النصوص إلى الحقيقة الربانية على مراحل نفسية".(جوليان، 1976:16).

لقد ازدهرت الحركة الصوفية بالمغرب الأوسط قبل مجيء العثمانيين، خاصة أن ذلك العصر عرف وتميز بانتشار الحركة على المستوى العالم الإسلامي والمغرب العربي، ففي الجزائر كثر عدد المرابطين وأهل الزهد ورجال التصوف، فنجد من ألمع أولئك عبد الرحمن الثعالبي ومحمد الهواري وإبراهيم التازي وأحمد بن عبد الله ومحمد بن يوسف السنوسي.(سعد الله، ج1: 459).

انتشرت ظاهرة التصوف في الجزائر بالمدن قبل الأرياف، بعدما كانت ظاهرة عامة في الأندلس وتونس وفاس ومصر أيضا، ما صاحبه ازدهار العلوم الدينية وتمكن العلماء من أمور الدين، وهكذا تكونت في الجزائر في القرن التاسع الهجري مجموعة من الزوايا منها

زاوية الثعالبي في مدينة الجزائر، وضريح محمد الهواري في وهران، والزاوية الملارية في قسنطينة وزاوية السنوسي بتلمسان وغيرها كثير.(سعد الله، ج1:363).

كانت الطُرق الصوفية ولا تزال أهم تعبير منظم للتعلق بالقيم الروحية في الإسلام،وكلمة (صوفية) أو التصوف مشتقة من اللفظة العربية صوفي أي لابس الصوف، ويعتقد أنها عائدة إلى الملابس الخشنة المصنوعة من الصوف التي كان يرتديها أوائل الزهاد المسلمين".(رونقن، 2007: 58).

ثم صار التصوف فيما بعد يدل على ممارسة التطهير، والتقشف، والابتعاد على مغريات الحياة الدنيا والتحلي بالأخلاق الفاضلة والفضائل، وتجنب المزالق، والقيام بالواجبات الشرعية من صلاة وصوم وحج، ومعرفة الله وشكره وحمده، والتضرع إليه في كل وقت، بالإضافة إلى الخلوة لممارسة العبادة والنشاط الروحي،وكل ذلك من أجل التسامي والوصول إلى درجة العليا في القربى إلى الله ونيل رضاه.(شهبي، 2007: 96-97).

كان تأثير الحركة الصوفية في المجتمع الزياني كبيرا، بعدما شملت الجانب السياسي بقيادتها للمقاومة ضد الاحتلال الأجنبي ومعارضتها للذين يتعاملون مع القوة الأجنبية، كما كان وقوفها إلى جانب الفئات المحرومة في الأرياف التي تتعرض إلى الاضطهاد من قبل القوى المتصارعة واستبداد شيوخ القبائل، حتى امتد تأثيرها إلى الجانب الثقافي.(حساني، 2009، ج2: 203).

مع نهاية القرن الخامس عشر ميلادي وبداية القرن السادس عشر تغيرت الأوضاع، حين عرفت الدولة الزيانية تدهور أحوالها نتيجة التفكك السياسي داخليا والغزو الصليبي خارجيا.إذ مع تدخل القوة الأجنبية المتمثلة في الإسبان المسيحيين واحتلالهم معظم أراضي الزيانيين، فقد مرت على الجزائر فترة في نهاية عصر بني زيان تعتبر من أشد الفترات الجزائرية ظلاما، واستمرت تلك الفترة حوالي قرن من الزمان، وهو القرن الذي سبق مجيء العثمانيين لها".(شبانة، 2008: 132).

إن الاحتلال الإسباني لأراضي الدولة الزيانية كانت له عواقب وخيمة على جميع نواحي الحياة، وعلى رأسها الجانب الثقافي الذي كان له تأثير مباشر على الحياة العلمية والفكرية، كان من أهم نتائجه هجرة العلماء خارج البلاد سواء إلى الشرق أو الغرب، هؤلاء الذين لم يقتصر تأثيرهم في أراضيهم فقط، بل امتد أيضا إلى أجزاء كبيرة من أراضي العالم الإسلامي، ومنها جهات السودان الغربي الذي له علاقة بالدولة الزيانية وهذا منذ عصرها الذهبي، حيث نجد العائلات العلمية بتلمسان وأهمها عائلة المقري التي اهتمت بالنشاط التجاري بين المنطقتين،والتي يرجع لها الفضل في نشر الثقافة الإسلامية بهذه المناطق النائية.(حساني، 2009، ج2: 195).

إن الأحوال السياسية المتدهورة والغير مُستقرة التي سادت دول المغرب الإسلامي عامة ودولة بني زيان خاصة، دفعت بعُلمائها إلى التفكير في الهجرات والانتقال إلى مدن وحواضر أكثر أمنا واستقرارا، كما ربط آخرون مصيرهم ببعض الأمراء والحكام، بينما انزوى بعضهم مفضلا عيشة الزهد والهروب من أدران الحياة. وقد خسرت الحياة الثقافية آنذاك الكثير من الأسماء التي لمعت وأنارت بعلمها وورعها وانتاجاتها الفكرية والمعرفية. من بينها هجرة عالم جليل هو أحمد بن يحى الونشريسي إلى فاس لأسباب سياسية. ونفس الأسباب حدثت للمفكر محمد بن عبد الكريم المغيلي في الهجرة من تلمسان أيضا إلى السودان القديم. وهناك عدد أخر من العلماء هاجروا إلى المشرق وتوفوا به أمثال أبي الفضل محمد المشدالي البجائي وأحمد بوعصيدة البجائي وأحمد بن يونس القسنطيني وأبي القاسم المعروف بابن سالم الوشتاتي القسنطيني أيضا وأبي زيان ناصر بن مزني البسكري، ومحمد بن أحمد المعروف بابن صعد التلمساني.(سعد الله، ج44:1).

اختار كثير من العلماء ورجال الفقه الهجرة والخروج من أرض المغرب الأوسط، خوفا على سلامتهم من الغدر والقتل الذي ميز ذلك العصر، بعدما تركوا أثارا وإسهامات كثيرة مست الحياة العلمية والثقافية والدينية للمغرب المغرب الأوسط، وأنارت المنطقة كلها.

وإلى جوار تلمسان عاصمة الدولة الزيانية كانت بجاية العاصمة العلمية للدولة الحفصية التي لعبت خلال هذا العهد دورا كبيرا في تاريخ البلاد الفكري والسياسي، فكانت عاصمة إسلامية وحاضرة علمية لا تقل شأنا عن عواصم العالم الإسلامي، خصوصا أنها نشأت على أيدي ملوك كانوا من كبار رجال العلم والمعرفة كأبي زكرياء وولده المستنصر بالله، فعمل مُؤسسوها منذ الوهلة الأولى على الاهتمام بالعلوم وترقيتها، فكانت الانطلاقة منذ البداية توحي لازدهار الثقافة وانتشار العلم ونموهما، خاصة بعدما تنوعت مصادر الدخل في دولة بني حفص والتي شملت الضرائب والزكاة والجزية والمصادرات والخراج، وانتعشت الزراعة وكثرت المحاصيل، ونشطت الصناعات، كما استخدم بنو حفص عملة خاصة بهم ليؤكدوا استقلالهم.(حسن، 1996: 109).

لقد ظهرت التآليف وانتشرت، وأحدثت ثورة ثقافية في جميع الميادين، حيث عرف هذا العصر بروز واستقرار علماء أجلاء وباحثين في مختلف العلوم والمعارف لازالت أثارهم وكتاباتهم محل عناية ودراسة إلى يومنا هذا، نذكر من بينهم حازم القرطاجني، وابن الأنبار الأندلسي وأحمد الغبريني وابن المطرف المخزومي وناصر الدين المشدالي وغيرهم. كما احتفظ التاريخ بأهم أثر لذلك العهد وهو كتاب "عنوان الدراية في ذكر من عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية" الذي كان من أنفس المصادر وأنفعها لتاريخ بجاية الثقافي.(البوعبدلي، مجلة الأصالة، العدد 19: 138).

كما كانت حاضرة بجاية أيضا محلا لزيارات عديدة ومتنوعة لشخصيات علمية ذاع صيتها في كل مكان، نذكر من بينهم عبد الرحمن بن خلدون والذي مكث فيها سنتين (766هـ-768هـ). وعبد الرحمن ابن مخلوف الثعالبي دفين الجزائر المتوفى سنة 875هـ، ومحمد بن عمر الهواري دفين وهران المتوفى سنة 843هـ، الذين أشادوا بالدور الذي لعبه حكام هذه المدينة في رعايتهم لطلاب العلم وسعيهم المتواصل في نشره. وأثر هذه المدينة عظيم في بث أنوار العلم والمعرفة، وهذا ما اتفق عليه المؤرخون حين اعتبروا أن عدد

العلماء بها يضاهي عدد علماء جامع الزيتونة بتونس.(المدني، مجلة الأصالة، العدد 20: 227).

هذا وقد عرف عمرانها اتساعا، وارتقت معالمها من مساجد وقصور ومدارس، التي كانت تعج بكبار العلماء والأعلام، ومن الأدباء والشعراء، ومن كبار الباحثين الضاربين في كل فن، ومن تجارة واسعة عريضة ربطتها مع أغلب بلاد البحر المتوسط".(المدني: 124).

حينذاك كانت الكتاتيب والمساجد بمثابة معاهد الإسلام العلمية، المنتشرة في المدن كما في الأرياف منارة للتعليم والتحصيل المعرفي، ويحدثنا التاريخ عن فخامة مكتبة الدولة الحفصية بما لم يعهد مثله يومئذ عند أي حكومة من الدول المعاصرة بالمغرب- ولاسيما في أوروبا- فإن عدد كتب المكتبة الدولية بلغ ست وثلاثين ألف مجلد، بينما كانت مكتبة باريس في مفتتح القرن الرابع عشر الميلادي لا تزيد على بضع عشرات من الكتب، ومثلها كذلك مكتبة " اوكسفورد" من بلاد الانكليز".(الجيلالي،1965، ج2: 48).

ومع أواخر القرن التاسع الهجري تدهورت الأحوال السياسية وضعف كيان الدولة الحفصية، وذلك بعد اندلاع ثورات الأعراب ورؤساء الإقطاع واستغلال بعض ملوك أوروبا الوضع، حين حصلوا على امتيازات لرعاياهم في البلاد على حساب السكان وأهل البلاد، فقويت شوكتهم وغلبوا مصالحهم، فكان من نتائج ذلك انتشار الظلم والفساد، مما أجبر العلماء على الهجرة والانتقال إلى مدن وحواضر أكثر أمنا واستقرارا على غرار قسنطينة وتونس وفاس وغيرها.

لقد ساهم علماء وفقهاء المغرب الأوسط سواء التابعين لدولة بني زيان أو الدولة الحفصية في الإنتاج المعرفي والعلمي بالجناح الغربي لأقاليم الدولة الإسلامية، وأضافوا في بناء صرح الحضارة الإسلامية ورصيد الحركة الفكرية والعلمية من جهة، ومن جهة أخرى،ساهمت الحواضر والمدن على غرار تلمسان وبجاية وغيرهما في رصيد الحركة

العلمية والفكرية والتي كانت مراكز إشعاع وتنوير نافست مدن كبيرة وعريقة، فكانت إسهاماتهما العلمية والحضارية تضاهي ما كان موجود بالمشرق والأندلس آنذاك.

3. التنظيم العمراني في المغرب الأوسط قبل العهد العثماني

إن الغرض من دراسة المدن والحواضر بالمغرب الأوسط خلال فترة ما قبل مجيء العثمانيين تفيدنا كثيرا في فهم ومعرفة أحوال السكان السياسية والاقتصادية والاجتماعية، لاسيما دراسة كل الخبرات والأنشطة المرتبطة بحياة السكان لتنوير معرفتنا وتقييم تجاربهم وتفسيرها. بالإضافة إلى تحديد وتفسير كل الظواهر والأحداث التي طرأت على حياة سكان تلك المدن، ما جعل أسماء المدن والقرى ترتبط بالأحداث والعوامل التي أثرت بشكل قوي على ذاكرة ذلك المكان.وعليه فإن حماية المدن القديمة من عوامل التشويه والاندثار باعتباره إرث حضاري هو في حد ذاته الاهتمام بماضي البلاد وإحياء تاريخها، كما أن المحافظة على مدن وحواضر الجزائر من الاندثار لا يكون إلا بالمحافظة على معالمها المعمارية المادية الباقية،وبذلك هو في حد ذاته الحفاظ على ماضي وتاريخ الجزائر.

لكن ماذا نعني بكلمة حاضرة ومدينة وكيف حددها وعرفها الباحثون والمؤرخون؟وفي هذا الشأن يقول الزبيدي أن المقصود بالحاضرة هي المدينة والبلدة العظيمة التي تجمع المنازل والأسواق.(الزبيدي، 1972، ج11: 40).

كما أن كلمة بلدة (Bourg) في الجغرافية المدينية حسب بيار جورج، تدل عادة على شكل أولي لتجمع سكاني مديني، في غرب ووسط فرنسا،و(البلدة) هي المكان الرئيسي للجماعة. ليس من الضروري أن تكون قرية كبيرة أو مركز تجاري مدني."(جورج، 2002: 123).

إن للمدن الإسلامية مميزات وخصائص تميزت بها عن غيرها من المدن خلال فترة ازدهارها، والتي نلمحها بالمشرق أو بالمغرب الإسلاميين، أهمها أن المسجد أو الجامع هو

نواة كل مدينة،إلى جانب إحاطة وقرب السوق منه، ثم وجود الأسوار التي تحيط بالمدن درءا للأخطار الخارجية التي تتشكل فيها البوابات الكبيرة والتي كانت من مهامها مراقبة وتنظيم حركة دخول وخروج السكان من وإلى المدن، هذا وعرفت المدن الإسلامية وتميزت بضيق الشوارع والأزقة بصفة عامة لحماية المارة والسكان من العوامل المناخية القاسية، خاصة أشعة الشمس الحارقة. وهذه الصفات هي نمط بناء المدن الإسلامية وتميزها عن باقي مدن الحضارات الأخرى. وبما أن المدينة الإسلامية هي وليدة الحضارة الإسلامية فهي تستند في تخطيطها إلى تعاليم السنة النبوية والفقه الإسلامي، "والمدينة الإسلامية في خطوطها العامة ليست إلا تطبيق لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم على شروط الواقع المحلي من جهة، وفي الإطار المرحلة الزمنية من جهة أخرى."(شاكر، 1988، ج1: 319).

أما مدن المغرب الأوسط، فهي جزء مكمل للمدن الإسلامية في نشوئها وتطورها وحتى مستقبلها، والتي شهدت توسعا وتطورا حضاريا واسعا عبر التاريخ. إذ أن التحضر الهام لهذه المدن كان دائما من السمات البارزة لمدن وحواضر البحر الأبيض المتوسط.وإلى جانب وجود المسجد والسوق اللذين هما أساسيين في تشييد كل مدينة إسلامية، هناك الأسوار التي تحيط بالمدن والحواضر، التي ميزت المدن الجزائرية منذ القديم، فإذا كانت المدن التلية الداخلية مثل قسنطينة وتلمسان ومعسكر وغيرها قد سورت (السور) من جهاتها الأربع، فإن مدينة الجزائر باعتبارها مدينة ساحلية بحرية، امتدت أسوارها على طول شريطها البري.(بلبراوات(2007-2008)،"مذكرة لنيل شهادة الدكتوراه، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران).

فإن كان بناء الأسوار حول المدن يُرجى منه توفير الأمن والأمان، فإنه في المقابل لا يفيد في توسع العمران داخلها، وهذا ما جعل السلطات الفرنسية الاستعمارية خلال احتلال الجزائر تردم البعض وتهدم الأخر لفتح المجال للبناء واستحداث الشوارع.

تعتبر الحواضر والمدن التي عمرت بالمغرب الأوسط آنذاك كثيرة ومختلفة في الأحجام وفي عدد السكان، منها ما استمر نموها وزادت شهرتها وبلغت من التطور والرقي فترات طويلة، ومنها ما انحصر إشعاعها ونموها، والمدن بصفة عامة تبدأ بالتكون والنشأة منذ ظهور أول بناية إلى أن تكبر وتصبح مدينة مترامية الأطراف. إلا أن نموها يزداد بازدياد وازدهار التجارة والزراعة شريان قيام المدن آنذاك، مما يساعد على الاستقرار والأمن، خاصةوأن أهل المغرب الأوسط قاموا منذ القديم بدور الوسطاء بين شعوب آسيا وإفريقيا وأوروبا في المجال التجاري.(عاشور، 1963: 23).

أما بالجهة الشرقية للمغرب الأوسط، فإن "الملاحظ على الدولة الحفصية بالجزائر أنها كانت قليلة الآثار والشواهد، والتي اقتصرت عنايتها العمرانية بعاصمة ملكها المتمثلة في تونس، دون بقية مملكتها المتسعة بالجزائر اللهم إلا شيء تافه يسير، كضيعة فرفار التي أحدثها السلطان أبو العباس أحمد الأول 772هـ-1370مبالزاب الغربي، وإلى جانب توسيع كل من قصبة قسنطينة وجامعها الكبير سنة 816هـ-1413م على عهد يحى المنتخب، وتأسيس مسجد واركله-وارجلان-(636هـ-1338م) بالجنوب الجزائري المرسوم على مأذنته اسم الأمير أبي زكرياء الأول فقط، ولا اعلم لهذه الدولة من آثار لها بالجزائر باقية غير هذه ولعل عذرها في ذلك هو انصراف الحكومة يومئذ إلى إخماد الفتن والثورات بالمغربين-الأوسط والأدنى-واشتغال ولاة الأمر بانقسام المملكة بين الجزائر وتونس واهتمامهم برد عادية المزاحمين لهم من بني مرين ومنافسيهم من بني زيان وشيوخ العرب ورؤساء القبائل البربرية...الخ، وأيا ما كان فإن فضل بني أبي حفص على فن المعمار لا ينكر."(الجيلالي، 1965، ج2: 43).

إن تحسن الأوضاع الاقتصادية لكل بلد هو أهم وأكبر مؤشر لقوته، وتبوءه لمكانة مرموقة بين الأمم في كل الأوقات، وعلى العموم عرف المغرب الأوسط أثناء القرنين الرابع عشر والخامس عشر فترة تقهقر اقتصادي نتيجة تخريب المدن والأرياف إثر تدمير النصارى لها، فلم تسثن أي مدينة أو حاضرة آنذاك إلا وطالها التخريب، فقد أصبحت بجاية كوما من

الأنقاض، وغدت دلس وهنين مجرد أنقاض، إلى أن تحسنت أوضاع البلاد الجزائرية طيلة القرن السادس عشر والنصف الأول من القرن السابع عشر، فكثر الإنتاج الفلاحي وتعددت المصنوعات المحلية ونشطت التجارة نتيجة قدوم المهاجرين الأندلسيين واستقرارهم بالبلاد. (سعيدوني والبوعبدلي، 1984: 49).

عرف المغرب الإسلامي نهاية القرن التاسع الهجري الانحطاط بعد الانقسامات التي شهدتها المنطقة، فدب الضعف والتدهور في دولة بني زيان بتلمسان، كما تدهورت أوضاع وأحوال الدولة الحفصية، وباتت المنطقة كلها تعيش في تشتت وانهيار، قابله الغزو والاحتلال الصليبي الذي لم يدخر جهدا ولا طاقة في سبيل تحقيق توسعاته بالسواحل الجنوبية للمتوسط، فإن كان فرديناند ملك إسبانيا قد أخرج العرب من غرناطة آخر قلعة بالأندلس، تلتها مرحلة نزول الإسبان بسواحل الجزائر وتونس وطرابلس، فرأى أن يستأنف الحروب الصليبية بتعقبهم في تلك السواحل، وأطمعه أنه لم يجد للدولة الزيانية ولا للدولة الحفصية أسطولا يحمي ثغورهما على البحر المتوسط.(ضيف، 1995: 43).

يعتبر الوضع السياسي مرآة عاكسة للأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في كل زمان، لا سيما حال المغرب الأوسط قبيل مجيء العثمانيين.

وعليه كان تأثير الأحوال السياسية بالمغرب الأوسط على الاقتصاد واضحا، فالنزاعات والحروب والانقسامات وعدم الاستقرار وغياب الأمن هي أهم الخصائص التي ميزت مدنه وحواضره، فتراجع نموها، ودخلت البلاد في مرحلة يمكن أن نسميها اليوم بالانكماش الاقتصادي والتي من أثارها ارتفاع معدلات العاطلين عن العمل، خاصة في الجانب الفلاحي وهو القطاع الأكثر استقطابا لليد العاملة آنذاك، أين عرفت عزوف السكان عن خدمتها والاكتفاء بتربية المواشي. ونظرا للأوضاع السيئة والظروف الصعبة، فقد دفع بكثير من الفلاحين إلى تفضيل الزراعة المؤقتة والرعي المتنقل لا سيما في المناطق التي انعدم فيها الأمن وأصبحت تعرف ببلاد البارود أو أرض الخلاء.(هلايلي، 2008: 156).

وزادت الأمور سوءا بعدما تأثرت التجارة الداخلية بالأوضاع السياسية، نتيجة الظروف السائدة، كما أن التجارة الخارجية وكل ما تعلق بالمبادلات التجارية ما بين الدول والمماليك خضعت هي الأخرى لتلك الأحوال من الاضطرابات، والتي تقلص حجمها نتيجة احتلال الإسبان لأهم الموانئ، سواء التابعين للدولة الزيانية أو الحفصية، باعتبارها منافذ إستراتيجية هامة ونقاط انطلاق نحو البلدان الأوروبية المطلة على البحر المتوسط، حيث كان يعتمد عليها في نقل المنتوجات والمصنوعات من وإلى المغرب الأوسط، فتوقف التجار عن مزاولة نشاطاتهم وفضلوا الهجرة واستثمار أموالهم في الأوطان والأماكن الأكثر استقرارا، بعدما شق التجار طريقهم إلى غرب أوروبا خاصة منذ أواخر القرن الحادي عشر، سالكين عدة منافذ أهمها إسبانيا، وصقلية مساهمين في ربط الاتصال الحضاري بين ضفتي البحر الأبيض المتوسط.(عاشور، 1963: 49).

تتماشى الأحوال الاقتصادية والاجتماعية مع التطورات السياسية الحاصلة ببلاد المغرب الأوسط وتتأثر بها، فإن ساد السلم والاستقرار عم الرخاء وعرف الاقتصاد الرقي والازدهار، وتوسعت المدن والحواضر بعد زيادة السكان الذي يقابله زيادة الاستثمارات من بيع وشراء وصنائع وحرف، وإن عمت الفوضى والحروب أدى إلى تدهور أحوال الناس وتناقص عددهم وعرفت المدن هي الأخرى التقلص والانحصار. بالرغم من أن المغرب الأوسط تمتع منذ القديم بمقومات عديدة (الطبيعية على الخصوص) جعلت منه منطقة منتعشة، لولا تلك الحروب والانقسامات والفتن، فهو يتمتع بسطح متنوع، جمع بين السهول الساحلية والوديان الداخلية، وسلسلة جبال الأطلس، فضلا عن تمتعه بمناخ وتربة خصبة صالحة للزراعة، بالإضافة إلى أن موقعه كان له دور كبير في تنشيط التجارة، باعتباره همزة الوصل بين المغربين الأدنى والأقصى، حيث تمتد شواطئه، وتكثر موانيه المطلة على البحر المتوسط، فضلا عن طرق التجارة المتعددة بجنوبه، والتي كانت تمر منها القوافل التجارية القادمة من جنوب الصحراء قاصدة الموانئ المطلة على البحر المتوسط، لتكمل رحلتها إلى أوروبا وغيرها من المناطق."(حسن، 1996: 106).

ذلك أن قوة الدولة السياسية والعسكرية مرتبطة ارتباطا وثيقا بالعامل الاقتصادي المحدد لمكانة وقوة كل أمة ودولة.والاقتصاد في المغرب الأوسط بصفة عامة آنذاك كان قائما على موردين أساسين وهما رقي الفلاحة وتنمية التجارة.

وكنتيجة لهذه الأحوال فإن المدن تتوسع وعدد السكان يزيد عندما تنتشر وتتعدد وتتوسع النشاطات الاقتصادية، ونرى ذلك من خلال تواجد مختلف الحرف بالشوارع والأسواق على غرار مدن الجزائر وقسنطينة وتلمسان وغيرها، وتتخصص حسب المهن والصنائع، فعرفت الشوارع بتسميات حسب اختصاصاتها، فوجدت شوارع للنحاسين، والفخارين، والحدادين وغيرها، فاشتهرت تلمسان بالمنسوجات، فوجد حينذاك قماش سمي بالتلمساني، إلى جانب المنتوجات النسيجية والتي تطورت على أيدي الأندلسيين الذين توارثوا الأساليب الفنية ذات الدقة والجمال والتي اعتمدت على المواد الأولية المتوفرة في البلاد بالدرجة الأولى. ولسعة الثروة اتسع نطاق المدينة وتزايد سكانها، حيث اتخذ الناس حولها القصور تحفها الحدائق تجري من تحتها الجداول. وفي هذا الشأن ذكر ليون الإفريقي أن تلمسان بلغت على عهد أبي تاشفين ستة عشر ألف منزل. كما ذكر غيره أن وهران كان بها أوائل القرن العاشر الهجري خمسمائة وألف حانوت وعشرة آلاف دار.(الميلي، ج2:484-485).

أما بالجهة الشرقية للمغرب الأوسط، فقد وجدت من الأسواق ما كانت قائمة ومتنوعة، ومن تجارة رائجة في أنواع الحبوب والتمور والماشية والصوف وغيرها، خاصة بمدن قسنطينة وبجاية وسطيف وميلة والقلعة وأرض الزاب، وكان يومئذ سير القوافل منتظما ما بين الجزائر والسودان، وكذلك توفر المنطقة على مرافئ أنعشت المواصلات بحرا ما بين المملكة الحفصية والولايات الايطالية كقطلونية وصقلية وجنوة، فإنه كان لهذه الدول الغربية معاهدات وعلاقات تجارية مع الجزائر وتونس وكان لها بهذه المدن المغربية مراكز هي بمثابة محطات ومستودعات لتبادل التجارة".(الجيلالي، 1965، ج2: 43).

وعموما فإن اقتصاد المغرب الأوسط كان في وضع حسن مما كان له تأثير مباشر على التنظيم العمراني نتيجة عدة عوامل ساهمت كلها لبلوغ هذه الدرجة، ومرد ذلك وجود واستغلال موانئ الشمال للتبادلات التجارية مع دول وممالك أوروبية أو وجود طرق تجارية نشطة عبر القوافل التي اتخذت جنوب الصحراء وجهتها، وأراضي خصبة أعطت أجود المنتوجات ما أدى إلى زيادة واستقرار السكان ونمو المدن بصفة عامة، إلى أن ساءت الأمور بعد الانقسامات والحروب والتي أدت إلى ظهور الخطر والاحتلال الصليبي للمنطقة.

وفي الختام يمكن اعتبار أن صورة المدن بالمغرب الأوسط،قد اكتملت بعدما توفرت عوامل وشروط نشأتها وتخطيطها على النمط الإسلامي المتمثل فيتمركز المدينة حول المسجد الجامع الذي تشيد حوله كل المنشآت الاقتصادية والثقافية والمدنية، بالإضافة إلى وجود الاستحكامات الحربية المختلفة لتوفير الأمن الذي هو عامل أساسي في استقطاب السكان على رأسهم التجار والعلماء والصناع والحرفيين من مختلف بقاع الأرض، ما يؤدي إلى زيادة واستقرار سكان المدن وتوسيعها وظهور مدن أخرى جديدة، إلى جانب وجود موانئ بمعظم المدن الساحلية بالشمال، ومحطات القوافل بمدن الجنوب، وكان هذا حال المغرب الأوسط الذي عرف قبل قدوم العثمانيين تشييد وبناء العمائر خلال فترات الهدوء التي كانت تسود المنطقة بين الحين والأخر، خاصة في عهد الحكام والملوك الذين أرادوا تخليد منشآتهم وإنجازاتهم وتوريثها لأحفادهم لأجل استمرار ملكهم.

الفصل الثاني

الفصل الثاني: التأثيرات العمرانية العثمانية على مدن الجزائر

المبحث الأول: العمارة العثمانية، نمط جديد أو أسلوب متجدد

1: الخصائص العامة للعمران العثماني

2: تأثير العمارة العثمانية على الجزائر

3: مميزات بناء المدن في الجزائر العثمانية

المبحث الثاني : التنظيم السياسي والإداري للجزائر خلال العهد العثماني

1: من جزائر بني مزغنة إلى دار السلطان

– نبذة تاريخية عن عمران مدينة الجزائر

2: بايلك الشرق

قسنطينة وأهميتها العمرانية

3: بايلك الغرب

وهران عاصمة بايلك الغرب

4: بايلك التيطري

لمحة تعريفية عن مدينة المدية

المبحث الثالث: المظاهر العمرانية لمدن الجزائر العثمانية

المبحث الأول: العمارة العثمانية، نمط جديد أو أسلوب متجدد

1: الخصائص العامة للعمران العثماني

تشكلت المجتمعات الأولى بعد استقرار الإنسان حول أماكن توفر المياه بالقرب من الوديان والأنهار، أين وُجد المناخ المناسب لزراعة مختلف المحاصيل لضمان غذاءه وبالتالي بقاءه واستمراره، ومن ثم ظهرت فكرة أولى تجمعات الناس التي أدت إلى ظهور القرى والمدن فيما بعد. إذ يعتبر الاستقرار أهم شروط تكوين الحضارات وازدهارها.

سعى الإنسان منذ أن خُلق إلى العمل على التكيف مع محيطه البيئي، حتى تمكن من بناء مسكنه ثم طوره لأجل التغلب على تقلبات المناخ وأخطار الطبيعة، ومع ازدياد أعداد السكان كانت الحاجة أكبر إلى إنشاء التجمعات السكانية والتوسعات العمرانية التي عرفت مع مرور الزمن تطورات وخصائص ميزت كل حضارة عن الأخرى.

ومن بين أهم العمائر التي ظهرت في العالم العمارة الإسلامية التي تميزت بمجموع المنشآت والمباني التي وجدت بعد الفتوحات في كل الأقطار الإسلامية، والتي كان المسجد فيها ولا يزال المركز الروحي لها، هذا الأخير الذي يقع في وسط المدينة ونواة تخطيطها، ويمثل أكبر وحدة معمارية داخلها.

إن للعمارة الإسلامية خصائص بنائية تميز بها المسلمون عن غيرهم، وكونوا لهم هوية مستمدة من الدين الإسلامي. فالطراز الإسلامي متميز، وله خصائص في عناصره الأساسية لا توجد في الطرز الأخرى، هذه العناصر نراها بصورة واضحة في القصور القديمة أو المساجد على اختلاف أنواعها، وهي مجتمعة بعد أن اكتملت في ترابط واتزان حتى وصلت إلى ما نراه اليوم، ومن العوامل التي ساعدت على تطور المساجد توفر البنائين المهرة في الأقطار التي فتحها الإسلام.(نظيف، 1989: 34).

أما العمران العثماني فقد انبثق من العمران الإسلامي ويمثل جزءا منه، والذي أضاف الكثير للعمارة الإسلامية، ترك بصماته على النسق العمراني في جميع أرجاء الدولة العثمانية

أينما حلت، وذلك بإدماج أنماط معمارية جديدة وأساليب تنظيمية جديدة للمدن والمراكز العمرانية، خاصة ما تعلق منها بالبناءات الدينية والحربية من مساجد وحصون وغيرهما. اتسمت بولوج عهد حضاري ومعماري جديد يعكس مستوى الازدهار والرقي الذي بلغه الذوق الرفيع للمهندسين والمعماريين العثمانيين.

"وبطبيعة الحال لم يتكون الفن التركي ويزدهر بمعزل عن الفن الإسلامي العام. فحين دخل الأتراك عاصمتهم الجديدة كانوا يحملون معهم فنا إسلاميا خاصا بهم تطور في الأناضول من الفنون الإسلامية السابقة. ومن جهة أخرى اشترك في تشكيل الفن التركي الجديد كثير من أرباب الحرف والفنانين الذين استقدمهم السلاطين الأتراك من المدن الإسلامية الأخرى مثل القاهرة ودمشق وتبريز. ومن المعروف أن عددا من المهندسين المسلمين الذين نشئوا في بعض البلاد الإسلامية خارج تركيا قد أشرفوا على تشييد العمائر التركية. وإذا تأملنا منتجات الفن التركي أمكننا أن نلاحظ العناصر المختلفة التي استمدها من الفن الإسلامي ولاسيما في إيران ومصر".(الباشا، 1999،المجلد1:179).

ازدهر الطراز العثماني وعلى رأسها العمائر الدينية بعد تأثره بالطراز السلجوقي الإسلامي في آسيا الصغرى.وللعمارة العثمانية سنوات للتقدم والارتقاء والتي تمثلت خاصة بعد فتح استانبول أي ابتداء من النصف الثاني من القرن الخامس عشر، حين عرفت هذه الأخيرة أوجها بعد أن برز فنانون ومهندسون أكفاء ومهرة لقوا كل الدعم والتشجيع من قبل السلاطين. وبذلك رسخت السلطنة وجودها في ثلاث قارات، وشرعت في صنع توليفة من التقاليد الإسلامية والتركية والأوروبية لصياغة أسلوب عثماني تختص به في الفنون الجميلة. ومع فتح استانبول وإقامة سراي طوب قابي تكون الدولة العثمانية قد تحولت إلى إمبراطورية متكاملة الأركان، وقد أقام ذلك القصر السلطان محمد الثاني عام 1468م، الذي يمثل مجموعة معمارية لا نظير لها، تلبي الاحتياجات الرسمية والخاصة على السواء، وبلغت العمارة العثمانية ذروتها مع عبقرية المعمار سنان باشا، فقد استخدم قبة مركزية تأخذ في الاتساع مع أنصاف القباب، نصفين أو ثلاثة أو أربعة، وجرب مخططات متعددة لتشييد

أكبر القباب وأعلاها في التاريخ. فقد كان سنان باشا معمارا عثمانيا بالمعنى الحقيقي، إذ استطاع على امتداد حياته المهنية الطويلة منذ عام 1530م حتى عام 1588م أن يُشيد عمائر مختلفة تزيد على ثلاثمائة في شتى أنحاء السلطنة، منها الجوامع والجسور وغيرها."(أوغلى، 1999: 702-703).

يُعتبر المهندس سنان باشا أحد أشهر المعماريين في السلطنة العثمانية والذي كان نصراني الديانة ثم أسلم وعمره 23 عاما، و"اشترك في الحملات العثمانية والفتوحات في المشرق والمغرب، واطلع على كثير من الطرز والأعمال المعمارية التي جذبت انتباهه في تبريز وحلب وبغداد ودول أوروبا. وعندما عاد إلى استانبول تولى منصب كبير المعماريين، وأصبح المسئول عن إقامة الأعمال المعمارية من قصور وجوامع ومدارس ومطاعم وحمامات وأضرحة، وكثرت أعماله المعمارية والفنية مُوزعة في مختلف أرجاء الدولة العثمانية.وتشهد أعماله بالأصالة ويسودها المعرفة العميقة والتكنيك الهندسي، وفهمه الكبير للفن، ورقة ذوقه، وقد مكنه كل ذلك من إضافة أشكال جديدة للفن المعماري. وتوفي سنان باشا سنة1588م وعمره يقارب المائة عام، بعدما عاصر خمسة من السلاطين العثمانيين."(عبد الباري: 131-132).

كان هذا الرجل أعلم الناس وأكثرهم خبرة في مجال العمران، وتاريخه حافل بالانجازات التي خلدت اسمه عبر التاريخ البشري، ونال شهرة واسعة، ذلك المهندس المعماري الذي أوجد الوفاق في الفن المعماري الذي يعد من مفاخر الفن الإسلامي خلال القرون الأخيرة.(مارسيه، 2016: 306).

ومن "روائع عمارته السليمانية ومسجد بايزيد الثاني ومسجد فاتح ومسجد شهرزاد في استانبول".(البهنسي، 1987: 189).

لقد تأثرت العمارة العثمانية الإسلامية منذ فتح القسطنطينية بمؤثرات أوروبية، ابتداء من الطراز البيزنطي ممثلا في كنيسة آيا صوفيا بقبتها العظيمة وانتهاء بطراز عصر النهضة الحديث (الباروك) الذي تميز بالمبالغة في تكثيف العناصر المعمارية والزخرفية، ولقد ظهر أثر آيا صوفيا في عمارة المساجد العثمانية، حيث أصبح الطراز العثماني منها يعني بباسطة: المسجد ذا القبة المركزية والقاعدة المربعة، مما يعني بيت الصلاة المقفل الذي يناسب البلاد الباردة، حيث أصبح الصحن المكشوف كيانا قائما بذاته خارج المُصلى في شكل فناء مجاور أو حديقة محيطة."(عاشور، 1996: 555).

تعتبر آيا صوفيا صرحا معماريا دينيا مذهلا ومعلما كبيرا في استانبول، وهي تمثل قمة الفن المعماري البيزنطي، كانت سابقا تعرف بكنيسة الحكمة المقدسة، إذ وُجدت كنيستان سابقتان في موقعها قبل أن تبنى بشكلها الحالي، بنى الكنيسة الأولى قسطنطين الأكبر وبقيت قائمة حتى سنة 404م، حين اجتاحها حريق كبير، ثم بنيت كنيسة ثانية في المكان نفسه في سنة 415م. ولكنها احترقت أثناء ثورة 532م، وأخيرا بُنيت كنيسة ثالثة على يد جوستينيان الأول في نفس الموقع وهي المبنى الذي نراه اليوم.(أفندي، 22:2005).

وبدون أي مبالغة فهي أعظم كنيسة في الدولة البيزنطية المسيحية إلى غاية عام 1453م، تاريخ سقوط القسطنطينية على يد السلطان العثماني محمد الفاتح والذي جعل منها مسجدا وجامعا إسلاميا يرمز إلى قوة الدولة العثمانية في أوروبا والعالم كله. وأصبحت مدينة استانبول منذ ذلك الحين مركزا ثقافيا مشعا بعمائرها وفنونها التي تجسد عظمة السلاطين العثمانيين وقدراتهم، فانتشرت فنونها في كل اتجاه، وتركت أثرها على الحواضر العربية في غرب أسيا وشمال إفريقيا، كما كانت الفنون العثمانية ذات أثر على أوروبا وأسيا، فقد كانت فنون الزخرفة العثمانية قد عرفت على النطاق الشعبي منذ مطلع القرن السادس عشر في أوروبا حتى ولع الناس بها، ولاسيما في القرن التاسع عشر، فكانوا يستنسخونها في فرنسا وانجلترا وألمانيا وإيطاليا والنمسا وروسيا.(أوغلى، 735:1999).

يعتبر عهد السلطان العثماني محمد الفاتح المؤسس الحقيقي للدولة، خاصة بعد ما تمكن من فتح أعظم المدن البيزنطية (القسطنطينية). ونقل العاصمة إليها، وزادت توسعات السلطنة في عهده، وتم التوسع في مساحات شاسعة من أراضي أوروبا، كما كثرت العمائر

على نحو كبير، خاصة بعد قدوم مختلف الجاليات وتعايش أهم ديانات العالم من مسلمين ومسيحيين ويهود، مما خلف عمائر عديدة ومتنوعة.

"ومن أعمال هذا السلطان أنه عُرف بغرامه في بناء المساجد، والمعاهد، والقصور، والمستشفيات، والخانات، والحمامات، والأسواق الكبيرة، والحدائق العامة، وأدخل المياه إلى المدينة بواسطة قناطر خاصة، وشجع الوزراء، وكبار رجال الدولة، والأغنياء، والأعيان على تشييد المباني، وإنشاء الدكاكين، والحمامات، وغيرها من المباني التي تعطي المدن بهاء ورونقا. واهتم بالعاصمة إستانبول اهتماما خاصا، وكان حريصا على أن يجعلها أجمل عواصم العالم، وحاضرة العلوم، والفنون. وكثر العمران في عهد الفاتح، وانتشر، واهتم بدور الشفاء أيضا."(الصلابي، 130:2001).

ومما لا شك فيه أن المجمعات والمنشآت المعمارية الأخرى التي شيدت لأجل السلاطين وأفراد العائلة المالكة والصدور العظام هي أبلغ الأمور دلالة على مدى النجاح الذي تحقق في ذلك العهد في مجال الفنون.(أوغلى، 1999:714).

وفي الختام يمكن أن نستخلص على أن العمارة العثمانية كانت مكملة للعمارة الإسلامية وإحدى أهم حلقاتها، التي بلغت الذروة بعد فتح القسطنطينية، كما أن استلهامها من العمارة السلجوقية فيما سبق، والتي بدورها تأثرت بالعمارة الفارسية والبيزنطية، كان له كبير الأثر على عمران الدول التي كانت تابعة للدولة العثمانية. وبذلك فهذه العمارة تستمد نموها وتطورها من خليط لأحسن وأشهر الحضارات القديمة، وهذا ما جعل تأثيرها يبلغ أرجاء العالم آنذاك. ولازال النمط العمراني العثماني شاهدا خاصة ما تعلق بالمنشآت الدينية والحربية.

2.تأثيرات العمارة العثمانية على الجزائر

إن النشاط المعماري بالجزائر قبل قدوم العثمانيين قد تميز بقلة المنشآت وضعفها نتيجة انعدام الاستقرار السياسي والاقتصادي،وذلك بسبب الصراعات والفتن الداخلية والأخطار الخارجية، وانشغال الأمراء والحكام بأنفسهم ومصالحهم الخاصة على حساب مصالح شعوبهم وبناء الإنجازات المعمارية والأعمال الحضارية في بلادهم.

ومع دخول المغرب الأوسط تحت الحماية العثمانية، عرف قدوم أفراد وجماعات من فنانين وحرفيين وصناع من مختلف الجنسيات، قاموا بأعمال وبناءات مختلفة، واستحدثوا العمائر متأثرين بالعمائر العثمانية بالمشرق. فالتأثيرات العمرانية العثمانية انتقلت إلى إيالات وولايات شمال إفريقيا وعلى رأسها الجزائر، وكان الهدف الأسمى من ذلك هو تأكيد الحضور والسيادة العثمانية على الولايات التابعة لها.

إن أحوال مدن المغرب الأوسط شبيهة بأحوال المدن العربية قبل مجيء العثمانيين، فالمدن العراقية لم تسترجع قواها إطلاقا بعد الكارثة التي تمثلت في الغزو المغولي، ويقول المؤرخ المصري المقريزي في القرن 15 "بغداد قد تهدمت. لم يعد هناك جامع ولا سوق. غالبية قنواتها قد جفت ومن الصعب تسميتها مدينة. وفي مصر وسورية أيضا كان القرن الأخير من الدولة المملوكية فترة انتكاس حضري. وبالنسبة لدمشق فقد ذكر سوفاجيه أن قوات تيمورلنك قد نهبت المدينة في عام 1400م ثم عانت من الأزمة الاقتصادية التي شهدتها الدولة المملوكية. وأضاف بأن السلطان سليم لم يحتل في عام 1516م سوى مدينة أكثر من نصفها أطلال. وفي شمال إفريقيا أدى تفسخ دول المغرب الوسطى والشرقية إلى تشجيع المغامرات الاستعمارية الاسبانية والبرتغالية، الأمر الذي دفع الجزائر إلى اللجوء للأتراك لحمايتها منها. وفيما يتعلق بتونس، فإن القرن الحفصي الأخير كان يمثل مأساة طويلة الأمد.(ريمون، 1991: 34-35).

بصفة عامة كانت هذه أحوال الدول والمماليك الإسلامية قبل انضوائها تحت راية العثمانيين، فالضعف الذي ساد المجتمعات الإسلامية مس جميع نشاطات الحياة، وعلى رأسها العمارة التي بقيت على حالها ولم تعرف النمو والتطور.

"تجدر الإشارة إلى فترة من الانحطاط العام الذي سبق الفتح العثماني، وكان لا بد من أن تتبع تلك الفترة بمرحلة من الترميم والإصلاح والإنعاش، وذلك في وقت حلت فيه دولة منيعة مكان دول منهمكة مثل دول الحفصيين والمماليك. فمدن يصفها المؤرخون بأنها كانت خرابا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر.(مثل بغداد بعد الغزو المغولي، ودمشق بعد تيمورلنك..) لا نستغرب انتعاشها من جديد بعد أن فقدت مقومات الازدهار طيلة ذلك الوقت."(ريمون، 1991: 15).

وبالرغم من الحروب والانقسامات التي عرفها المغرب الأوسط قبل مجيء العثمانيين، فإن المدن كانت موجودة وقائمة ولكن ليس بالحجم الذي عرفته بعد قدومهم،فكان عهدهم عهد استمرار لما وجد، وازدادت المنشآت ذات الطابع العثماني وتنوعت،"فكان فن العمارة في مقدمة الفنون الأخرى وتبلور هذا الفن في بناء المساجد، ففي مدينة الجزائر وحدها بني أكثر من مائة مسجد تتنافس في الروعة والإبداع، ومن أهمها مسجد علي بتشين ومسجد كتشاوة ومسجد الخوخة...وبعض هذه المساجد حولها الاستعمار الفرنسي إلى دور عبادة أخرى، لفرط إعجاب الفرنسيين بها." (الجزائري: 27).

شهد النسق العمراني بالجزائر في تلك الفترة تحولات كبرى بعدما أدخل العثمانيون أساليب وأنماط معمارية جديدة، تعكس ذوق المهندسين والمعماريين العثمانيين مساهمين في ترك بصماتهم في عديد المراكز العمرانية في كل جهات الجزائر، "ومن مميزات العمارة المحلية التي تعود للفترة العثمانية استعمال الأعمدة على نطاق واسع، فبالإضافة إلى الناحية المعمارية حيث تعتبر من وسائل الدعم الأساسية، فقد استعملت بهدف زخرفي جمالي."(خلاصي، 2007، ج2: 106).

وعموما "عرف فن العمارة تقدما ملحوظا،خاصة بمدن تلمسان وقسنطينة والجزائر، وقد تقدم فن تزيين البيوت من الداخل (الديكور) وظهر فيه الذوق المحلي، وكانت الجزائر تستورد الرخام من إيطاليا كما كانت تستورد الفسيفساء من تونس وإسبانيا وإيطاليا أيضا. وامتاز قصر مصطفى باشا بأعمال الزينة المستوردة من هولندا".(سعد الله، 1982:170).

إن المخلفات المعمارية العثمانية في الجزائر كانت نتيجة امتزاج النمط العثماني بالنمط المحلي والأندلسي، بعدما تزامن الوجود العثماني مع هجرات الجالية الأندلسية إلى المغرب الأوسط بداية من القرن السادس عشر ميلادي، خاصة بعد سقوط غرناطة، فمجموع هذه الأنماط ساهمت في الإبداع والتطور الذي عرفه عمران الجزائر. وبصفة عامة تمثل المباني الجزائرية عموما وبمدينة الجزائر خصوصا رصيدا تاريخيا وحضريا هاما، والذي يجسد أهم مظاهر الحياة العمرانية خلال العهد العثماني.

"وخلافا لما يزعمه بعض المؤرخين المغرضين الذين يذهبون إلى الزعم بأن التدهور الاجتماعي والاقتصادي بلغ درجة قضت على وجود المدن، فإن الجزائر في العهد التركي كانت تشتمل على عدة مدن هامة.وقد كانت المدن الكبيرة محور نشاط كبير وحياة اجتماعية هامة، ففي مدينة الجزائر كانت توجد عدة مطاعم وفنادق ومقاهي...الخ."(الميلي، 1964، ج3: 315).

شهدت الجزائر تطوير أساليب وتقنيات البناء، حيث ساعدت هذه الطرق على بناء قوي ومستدام. خاصة وأن البناء هو مسؤولية ويجب مراعاة كل الظروف لأجل بناء دائم ذو جودة وصلابة واستمرارية. وهي تقنيات أدخلت على العمارة الجزائرية.وقد "روعي في طريقة البناء الجانب النفسي والصحي للسكان بصفة خاصة، فبالرغم من أن طريقة البناء كانت ثابتة وموحدة في جميع مباني القصبة بمدينة الجزائر. إضافة إلى هذا أنشئت العمائر بطريقة مضادة للعوامل الطبيعة المؤثرة من زلازل وتسرب لمياه الأمطار، تمثلت في استعمال الأقواس الداعمة بالجدران، وربط هذه الأخيرة بواسطة قطع من الخشب شديد الصلابة

والمقاومة، مثل خشب العرعر وخشب الطقسوس، واستعمال الحجر في ربط الزوايا وبناء الأسس."(خلاصي، 2007، ج2: 161).

وتأكيدا لنجاح الأساليب والتقنيات المستعملة آنذاك، فإن المنازل بالمدن الإسلامية كالقاهرة والجزائر تميزت بالتناسق في الترتيب الداخلي مما أضاف الراحة على الطابع العام.(مارسيه، 2016: 306).

تطورت عمارة المساجد في الجزائر والتي كان جمالها يضاهي جمال المساجد المشيدة في المدن العثمانية بالأناضول وغيرها، من حيث الأشكال والأنماط، وعلى سبيل المثال "ظهرت التأثيرات التركية في تغطية مسجد الداي، وفي المآذن المثمنة واستعمال الأكشاك وفي تكسية الجدران بقطع الزليج، وخاصة في استخدام الزخارف الرمزية التي طبعت العمائر بتركيا ومختلف المقاطعات التي كانت تابعة لها، ونرجح هذا الارتباط المباشر مع تركيا من جهة وإلى العدد الكبير من الرجال الذين كانوا يلتحقون بأوجاق الجزائر، إضافة إلى الخدمة العسكرية، كانوا يقومون بأعمال حرة منها حرفة البناء".(خلاصي،2007،ج2:160).

وبما أن المساجد هي جزء لا يتجزأ من العمارة في الجزائر، ومما لا شك فيه أن الحكام العثمانيين آنذاك تنافسوا وساهموا في إثراءها زخرفيا ومعماريا، فقد "خلف العثمانيون تراثا معماريا هائلا في الجزائر، يروي (هايدو) أنه في سنة 1581م بلغ عدد مساجد الجزائر لوحدها مائة مسجد، وفي سنة 1830م قدر (جورج مارسيه) عدد المساجد بمائة واثنين وعشرين مسجدا بما فيها ثلاثة عشر مسجدا جامعا، ومن البديهي أن كل هذه المساجد كانت تحتوي على مآذن متنوعة الأشكال."(عزوق، 2006: 90).

"إذا كان الدافع السياسي واضحا في عمائر القرن السادس عشر، أي في الفترة التي كانت الدولة العثمانية تؤسس أركانها وترسخ أقدامها فإنه من البادي أن القصد السياسي يكمن أيضا في عمائر الفترة اللاحقة، وغالبا ما يمكننا تفسير دلالاتها على أساس أنها نوع من إظهار الولاء إلى الدولة المركزية من جانب الولاة الذين يتمتعون بالاستقلال الذاتي تقريبا. فالجامع الجديد في الجزائر أقيم في سنة 1660م بأمر من الأوجاق لصالح المذهب الحنفي بعد فترة وجيزة من تمرد 1659م الذي استطاع العسكر أثناء تجريد الباشا من جميع

سلطانه لذلك فإن بناء مسجد على الطراز "السلطاني" يمكن اعتباره نوعا من التأكيد على السيادة العثمانية على الجزائر."(ريمون، 1991: 125).

كانت مدينة الجزائر أولى المحطات التي "لمس فيها تواجد التأثيرات العثمانية في نواحي أخرى للحياة الثقافية، فمع توسع ثروة القرصنة أصبح من الشائع العمل على بناء بيوت في المدينة على النمط التركي بقاعة انتظار واسعة عند المدخل، تؤدي إلى فناء مركزي مع أروقة على طول كل من الجانبين تنتهي إلى حجرات داخلية صغيرة.(سبنسر، 2006: 110).

وأهم عصر جسد نمو العمران في الجزائر خلال العهد العثماني هو مرحلة البايلربايات الذي "عاصر فترة السلاطين العظام وعصر القوة العثمانية، والملاحظ خلال هذه الفترة توطيد الحكم العثماني في الجزائر ووضع أسسه التي سوف يرتكز عليها طوال تواجدهم بالجزائر".(هلايلي، 2008: 130).

وعليه فإن"عصر الباي لارباي (أمير الأمراء)يمثل أزهى عصور الحكم التركي، حيث ازدهرت البلاد في هذه الفترة من النواحي التعليمية والاقتصادية والعمرانية، وذلك بفضل التعاون بين فئة الرياس في القيادة وأبناء الجزائر،وقد ساهم في تنمية البلاد وازدهارها مهاجروا الأندلس الذين وظفوا خبراتهم ومهاراتهم في ترقية المهن والبناء العمراني وتقوية الاقتصاد الجزائري."(بوحوش، 1997: 161).

ومن الملاحظ بوجه عام أن تأثير العمارة التركية لم يقف عند حد سورية التي كانت أكثر تأثرا بها، بل امتد إلى مدن شمال إفريقيا حيث شيدت في الجزائر وتونس و ليبيا مساجد تستمد طرازها من المساجد التركية في اسطنبول والأناضول.(الباشا، 1999: 76)

وبصفة عامة فإن المنشآت العمرانية والمدنية العثمانية في الجزائر كانت قليلة حسب الدكتور سعد الله، وتبرير ذلك "أن الشعراء قد مجدوا المؤسسات التي أقامها بعض الولاة، ويدل ذلك على أن الشعر كان مستعدا لتنويه بالعاملين لنشر العلم والعمران، ولكن الولاة العثمانيين كانوا بعيدين عن ذلك، فقد عرفنا أن همهم الرئيسي كان المحافظة على السلطة

بأي ثمن والاستثراء بكل الطرق، والمحافظة على بقاء عنصرهم بكل السبل، وقد حظيت المنشآت التي أقامها محمد الكبير وصالح باي خصوصا بتنويه الشعراء، فالمدارس والمساجد ونحوها اعتبرها الشعراء دليلا على اهتمام الولاة بالشعب والصالح العام."(سعد الله، 1998: ج2، 282).

ورُبما أن العثمانيين حسب الدكتور التميمي كانوا قد "تبنوا العديد من جماليات الهندسة المعمارية المحلية في محاولة منهم لجعل العرب أكثر أريحية في التعامل معهم".(التميمي، 1994: 16).

إن التأثيرات العمرانية العثمانية على الجزائر كانت واضحة وبارزة في معظم الجهات، من خلال تشييد معظم القصبات بالمدن، بالإضافة إلى بناء المجمعات السكانية بما فيها المراكز الدينية والعلمية،وبصفة عامة إنشاء الحواضر لإيواء العثمانيين والأندلسيين الذين وفدوا إلى الجزائر في فترات متقاربة خاصة بالجهة الشمالية والساحلية للبلاد.

كما عرفت البناءات الحربية والدينية على الخصوص درجة كبيرة من الازدهار والنمو نتيجة الظروف السائدة آنذاك والمتمثلة في الغزو المتكرر للصليبيين،ولعل أهم ما يمكن ملاحظته على الحضور العثماني بمنطقة شمال إفريقيا عامة والجزائر خاصة هو استعمال عنصر الهلال كعنصر زخرفي في تزيين العمائر بصفة عامة. وهذا العنصر الزخرفي تكررت صوره في أعمال كثيرة، ورسومات مختلفة، ارتبطت دلالاته بمعاني روحية في الحضارة الإسلامية، وأهم مكان شغله عنصر الهلال في المنشآت التي شيدت بالجزائر خلال هذا العهد هو زخرفته في الأبواب الرخامية والحجرية والخشبية الخارجية والداخلية. ومن الأسباب الجوهرية في احتلال الهلال مكانة في الفن الإسلامي يرجع إلى سببين رئيسيين هما:

-أن التوقيت الإسلامي يعتمد على الأشهر القمرية.

-أن الهلال عندما يظهر في أول الشهر العربي ينير الأرض مبددا الظلام الذي سادها عندما كان القمر في المحاق، وقد يكون استعماله تعبيرا عن ظهور الإسلام الذي بدد ظلمات الجاهلية وحطم الشرك بالله، ووجود الهلال في مبنى ذي أهمية إسلامية عظيمة مثل قبة الصخرة يجعله يصبح ضمن المفهوم العام للإسلام.(صالح لمعي: 26)

وبصفة عامة فإن تأثير العمران العثماني مرتبط بمدى القرب الجغرافي بين العاصمة استانبول والإيالات العثمانية، فكلما كانت المسافة أقرب إلى العاصمة كلما كان العمران أكثر، وهذا ما يؤكده قولفن من خلال استنتاجه بعد دراسته أن اهتمام الباب العالي بالجزائر كان ضعيفا نتيجة بعدها الجغرافي عن الوطن الأم.(Golvin, 1985, 220)

كما يمكن اعتبار أن التراث العمراني العثماني كميته قليلة فيما هو باقي اليوم في الجزائر، ومرد ذلك أن الاحتلال الفرنسي قد ساهم بشكل كبير في تهديم وزوال معظمه، خاصة المساجد والجوامع ذات الطراز العثماني،وذلك مباشرة بعد الاستعمار بهدف قطع كل صلة تربط الجزائر بالدولة العثمانية.

3. مميزات بناء المدن في الجزائر العثمانية

تُعتبر المدن مظهرا من مظاهر حضارة الإنسان. فكثيرة هي مدن الجزائر التي أنشأت لتكون مراكز بشرية هامة منذ القديم، فكانت المكان الأنسب للعيش والقيام بجميع نشاطات الحياة، منها ما ازدهرت وتطورت ومنها ما اضمحلت وزالت مع مرور الزمن.

"إن المعالم الأثرية والمظاهر المعمارية في أي قطر ولدى أي شعب هي بمنزلة الذاكرة الجماعية التي تشعر الأمة وتربطها بماضيها، وبمثابة بطاقة التعريف التي تظهر جوانب التفوق ومواطن الإبداع التي تكسبها المكانة المميزة في العطاء الحضاري والإسهام الإنساني."(عقاب، 2007: 9).

تتشابه مدن الجزائر القديمة مع المدن الإسلامية الأخرى، والتي كان فيها الجانب الروحي الأساس الأول في تخطيطها، وكان نواتها المسجد،وهو المركز الهام والمتعدد الخدمات والنشاطات، يلبي متطلبات المجتمع الإسلامي الدينية والسياسية والاجتماعية والثقافية.

وكما هو معلوم أن مخططات وعمائر المدن القديمة لم تأتي من العدم والفراغ، فهي تنتمي إلى قيم وعقائد المجتمع التي حققت متطلباته المادية والمعنوية.

اهتم مشيدو وبُناة المدن الجزائرية منذ القديم بتخطيطها وتصميم الأبنية فيها التي كانت أهميتها بالغة في حياة السكان، والذين كانوا يراعون الظروف المناخية التي تؤثر بشكل كبير على حياة الإنسان من جهة،وتوفير بيئة مريحة تتوفر على كل متطلبات الحياة من جهة أخرى. "وإذا كان لكل هندسة معمارية أصولها وتأثيراتها، فإن الفن المعماري في الجزائر له مميزاته وأنماطه، ومن بين المميزات التي طبعت العمارة التقليدية في الجزائر الزخرفة." (خلاصي، 2007، ج2: 97).

تعتبر الزخرفة فنا إسلاميا راقيا، تتمثل وظيفتها في إنجاز عمل فني مستوحى من الخيال اللامتناهي، كما أنها تجسد كل ما يزين البناء، وغالبا ما تكون المواد المستعملة فيها متكونة من الحجر أو الخشب أو الرخام وغيرها،والتي تجسد وتعبر عن طريق نقوش أو رسومات نباتية وهندسية وخطوط زخرفية من آيات قرآنية أو كتابات وحكم مختلفة، انتشرت منذ الفتوحات الإسلامية خاصة بالمساجد والمدارس والمراكز الدينية. إلى جانب أنها تبرز أهم مظهر حضاري للنهضة الإسلامية.

والعمارة في الجزائر كغيرها من العمائر المختلفة في العالم، فهي لم تخلق من العدم بل تأثرت بغيرها نتيجة الاحتكاك بالكثير من الحضارات والمجموعات البشرية الذين مروا بها عبر تاريخها البعيد، ومن بين أهم المؤثرين فيها ما عرفه العهد العثماني الذي دام أكثر من ثلاثة قرون، " أما الأثر العثماني فقد ظهر خصوصا في بعض المساجد والقلاع والثكنات.

وكانت البيئة وراء طريقة العمارة في الجزائر. فالحرارة والبرودة من جهة، وعدم ظهور المرأة هي التي أملت كثيرا من أساليب بناء المنازل والمساجد والزوايا، وكان الغزو البحري وتعرض السواحل الجزائرية للهجمات المتكررة قد أملى طريقة بناء القلاع والحصون والمنائر للمراقبة والدفاع." (سعد الله، 1998، ج2: 446).

عرفت بيوت الله المساجد تطورا ملحوظا في هذا العهد، فكونها أماكن مقدسة لدى المسلمين خاصة لما تؤديه في العبادات وكمراكز للتفقه في الدين وتعلم العلم،"فكانت المساجد العثمانية ومبانيهم في كل من الجزائر العاصمة وقسنطينة ووهران وغيرها من المدن مازالت قائمة تشهد بنشاط الحركة المعمارية في العصر العثماني الذي تسللت فيه عناصر فنية ومعمارية جديدة في عمارة المغرب الإسلامي."(عزوق، 2006:89).

والجدير بالذكر أن المدن بصفة عامة تنفرد بصفات متميزة، يمليها موقعها وخصائصها الطبيعية والجغرافية، وبما أن المدينة كائن حي يؤثر ويتأثر، فهذا التفرد لم يكن عائقا أمام ظهور بعض الصفات والخصائص التي أملاها عليها الزمن لأن تكون مشتركة فيما بينها، نابعة من عادات وتقاليد المجتمع وظروفه البيئية التي رسمت ملامح بناء وتشييد المدن."إذ لم تكن المدن الجزائرية كالمدن الأوروبية. فإذا كانت هذه قد أخذت في النمو المطرد نتيجة للعمران وتزايد السكان وازدهار التجارة وبداية الصناعة والحماية الصحية ووفرة رؤوس الأموال وانتشار التعليم، فإن المدن الجزائرية كانت ما تزال تعيش بأسلوب العصور الوسطى الأوروبية. في شكلها على الأقل، فالشوارع ضيقة والأبواب تغلق من الغروب إلى الشروق، وليس هناك بنوك ولا تنافس رأسمالي، ومن ثمة لم يكن هناك فنادق ولا مستشفيات بالمعنى المعمول به في أوروبا. ومراكز التعليم كانت تقليدية وضعيفة المردود.ولم تكن المطبعة ولا الصحف قد دخلت الجزائر خلال العهد العثماني."(سعد الله، 1998، ج1: 165).

والمسكن هو أهم عنصر من العناصر المكونة للمحيط العمراني لكل مدينة، وفي المفهوم العام صممه الإنسان ليُؤمن حمايته وعائلته من مختلف الأخطار الخارجية سواء بيئية أو حيوانية، وهذا الأخير يختلف طرازه من حضارة إلى أخرى، حيث تغير نمط بناءه بمرور الزمن. أما المسكن في المنظور الإسلامي فهو وحدة اجتماعية يلبي متطلبات الأسرة بصفتها النواة الأولى للمجتمع، وللمسكن الإسلامي خصوصيته وحرمته، وهو عنصر معماري مهم، تميز في تكوينه وهندسته بالانسجام الشديد مع ظروف المناخ، وحدد تصميمه ليحقق كل متطلبات العيش الكريم.

"أما منازل المدن في الجزائر فهي منتظمة وبناؤها جيد بالنسبة لنوعيتها، ويحرص في بنائها أن يكون كل جزء من المنزل منفصلا عن الأجزاء الأخرى، ولاسيما الأجنحة الداخلية حتى تظل النساء في معزل، بحيث لا يمكن أن يراهن أحد. وللمنازل أسطح مهيأة لأن تكون مكانا للاستراحة، وتشاهد في المنازل الزهور والنباتات والأثاث الجميل، وطريقة المحافظة عليها تدل على التزام السكان بقواعد النظافة والنظام، ولا ينفذ ضوء النهار إلى المنازل من جهة الشوارع، حيث لا توجد إلا منافذ صغيرة لا يمكن رؤية الخارج منها، وإنما يصل الضوء إليها من الفناء المنفتح على الغرف. أما المساجد فهي متقنة البناء."(سعيدوني: 37).

ولا بد أن نشير أن بناء الأسرة السليم يقوم بالدرجة الأولى على الاستقرار وراحة البال في الحياة، ولا يكون ذلك إلا بتوفر وتصميم للبيت الذي سيأوي هذه الأسرة، وهذا ما سيسهل حياة الناس ورقيها، وبالتالي يمكن اعتبار السكن أساس الاستقرار والأمن."إن عمارة القصور في مدينة الجزائر لا تتميز عن بقية عمارة المساكن لدى العوام، بل بالعكس فهي متشابهة معها وجزء منها، وهو نمط موحد ساد الجزائر كلها شرقها وغربها، وهذه الوحدة في أسلوب العمارة تترجم وتجسد الوحدة الفكرية للسكان والتلاحم العضوي فيما بينهم، وهي ظاهرة لاحظها حتى الأجانب، ولقد تجلت هذه الوحدة أكثر في استعمال المواد المحلية الأساسية، من إعداد الملاط والأجر والخشب، وكذلك صناعة أشكال وحدة الزخرفة على الأبواب، كأنها أنجزت من طرف فنان واحد فقط، وكذلك وحدة مقاييس الرخام ووسائل الدعم...وأن الشعب

الذي يحقق مثل هذه الفكرة لجدير أن يقال عنه شعب مثقف ومتحضر".(عقاب، 2007: 24).

تميزت المساكن المؤلفة للمدن في الجزائر بالأصالة في البناءات، والتي أعطت وبلورت صورة المدينة الإسلامية ككل، تلك المدن التي اختصت بوجوب وجود الجامع أو المسجد في مركزها إلى جانب السوق كمركز اقتصادي ثم انتشار البيوت حولهما.

يمكن التذكير أيضا أن البيوت في غالب الأحيان كانت مفتوحة إلى الداخل ويتوسطها فناء الذي تتواجد به الأشجار وتتوفر فيه مختلف المزروعات والورود، وهذا ما يسبب في انتعاش وتلطيف الجو الداخلي، بالإضافة إلى توفير الإضاءة الطبيعية، وتتوسطها النافورة وبالتالي تصبح الساحة أو الفناء المكان المفضل لتجمع العائلة. ومركزا لنشاطها الاجتماعي، الذي تقام فيه الاحتفالات في مختلف المناسبات الاجتماعية في المواسم والأعياد على مدار السنة. شأنها في ذلك شأن كل البيوت الإسلامية.

إن البيت الجزائري لا يختلف كثيرا عن البيت العربي الإسلامي، في توفير عوامل الاستقرار وراحة بال الإنسان، لذا عمل البناة على إتقانه وتصميمه، لاتقاء برد الشتاء وحرارة الصيف، كما أنه تلائم مع احتياجات الإنسان الاجتماعية والدينية، إلى جانب انه اخذ بعين الاعتبار في تصميمه عدم تمكين من في الخارج من رؤية ما في الداخل (لشدة الغيرة على الحريم) إلى جانب توفير الحرمة لأهله، وبالتالي فهو المكان الأنسب لتنال الأسرة قسطا من الراحة والاطمئنان. والمنازل بالجزائر بصفة عامة كانت تبدو بسيطة ومتشابهة.

يمثل المسكن سواء كان بالمدينة أو الريف انعكاسا لنمط العيش ومظهرا لفن العمارة. فقد حافظ سكان الريف في مساكنهم على طابعهم التقليدي البسيط، حيث كان المنزل العادي في أي مجتمع سكاني "دوار أو دشرة أو قرية" يتألف في الغالب من فناء واسع تنفتح عليه غرف تتصل بحظيرة المواشي، ويعلوه سطح في المناطق الداخلية، وقد يغطيه القرميد في المناطق الشمالية الجبلية الرطبة، هذا في الوقت الذي عرفت فيه المساكن بالمدن الكبرى

تطورا ملحوظا فأصبح لها طابع معماري خاص بها يجمع بين الطرق المحلية والأساليب الشرقية، ويخضع لتأثيرات البحر المتوسط الأوروبية، وهذا ما أعطى طابعا خاصا لبعض الحواضر مثل الجزائر وتلمسان وقسنطينة حيث استعمل في بنائها الآجر والحجارة والقرميد، وعلت منازلها السطوح."(سعيدوني، 2010، العدد31: 88).

إلى جانب أن البيوت تميزت بالانسجام مع الظروف المناخية السائدة، من حيث التكوين والتصميم، إذ لعبت مهارة وكفاءة المعماري دورا كبيرا في هذا المجال، خاصة ما تعلق باستخدام مواد البناء من حجارة وطين ورخام وخشب وكلها مواد للبناء متوفرة في محيطه، من ميزاتها المحافظة على رطوبة البيت وعاكسة لحرارة الشمس. وقد "لاحظ الأوروبيون طريقة إعداد مواد البناء الواقية من الرطوبة والحرارة فوجدوا أن الجزائريين كانوا يمزجون رماد الخشب والجير والرمل ويخلطونها ثم يرشون عليها الزيت والماء في فترات معينة فتأتي من ذلك مادة بنائية جيدة تستعمل للأقواس والسقوف ونحوها من الأماكن التي يخشى منها تسرب الرطوبة وتقلبات الطقس. وكان الصانع الماهر في البناء يدعى "المعلم" تقديرا لمكانته في المجتمع. أما الحصون والقلاع ونحوها فلم يكن يراعي فيها الذوق بقدر ما كانت تراعي الصلابة والمقاومة، وفي بعض المنشآت العمرانية كان المسؤولون يستعينون ببعض الصناع المسلمين، ولاسيما من تونس والمغرب، وحتى بعض الأوروبيين، كما استعمل صالح باي على مد جسر قسنطينة أحد المهندسين الإسبان."(سعد الله، 1998، ج2: 448).

اهتم الجزائريون منذ القديم بتزيين وتجميل بيوتهم والمحافظة عليها، فهي تمثل أمنهم واستقرارهم."إلى جانب أن منازلهم كانت تمتاز بالأبواب الواسعة والغرف الفسيحة والأرضية الرخامية والردهة والباحة التي تنصب فيها في العادة فوارة، ولاحظ أن كل هذا يليق بالطقس الحار، وأن الغيرة على المرأة وفكرة الحريم قد أدت إلى قلة النوافذ في المنازل وندرة الشرفات

التي قد تطل على الشوارع والمحلات العامة، وغالبا ما تفتح النوافذ إذا وجدت من الداخل، أما من الخارج فلا تفتح إلا في الحفلات ونحوها."(سعد الله، 1998، ج2: 447).

بعد ارتباط الجزائر بالدولة العثمانية عرفت خلال عصر البايلربايات توطيد الحكم العثماني ومواصلة الجهاد ضد الإسبان. وهذا ما أكسبها الحماية والأمان، خاصة بعدما وضعوا حدا للأطماع الإسبانية، ونجاحهم في توحيد أجزاء كبيرة من البلاد التي كانت تابعة للإمارات الزيانية والحفصية وأمراء وشيوخ القبائل المنتشرين في الجبال والصحراء. كانت الجزائر من بين الدول التي انضوت طوعا تحت السلطنة العثمانية مكنتها من الحفاظ على استقرارها وأمنها بعد أن استرجعت معظم مدنها التي سيطر عليها الإسبان. كان نتيجة ذلك أن شهدت البلاد نمو وازدهار عمراني.

ومنذ البداية "اهتم البايلربايات ببناء الحصون والقصور والمساجد والحمامات والمدارس بل وحتى الموانئ، وشهدت مدينة الجزائر بصفة خاصة ازدهارا كبيرا في العمران فشيدت بها قصور جميلة مزخرفة بالرخام، ومدت قنوات المياه والعيون إلى مختلف الأحياء، وأسست حمامات للاستحمام بالمجان، ومستشفيات للمرضى وقلع ضخمة ما تزال تشهد بعظمة هؤلاء الولاة. وكان لمهاجري الأندلس دور كبير في هذا الازدهار العمراني بخبرتهم الفائقة في العمارة والزخرفة."(بوعزيز، 2009، ج2: 32).

ومن الملاحظات التي أبداها"جورج مارسي (1876-1962) المستشرق الفرنسي حول العمران في الجزائر خلال العهد العثماني حين قال: (إن أول ما يلفت انتباه المسافر عندما يحل بأرض الجزائر هو الوجود التركي الذي يتجلى فيما تركوه من أثار معمارية زاهية)، والفن المعماري للجزائر على عهد الأتراك يمتاز بالنقش والزخرفة وضروب الإبداع الفني، وتمثل المساجد والزوايا والمعابد جزءا كبيرا من هذا الفن المعماري، وقد بلغ عددها في العصر التركي حسب ما جاء في وثيقة عثرنا عليها بقسم الوثائق تحت رقم 350، نحو 98 مسجدا وزاوية."(الجيلالي، 2007: 221).

وكمثال على مظاهر العمران في مدن وحواضر الجزائر فإن "عمران مدينة الجزائر أبهر الأوروبيين والذي ميزه ضيق الشوارع، فقد وصفها هايدوفي بداية القرن السابع عشر على أن شوارعها (قد التصق بعضها بالأخر مما جعلها تُرى كفروع لشجرة الصنوبر السميكة)، وقد كانت شديدة الضيق لدرجة أن الرجل على صهوة حصان قد يمر خلالها وحده، في حين أن اثنين من المارة لا يستطيعان المشي في مستوى واحد، ومهما يكن فإن ميزات الممر الضيق والرؤيا المتوارية كانت لها ظواهر للتعويض. فخلال أوقات الحر، حيث الصيف الرطب تحتفظ الشوارع طوال اليوم من برودة الصباح الباكر، ولا يكون هناك كثير من الرطوبة أكثر من المستويات العليا أو مما هو مرفوق بالمعديات والملاريا في السهول الداخلية للجزائر."(سبنسر، 2006: 59).

إن الضيق الذي اتسمت به الشوارع يعود أساسا لأسباب تتعلق بالأمن من جهة، وبالطبيعة والمناخ من جهة أخرى، وهنا تتجلى إحدى أهم صفات المدن الإسلامية. وفي هذا المجال يذكر الدكتور عقاب أن هذا النسيج المعقد يسمح بتلطيف الجو على المشاة أثناء فصل الصيف نتيجة المد الشمسي في الممرات الضيقة وأن التشبع الشمسي للمساكن لا يكون إلا في السطوح المستوية أو بنسبة اقل على الصحون (الأفنية) المساكن."(عقاب، 2007: 104).

ظهرت بصفة عامة براعة المعمار الجزائري المسلم من خلال معرفته لعملية توظيف عناصر التدعيم في المبنى مراعيا المجال الصحي للمقيمين فيها وملبيا لحاجيات ومتطلبات المجتمع من خلال إيجاد ممرات لحركة الهواء وتجديده، سواء في الفناء داخل البيت أو في الشوارع وهذا بفضل إدراكه ووعيه آنذاك. دون أن ننسى تلك اللمسات من الجمال الزخرفي المتنوعة، فعمارة المساكن لدى عوام الناس كانت في غالب الأحيان متشابهة بحيث ساد نمط موحد لكل بالبيوت.

عرف عن الهياكل المكونة للمدن من البنايات والإنجازات المعمارية المختلفة تقسيم كل بناية إلى طابقين، أما الطابق الأول في شمل السكن، والطابق الأرضي يحتوي على إسطبل للحيوانات في غالب الأحيان،في حين كانت الشوارع الرئيسية تصطف فيها الحوانيت والمطابخ والمقاهي والحمامات استكمالا لمرافق المدينة.

"ففي مدينة البليدة مثلا كانت الشوارع فيها أوسع من شوارع الجزائر، وشوارع المدية مجهزة بالأرصفة وفي كل رصيف قناة للمياه، أما سقوف المنازل فقد وجد الفرنسيون عند احتلالهم الجزائر أنها هي بالضبط الموجودة في بلادهم.

وبالجملة فقد كانت المدن الجزائرية قبل الاحتلال وحسب رواية مشاهدات الفرنسيين هي نفس مدن أوروبا في القرن التاسع عشر.أما سكان البوادي فإن الكثيرين منهم في المناطق الجبلية كانوا يسكنون دورا حقيقية مبنية بالأحجار أو الطوب المجفف. والسقوف مختلفة منها ما هو بالديس أو بالقرمود كما في جبال القبائل الكبرى. وغرف العائلة منفصلة عن إسطبل الحيوانات بالعكس مما كان موجودا في أوروبا في ذلك العهد بالذات."(شريط والميلي، 1965: 152-155).

من المؤكد أن حركة وتطور المدن غير ثابتة، فهي متغيرة حسب ظروف وأحوال كل مدينة، فكانت هناك مدن عرفت النمو والازدهار وأخرى عرفت فقدان الشهرة والسمعة، وطواها الزمن مثلما طوى سابقاتها. ومدن الجزائر ليست عن منأى من هذه القاعدة، بالرغم من موقعها الجغرافي الذي يتوسط العالم والتي عرفت مدنه حركة متواصلة بعد مرور حضارات عديدة وشملت شعوب مختلفة ساهمت في ازدهار عمرانها.

"والظاهر أن عاصمة البلاد في العهد العثماني كانت مدينة دولية (أو كوزموبوليتان) فقد عرفنا أن سكانها كانوا من مختلف الأجناس. فقد كانت فيها المقاهي والبزارات والملاهي والحانات. وتأتي مدينة قسنطينة بعد العاصمة في الأهمية خلال العهد العثماني، فكانت

تضم منشآت عمرانية كثيرة، من ذلك الثكنات والمساجد والقصور والمدارس. أما تلمسان فقد فقدت كثيرا من سمعتها وقيمتها خلال هذا العهد نتيجة الاحتلال الإسباني لوهران ومرساها الكبير، وغداة استيلاء العثمانيين على السلطة في الجزائر كان الحسن الوزان (ليون الإفريقي) يصف تلمسان بأنها تحتوي على ثلاثة عشر ألف موقد (حوالي ثمانين ألف نسمة) وأنها كانت تضم عددا من المساجد وخمس مدارس. كما حظيت عنابة بازدهار عمراني طيب أثناء هذا الحدث باعتبارها المرسى الأساسي لإقليم قسنطينة الفسيح والغني. ورغم شهرة بجاية التاريخية فإنها لم تكن تتمتع خلال العهد العثماني لا بمكانتها القديمة ولا بوضع خاص جديد. فقد تحدث عنها بيري رايس في أوائل القرن العاشر الهجري، فقال إن بها حوالي ثمانية عشر ألف دار (حوالي مائة وستة وعشرين ألف نسمة)، إلا أن الإسبان قضوا على عمرانها وفر منها العلماء والتجار. ومن المدن التي كثر ذكرها في العهد العثماني في كتابات الرحالة لعلمها أو موقعها الاقتصادي: بسكرة والخنقة وتقرت وميزاب ووادي سوف وورقلة وعين ماضي. وكلها في الواقع صحراوية.(سعد الله، 1998، ج1: 172-179).

وبالرغم من أن قطاع المدن كان من أرقى القطاعات في الجزائر، إلا أنه كان أقلها أهمية، إذ أنه لم يكن يضم إلا حوالي 5-6 %. وقد تأثر وضع المدن بتقلب الأحوال السياسية وبإمكانات المنطقة الاقتصادية المحلية، وبالعلاقات الاقتصادية الداخلية والخارجية. ولهذا فقد عدد من المدن أهميته السابقة وازدهرت مدن جديدة. وقد أضاعت مدينة تلمسان أهميتها السياسية والاقتصادية والثقافية التي كانت لها ولاسيما في العصر الزياني. وتأثرت وهران بالاحتلال الاسباني الذي استمر حتى سنة 1792، فتوقفت تجارتها مع تلمسان والداخل، وطبق الإسبان فيها نظام الاحتكار الذي كانوا يفرضونه في مستعمراتهم، واقتصرت التجارة على استيراد العائدات الضرورية لتموين الحامية الإسبانية. وفقدت بجاية ازدهارها خلال الاحتلال الإسباني ولم تستعده أبدا. وتردى وضع تنس التي كانت مقر إمارة قضى عليها الأتراك وتأثرت تأثرا شديدا بسبب إلغاء تجارة الحبوب في بداية القرن السابع عشر.

وظلت قسنطينة سوقا داخلية ناشطة لها علاقات واسعة مع تونس والجنوب الصحراوي وباقي بيليكات الجزائر. وأفادت عنابة من وجود مراكز تجارية أجنبية فيها كانت تشتري الجلود والأصواف والحبوب، وكانت مدينة الجزائر والمناطق التابعة لها مباشرة أفضل المناطق من النواحي السياسية والاقتصادية."(فارس، 1969: 100-101).

وبوجه عام تركت المدن الجزائرية "التقليدية" المتوارثة من الفترة العثمانية والتي دامت أكثر من ثلاثة قرون من الزمن بصمات راسخة على النسيج العمراني. فقد بنيت بسواعد جزائرية واستعمل في تشييدها مواد بنائية في غالب الأحيان محلية، كما تم تصميمها حسب ما تقتضيه أحوال وعادات وتقاليد الجزائريين بمختلف أصولهم لتعطينا في الأخير مدن أصلية بلمسات عثمانية.

والحديث عن تشييد وبناء المدن خلال العهد العثماني،فقد أخذت الإنجازات الحربية الحصة الكبيرة من البناء، والتي كانت ضرورية نتيجة تميز ذلك العصر بكثرة الحروب والنزاعات، خاصة بعد احتدام الصراع بين القوة الإسلامية الممثلة في العثمانيين والقوة الصليبية الممثلة في الإسبان والتي كانت أرض الجزائر وساحلها مسرحا لها. والتي تمثلت أساسا في تشييد عمائر مختلفة الأحجام والأنواع، من أسوار وحصون وقلاع وثكنات وغيرها، كفيلة بحماية المدن والحواضر وتوفير الأمن والاستقرار لقاطنيها، والتي وقفت صامدة في وجه الغزاة الصليبيين وصد هجماتهم، ومن جهة أخرى حافظت على ديمومة المكتسبات المادية والحضارية العربية الإسلامية.

تُشكل الانجازات الحربية خلال الفترة العثمانية بالجزائر فصلا خاصا من تاريخ فن الحرب في العصر الحديث، خاصة وأن هذه الفترة هي فترة المواجهة المباشرة بين حضارتين، حضارة شرقية وحضارة غربية، كان محور الالتقاء دائما بينهما هو كامل سواحل حوض البحر الأبيض المتوسط. إذ "لم تشيد الاستحكامات العسكرية من أجل البقاء والمحافظة على سلامة السكان فقط، وإنما شيدت لحفظ وصون نتائج أعمال حضارية، وكذا

حماية الإقليم، والتمتع بالاستقرار والأمن وحماية الموانئ من الهجمات التي تعددت أسبابها، هذه الموانئ التي أصبحت مصدر رزق للعديد من المدن، ومصدرا لتنقل الحضارة بما تحمله من قيم، بعد الانتقال بالعواصم والمدن من الداخل إلى السواحل، مما جعل هذه المرحلة أعظم مراحل التاريخ في فن العمارة العسكرية بصفة عامة وبتطوير الموانئ ووسائل الإبحار بصفة خاصة".(خلاصي، 2008: 9).

والعمارة العسكرية لا تختلف خصائصها الفنية عن العمارة الدينية والعمارة المدنية والمرافق العمومية ذات الخدمات المشتركة، فالثكنة نموذج للفندق والقصر والمدرسة، والقلعة تحتوي على مرافق القصر وخصائص المسجد والمقهى أو النادي والحمامات العمومية والمخازن بل وتحتوي أيضا على مقابر لشهداء الواجب، إضافة إلى المرافق الخاصة بالجيش والتي لا تختلف عن المرافق العمومية.(خلاصي،2008:11).

وفي هذا السياق فإن هذه التحصينات أو بالأحرى الإنجازات والعمائر الحربية ذات أهمية بالغة، فما شيدت إلا لهدف واضح، نتيجة لظروف معينة جعلت وضعها من الأمور الضرورية والأساسية لحماية المدن من الأخطار الخارجية وكذا الثورات الداخلية، كما ساهمت إلى حد كبير في ديمومة المدن وبقائها من خلال بقاء تراث مادي حضاري شمل معظم جهات الجزائر.

وفي الأخير فإن المدن في الجزائر العثمانية كانت منتظمة ومتشابهة إلى حد كبير، التي صممت بسواعد جزائرية حسب تقاليدهم وعاداتهم بعد امتزاج مختلف الأنماط المعمارية الوافدة إليها، سواء من الأندلسيين الفارين بعد سقوط الإمارات بالأندلس أو العثمانيين بعد الالتجاء إليهم بعد الغزو الصليبي على المراكز والمدن الساحلية للمغرب الأوسط، فتشابهت المدن في الجزائر بالمدن العربية الإسلامية من حيث التخطيط والرؤية في تحقيق وتلبية متطلبات واحتياجات المجتمع.وبالرغم من الركود الذي عرفته بعض المدن التاريخية كوهران وتلمسان وبجاية إلا إن العهد العثماني كان عهد بناء ونمو المدن بصفة عامة مما جعل دول وإمبراطوريات كثيرة تطمع في احتلال الجزائر.

المبحث الثاني: التنظيم السياسي والإداري للجزائر خلال العهد العثماني

بعد أن تمكنت الدولة العثمانية من توحيد أجزاء كبيرة من العالم الإسلامي، عاش معظم دوله في عهدها عصرا من القوة والازدهار. هذه الدولة التي أخذت على عاتقها حماية المسلمين والدفاع عنهم في مواجهة المد الصليبي.

إذ لم يكن للعثمانيين عند بداية نشوء دولتهم نظام إداري محدد، إلا أنهم استطاعوا مع مرور الوقت الانتفاع من قوانين وأنظمة ممن دخلوا من العرب والفرس والبيزنطيين تحت رايتهم، ليجعلوا لهم نظاما خاصا بهم له أهمية بالغة وأساسية في بناء دولتهم وتنظيم حياتهم.

لقد كان الجهاز الإداري العثماني المركزي يتكون من السلطان وهو أعلى مؤسسة في الدولة، سلطته مستمدة من قوة الجيش الانكشاري، وفي نفس الوقت هو رأس الدولة وخليفة المسلمين، ويعاونه في الحكم الديوان وهو جهاز يتكون من الصدر الأعظم وأفراد الطبقة الحاكمة. وبعد اتساع هذه الدولة"قسم العثمانيون الأقاليم التي انضمت إليهم إلى إيالات، أي ولايات، تنقسم بدورها إلى ألوية أو سناجق."(جلال، 1965: 54).

وكان الهدف من وراء هذا التقسيم هو سهولة السيطرة على الأقاليم والبلدان التي انضوت تحت حكمهم بالإضافة إلى التواصل معها."إن التنظيم الإداري بإسطنبول كان أساسا ومثالا مطابقا للتنظيم الإداري في بقية عواصم وولايات الإمبراطورية العثمانية، من حيث الحكم المطلق، وأن حياة السكان وما يملكون بين أيدي الحاكم الأول الذي تتركز بيده السلطة العليا وكل أمور الدولة، ينيب عنه جمهرة من الموظفين من شيخ القرية إلى القائد إلى الخزناجي إلى الشاوش."(حليمي، 1972: 274-275).

أما الجزائر وبعد ارتباطها بالدولة العثمانية وتحولها من إمارات ودويلات متناحرة فيما بينها ضعيفة ومتفرقة، غدت إيالة عثمانية قوية صامدة. وأصبحت منذئذ من الولايات العثمانية، والتي أطلق عليها إسم أوجاق جزائر الغرب أو دار الجهاد.

كان من الصعب تحديد حدود الأراضي التابعة للدولة العثمانية، حيث كانت تتغير باستمرار نتيجة الفتوحات والتوسعات، وارتبطت التقسيمات الإدارية في هذه الدولة بعد أن انضمت إليها أقطار وبلدان من القارات الثلاثة.

كانت هذه الأخيرة مقسمة إداريا إلى إيالات، والإيالات إلى سناجق، والسناجق إلى أقضية، والأقضية إلى نواح والنواحي إلى قرى. ولقد أشرف على الإيالات في الدولة العثمانية أمير الأمراء ثم الوزراء بعد القرن السادس عشر الميلادي، حيث كانوا يمثلون السلطان ويجمعون بين الحكم الإداري والعسكري للإيالة، ولهم النفوذ المطلق -ماعدا الحالات القضائية-عليها."(صابان، 2000: 45).

والإيالة : Eyalet وتعني ولاية، أكبر التقسيمات الإدارية في الدولة العثمانية فقد كانت الدولة مقسمة إداريا إلى ولايات، وكان يشرف على الإيالة أمير الأمراء.(صابان، 2000: 45).

-الباي: Bey (بك) من الألقاب التركية القديمة التي كانت شائعة لدى الأتراك قبل إسلامهم. والكاف في آخر الكلمة تنطق ياء. وكانت الكلمة تطلق على صاحب الأمر في أي موقع كان، واستخدمها المغول بالمعنى نفسه، بل أطلقت على من يراد تعظيمهن من النسوة.وقد استخدمها العثمانيون في بداية الأمر بالمعنى نفسه. فكان (بك) الإقليم هو حاكمه وأميره. ومنها اشتقت (بكلربكي) أي أمير الأمراء، وكان يرأس مجموعة من الولايات.

-بكلربكي:Beylerbegi أمير الأمراء، وهو من أعلى المناصب في الدولة العثمانية، وكان يوجد في العهود الأولى من الدولة العثمانية بكلربكي واحد، كان مسؤولا عن الجيش وما يتعلق به من أمور، وكان نافذا يأتي بعد السلطان مباشرة. ولما توسعت الفتوحات العثمانية في أوروبا انقسم هذا المنصب إلى قسمين : بكلربك الأناضول وبكلربك الروملي. وقد ازداد عدد البكلربك فيما بعد، وأدى ذلك إلى تقليل نفوذهم، وكانوا يعينون ولاة وقوادا على الجيش. وكانت لهم إقطاعات مالية كبيرة."(صابان، 2000: 63-64).

هذا بالنسبة للدولة العثمانية بصفة عامة، أما في الجزائر فقد اتسم الحكم العثماني فيها في بداياته الأولى بالخضوع للسلطان العثماني الذي امتاز بتعيين حكام الإيالة. وفي

هذا المجال يذكر المؤرخ سعد الله أن "النظم الإدارية التي أقامها العثمانيون في الجزائر لم تكن تختلف عن النظم التي أقاموها في إسطانبول وفي الأجزاء الأخرى من الدولة."(سعد الله، 1982:47).

وعرفت البلاد عهد الولاة الأوائل الذين حكموها بعهد البيلربايات وهو لقب لأسمى وظيفة فيها، وامتد هذا العهد إلى غاية سنة 1587م، وفيها عمل الولاة على إرساء دعائم الحكم العثماني في الجزائر، واهتموا بتشكيل أسطول بحري قوي وتعزيزه لأجل مواجهة الأخطار الخارجية ولاسيما الخطر الصليبي الإسباني.

"ومن أجل ضبط السلطة وإقامة إدارة محكمة، قرر حسن بن خير الدين تقسيم الجزائر إلى أربعة أقسام، كل منها يحمل اسم بايلك، هي: بايلك الغرب وبايلك التيطري وبايلك الشرق أو بايليك قسنطينة، هذا إلى جانب بايليك الجزائر العاصمة، في وسط البلاد الذي يحمل اسم دار السلطان كذلك. ويحكم كل بايليك نائب عن الباشا بالجزائر يحمل لقب الباي، بمساعدة مجلس ديوان صغير وعدد من الأعوان.

ففي عام 1565م قام حسن بن خير الدين بتعيين بوخديجة على بايليك الغرب، ونصبه في مدينة مازونة، أما بايلك قسنطينة فلم يتم تعيين باي إلا بعد عامين من هذا التاريخ أي عام 1567م، وهو رمضان تشولاق باي، الذي بقي في منصبه حتى عام 1574م. وبذلك كان بايلك الغرب هو الأسبق في الإنشاء.(بن العنتري، د.ت:30).

يتكون كل بايلك في الجزائر العثمانية من مجموعات من المدن، ويرجع أساس التسمية لكل بايلك إلى المنطقة الجغرافية التي ينتمي إليها كل بايلك. (De Fontaine, (1837), 170)

وامتاز التنظيم في الإدارة الجزائرية خلال العهد العثماني أن تركز على تقسيم البلاد إلى أربع بيليكات، وهذا منذ ولاية حسن باشا الذي حكم الجزائر ثلاث مرات، وكان على رأس كل بيليكية باي يعينه الداي، وكانت تشمل المقاطعات التالية:

1- الجزائر: وكانت تسمى دار السلطان، وهي تمتد من دلس شرقا إلى شرشال غربا، وساحل البحر شمالا إلى سفوح الأطلس البليدي جنوبا، وتضم إقليمي: الساحل ومتيجة، وتخضع مباشرة لرؤساء السلطة، وتنقسم إلى أوطان يحكمها قواد تحت إشراف آغا العرب قائد الجيش، وكل وطن يتكون من دواوير.

2-بايليك الشرق: وعاصمتها قسنطينة وقد أسست في السنة الأخيرة من حكم حسن باشا 1567م وقد حكم الأتراك أغلب نواحيه الجبلية والصحراوية عن طريق الرؤساء المحليين.

3-بايليك الغرب: لقد تبدلت عاصمتها أكثر من مرة، ونقلت عاصمتها من مازونة إلى معسكر سنة 1710م ثم أصبحت وهران عاصمة لها بعد تحريرها من الاحتلال الإسباني سنة 1792م، وكانت ذات صبغة حربية نظرا لتوتر العلاقات بين الأتراك والمغاربة وبقاء الإسبان زهاء ثلاثة قرون.

4-بايليك التيطري: كان أصغر البايليكات ومقرها المدية، أسس سنة 1540م، وكانت الأكثر ارتباطا بالسلطة المركزية، ووضع بجانب الباي حاكم يتصل مباشرة بالجزائر ويهتم بأمور القيادات الأربع التي كان البايليك يتكون منها.

يمثل الباي السلطة السياسية الأولى على الإقليم وهو المسؤول الأعلى أمام الحكم المركزي، حيث كان عليه القيام بتعيين المسؤولين وتنصيبهم وتنحصر مهامه في تسيير شؤون المقاطعة والإشراف على القوات العسكرية وعملية جمع الضرائب من الأرياف والسهر على أمن المنطقة، لقد كانت العلاقة الموجودة بين السلطة المركزية والباي تتجلى في مساعدة البايليك بالجيوش وتقديم المساعدات المالية أثناء الكوارث الطبيعية، أما الباي فلقد كان يقدم للسلطة المركزية ضرائب وهدايا كانت تشكل عوائد البايليك."(هلايلي، 2008: 146-147-148).

ويتضح جليا أن الجزائر تم تنظيمها إداريا وتقسيمها إلى أربع ولايات، بعدما تم تنصيب على رأس كل ولاية وال يطلق عليه اسم الباي إلا دار السلطان التي كان يتولى الداي الحكم بها على وجه الخصوص.وكل هؤلاء البايات كانوا متساوين في الرتبة والعمل والمسؤولية، يرجعون في أمورهم إلى الداي وهم حكام في ولاياتهم يجبون الزكاة ويقضون بين

الناس ويدبرون الإدارة ويراقبون ويرتبون الجيوش ويحافظون على الأمن ويخبرون الداي ويستشيرونه في الأمور السياسية ويعلمونه بكل أعمالهم ويتلقون أوامره في المهمات."(بن اشنهو: 215-216).

"يتضح لنا من خلال التعرض للجهاز الإداري للجزائر العثمانية، أنه بسيط في تنظيماته متطور في صلاحياته، فهو يتجاوب مع الحاجات والمتطلبات التي تفرضها الأوضاع الاجتماعية وتقتضيها النشاطات الاقتصادية، وهذا ما جعل الجهاز الإداري يكتسي مرونة ساعدت بدورها على تدعيم الحكم العثماني بالجزائر طيلة ثلاثة قرون من الزمن.

ومن مميزات النظام الإداري في الجزائر هو احترامه للتسلسل التدريجي للمناصب الإدارية، إذ يؤخذ فيه بعين الاعتبار صلاحيات الموظفين ونوعية المهام الإدارية المنوطة بهم، وبالتالي أصبح من النادر أن نجد موظفا يماثل عمله الإداري عمل موظف آخر أو يتعارض معه، ومما يلاحظ على هذا التوزيع المحكم للمهام الإدارية أن أصبح الجهاز الإداري للجزائر العثمانية ذا تركيب هرمي يتبوأ قمته الداي ويحتل أعلى المراتب الإدارية به الموظفون الساميون ويشكل الكتاب الرسميون للدولة (الخوجاباشي) والقادة العسكريون (الأغاوات) وحكام الأقاليم (البايات) بنيته الأساسية."(سعيدوني، 2009: 200-201).

وتجدر الإشارة إلى أن "النظام الإداري للجزائر في العهد العثماني امتاز بطابعه العسكري، فالعمل العسكري كان أفضل وسيلة وأقصر طريق لنيل أعلى المناصب وأرقى المهام في السلك الإداري، وهذا ما جعل صلاحيات الموظفين تكتسي صبغة عسكرية واضحة، مما قلل من الطابع المدني لإجراءات الإدارة الجزائرية آنذاك، ولعل هذا ناتج عن طبيعة العنصر التركي الذي كان يميل إلى الحياة العسكرية ويفضل أسلوبها في معالجة الأمور، كما قد تكون للظروف الصعبة التي كانت تعيشها الجزائر تأثير حاسم في هذا المجال، فالأخطار التي كانت تتعرض لها البلاد والثورات المحلية المتعاقبة التي أضرت بسلطة البايليك (مثل ثورات درقاوة وابن الاحرش وفليسة والتيجانية وغيرها) فرضت على الحكام تعزيز جهاز عسكري قادر على الوقوف في وجه هذه الأخطار والتحديات، زيادة على أن الأسلوب العسكري هو خير وسيلة لاستخلاص الضرائب من الأرياف وتزويد خزينة الدولة بمداخيل كافية للإنفاق على جهاز الدولة الإداري. ويضاف إلى هذه الأسباب التي

أعطت الإدارة الجزائرية طابعا عسكريا سبب خارجي يتمثل في التهديد الخارجي الذي تعرضت له الدولة الجزائرية والمتمثل في الهجمات المباغتة للأساطيل الأوروبية على المدن الساحلية."(سعيدوني، 2009: 203).

1 : من جزائر بني مزغنة إلى دار السلطان

خلال العهد العثماني وابتداء من النصف الثاني من القرن السادس عشر قسمت الجزائر إداريا إلى أربعة بيالك أو مقاطعات أو نواحي إدارية، على رأس كل واحدة منها باي، تتمثل مهامه في التسيير والإشراف على شؤون مقاطعته وهو بمثابة الحاكم العسكري والمدني. وهذه البيالك هي: دار السلطان وتظم الجزائر العاصمة وضواحيها، وهي خاضعة مباشرة لسلطة الحاكم، كما أنها موصولة مباشرة بالداي، إذ تشتمل جغرافيا على خمس مدن هي: الجزائر، البليدة، القليعة، شرشال، ودلس."(بن محمد الميلي، 1964، ج3: 295).

ثم يليها بايلك التيطري وعاصمته المدية. وبايلك الشرق وعاصمته قسنطينة. وأخيرا بايلك الغرب وعاصمته مازونة ثم مستغانم ثم انتقلت إلى معسكر وأخيرا وهران بعد تخلصها من الاحتلال الإسباني.وكان على رأس كل بايلك باي، والتي كانت من أهم صلاحيات هؤلاء البايات هو جمع الضرائب واستتاب الأمن في مقاطعاتهم.

ومدينة الجزائر أصبحت عاصمة لإقليم المغرب الأوسط بعدما ارتبطت بالخلافة العثمانية، وقد أطلق عليها دار السلطان لكونها مقر إقامة الحاكم بها، والذي بسط حكمه على الإقليم الممتد ما بين تونس والمغرب.

1.1 نبذة تاريخية عن مدينة الجزائر

تداولت أجناس كثيرة على حكم مدينة الجزائر، فكانت ملتقى حضارات عديدة وذلك بحكم موقعها الجغرافي والاستراتيجي المنفتح على البحر الأبيض المتوسط، هذا الموقع الذي أهلها أن تلعب دورا حيويا وهاما في شمال إفريقيا ككل. فتاريخها حافل بالأحداث التي تعاقبت على المنطقة وساهمت في ازدهارها ونموها وثراء تراثها الحضاري وتنوعه. وحاليا هي عاصمة الدولة الجزائرية السياسية والاقتصادية. وبها أهم موانئها.

"أسس العرب مدينة الجزائر عام 325هـ/935م وأسموها مدينة الفضة بسبب البريق الذي كان يشع من مبانيها التي كانت تبدو من بعيد وكأنها خارجة من مياه البحر المتوسط مظهرة مظهرا رائعا خلابا.وموقع المدينة القديم كان يسمى إيكوسيم، وهو تسمية فينيقية قديمة، وفي العصر الإسلامي شهدت ازدهارا واسعا في عهد دولة بنو زيري، ثم شهدت توسعا عمرانيا كبيرا في عهد الدولة العثمانية في القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي وكان يسكنها حوالي مائة ألف نسمة، ولكنها تدهورت بعد الاحتلال الفرنسي لها عام 1244هـ/1830م، وهجرها أهلها فلم يبق منهم سوى 30 ألف نسمة فقط."(العفيفي، 2000:188).

"ترجع نشأة هذه المدينة إلى فترة ظهور الفينيقيين الذين خرجوا من فينيقية باحثين عن المعادن ومنشئين للمحطات التجارية على الشواطئ الجنوبية للبحر المتوسط حيث استقر بهم التجوال، أسسوا مدنا كثيرة اختلفت في تمثيلها للأهداف التي أسست لها. فمنها المراكز التجارية ومنها المدن العمرانية. ومنها المدن السياسية. ومنها المدن القيمة التي تناوبتها فترات الازدهار والركود حسب القيمة الإستراتيجية التي أضفاها عليها التاريخ السياسي للبلاد، مثل الجزائر. وهي أبحاث تتفق على أن المدينة لم يكن لها وجود قبل ظهور الفينيقيين في عرض البحر المتوسط أي قبل نهاية الألف الثاني قبل الميلاد، وأن مدينة الجزائر ظهرت لأول مرة في عهد انتشار الفينيقيين وخروجهم من فينيقية."(حليمي، 1972: 137-138).

يُسمي المسلمون هذه المدينة جزائر بني مزغنة، وهي من بناء البربر المعروفين بهذا الاسم، حتى إنها عرفت عند قدماء المؤرخين بمزغانة، ويذهب البعض إلى القول بأن الرومان كانوا يسمونها يوليا قيصرية على شرف يوليوس قيصر، وحُرف اسمها فصارت تُدعى اليوم: الجزائر، جمع جزيرة بالعربية. وهي مدينة شهيرة منذ القدم، أبدع الرومان في

تزينها، وزادها الأتراك إغناء بفضل ما وقع في أيديهم من غنائم سلبوها من النصارى. (كربخال، 1989، ج2: 362-364).

"والجزائر جمع جزيرة: اسم علم لمدينة على ضفة البحر، بين إفريقية والمغرب، بينها وبين بجاية أربعة أيام، وتعرف بجزائر بني مزغناي، بها آثار قديمة وأبنية عجيبة."(البغدادي، 1992، المجلد1: 330).

هذا وذكرها المؤرخ مراكشي خلال القرن السادس الهجري،فقال أن "مدينة جزائر بنى مزغناي: مدينة أزلية على ضفة البحر، والبحر يضرب في سورها. وهي قديمة البناء أزلية فيها آثار عجيبة تدل على أنها كانت دار مملكة لسابق الأمم. ويتصل بجزائر بني مزغناي فحص متيجة، وهو فحص عظيم كثير الخصب والقرى والعمائر تشقه الأنهار. ومرساها مأمون، وفيه عين عذبة يقصد إليها أصحاب السفن، ويقابل هذا المرسى من الأندلس مرسى شكله."(مراكشي: 132).

أما الإدريسي فيذكر أن "مدينة الجزائر على ضفة البحر وشرب أهلها من عيون على البحر عذبة ومن آبار وهي عامرة آهلة وتجارتها مربحة وأسواقها قائمة وصناعاتها نافقة ولها بادية كبيرة وجبال فيها قبائل من البربر وزراعاتهم الحنطة والشعير وأكثر أموالهم المواشي من البقر والغنم ويتخذون النحل كثيرا فلذلك العسل والسمن في بلدهم كثير، وربما يتجهز بهما إلى سائر البلاد والأقطار المجاورة لهم والمتباعدة عنهم وأهلها قبائل ولهم حرمة."(الإدريسي: 62).

وخلال العهد العثماني ذكرها المؤرخ الاسباني هايدو على أنها مدينة كبيرة تضم داخل أسوارها على12200 بيت،وبيوتها واسعة تحتوي على ساحات وأفنية.(DeHaedo, (1870), 38))

"اختار الأتراك لأول مرة من مدينة الجزائر عاصمة للقطر الجزائري، وقد اخذ نفوذ المدينة يمتد إلى أطراف البلاد بامتداد النفوذ التركي إلى أن أصبحت سيدة المدن الجزائرية من الحدود المغربية إلى الحدود التونسية، وكانت مدينة الجزائر مقر الباشا ثم الداي أو سلطان البلاد، وبها الحكومة المركزية ورجال الديوان وكنوز الدولة، ويتركز بها أغلب جنود الإنكشارية، وقد عرفت بدار السلطان."(حليمي، 1972: 275).

لعبت الظروف الخارجية من تهديدات الغزاة والمحتلين والقراصنة الأوروبيين دورا كبيرا في رسم خريطة بناء مدينة الجزائر أو بالأحرى تشديد وتكثيف تحصيناتها خاصة على واجهة البحر، درءا للأخطار وهجمات هؤلاء القراصنة.

"ومن الأسباب التي دفعت بالأتراك إلى تمديد مدينة الجزائر نحو المرتفعات، نجد القرصنة الأوروبية في العصور الوسطى التي عمت البحار والمحيطات حتى أصبحت وبالا على المدن الساحلية، ومدن سواحل البحر المتوسط بالخصوص، فانكمشت بذلك المدن نحو الداخل أو تحصنت بالطبيعة، أو اختارت الجبال والأودية، فتعلقت بتلك واستترت بهذه. ولشدة خطر القرصنة المسيحية على المدن الإسلامية حصن الأتراك مدينة الجزائر من جهات البحر تحصينا قويا على عكس جهاتها البرية التي أهملت، لأنها كانت في مأمن من العدو الداخلي، بل لم يكن هناك عدو داخلي تخشى منه مدينة الجزائر. ويمكن تقسيم عمرانها في عهد الأتراك إلى عمران داخل أسوار المدينة وعمران خارج أسوار المدينة."(حليمي، 1972: 221).

"والعاصمة نموذج للمدن الجزائرية خلال العهد العثماني، فقد تحولت هذه المدينة من مرسى صغير يلجأ إليه المسافرون كمحطة ثانوية عند هبوب العواصف إلى مرسى كبير يستقبل مختلف السفن والبضائع ويقصده تجار الداخل والخارج على السواء.وتحولت من قرية مجهولة وعرة المسالك معلقة على صدر الجبل إلى عاصمة للقطر كله كثيرة العمران وافرة السكان. ولم يكن للقطر الجزائري قبل القرن العاشر الهجري، وحدة سياسية جغرافية كالتي

عرفها بعد ذلك. ولذلك لم يكن له عاصمة سياسية واحدة. فلم تكن مثلا تلمسان الزيانية ولا قسنطينة الحفصية عاصمة للقطر كله كما أصبحت مدينة الجزائر في العهد العثماني.

وكان الموقع الوسطي لمدينة الجزائر وكونها مدينة بحرية ووقوعها عند المنافذ الجبلية الطبيعية المؤدية لمختلف الاتجاهات الأخرى في الداخل وتحصيناتها الطبيعية بالجزر التي كانت أمامها. كل ذلك قد أهلها لأن تصبح عاصمة سياسية عن جدارة يصل سلطانها بسهولة إلى الجهات الثلاث المسكونة (الشرق والغرب والجنوب). وقد نبهنا إلى أن الفضل في اتخاذها عاصمة سياسية يعود إلى الأخوين عروج وخير الدين بربروس.(سعد الله، 1998، ج1: 168-169).

خلال العهد العثماني عرفت مدينة الجزائر نموا وازدهارا شمل مختلف الميادين،خاصة ما تعلق بالعمران والتجارة نتيجة وجود قوة عسكرية تكفلت بحماية البلاد من هجمات الصليبيين والثورات الداخلية بعد بناء القلاع والحصون على أطرافها، وزادت مبادلاتها التجارية بعد توسيع وتحصين ميناءها.

تعتبر مدينة الجزائر أكبر مدن الجزائر خلال العهد العثماني خاصة بعد ما تقلص دور المدن التاريخية تلمسان وبجاية،اهتم بتوسيعها وتطويرها الحكام العثمانيين مساهمين في إرساء السيادة طيلة ثلاثة قرون، نتيجة موقعها الجغرافي والاستراتيجي المطل على البحر الأبيض المتوسط."إن النسيج العمراني لمدينة الجزائر لا يختلف كثيرا عن بقية أنسجة البلاد العربية الإسلامية، رغم اختلاف تضاريسها الطبيعية عنها، وكيف أن العثمانيين اختاروها لتكون قاعدة لهم ينطلقون منها في جهادهم البحري ضد قراصنة الأجناس الأخرى، وفي نفس الوقت قاموا بتحصينها تحصينا منيعا، تكسرت عليها هجمات مختلف دول أوروبا."(عقاب، 2007: 11).

تميزت الجزائر بحكم موقعها على ربوة محاذية للميناء مما جعل منها مكان استراتيجي صد معظم الهجمات التي عرفتها المدينة لعدة قرون من الزمن. وعلى هذا الأساس أطلق عليها البعض "اسم: المحروسة ودار الجهاد. وكان لهذا الاسم معنى في تطور عمران المدينة نحو الدفاع والتحصين ضد الغارات المسيحية التي ما فتئت تهاجم من حين مدينة الجزائر في هذه الفترة. فلذلك كثرت بها الأبراج في العهد التركي وزيد من تشديد أسوارها. وتمتين قوتها الدفاعية بصفة عامة. ومن طبيعة التطور العمراني الدفاعي أن توسعت مدينة الجزائر في عهد الأتراك نحو المرتفعات، والقصبة العليا بالخصوص التي بدأ في تشييدها عروج بأموال جمعها من تلمسان بعد أن قضى على ملكها أبي زيان ثم نقل كنوزه إلى مدينة الجزائر سنة 1518 وهي كنوز قيمة كانت تملأ خزائن ملوك بني زيان في مدينة تلمسان."(حليمي، 1972: 219).

ومن البديهي أن هذه المدينة نافست كبريات المدن،مما كان يحسب لقوتها في كل أرجاء منطقة البحر الأبيض المتوسط، وأهلها أن تلعب دورا مهما في فرض السلم والحرب، ذلك تاريخها المجيد، فيذكر دوغرامي الذي كان في طريقه سنة 1619م إلى القسطنطينية أن "مدينة الجزائر هي ذلك السوط المسلط على العالم المسيحي، إنها رُعب أوروبا ولجام إيطاليا وإسبانيا وصاحبة الأمر في الجزر."(سبنسر، 2006: 14).

اتفق معظم المؤرخين على أن ازدهار المدينة عرف أوجه في العهد العثماني، حيث مس جميع الميادين لاسيما الجانب العمراني، وكان أول عمل ساهم في تطوير المدينة هو الاعتناء بترميم وتوسيع الموضع الطبيعي للميناء، لأنه سيكون شريان الحياة تعتمد عليه المدينة مستقبلا، وذلك بربط الرصيف بالمدينة في عهد خير الدين، وهذا ما سهل الحركة التجارية وتنشيطها، خاصة ما تعلق باستيراد مواد البناء وزيادة العمران، كما ساهم الميناء في تسهيل قدوم واستقرار جاليات عديدة على رأسها الأندلسيين الذين وظفوا خبراتهم وتقنياتهم في بناء وتوسيع وإعادة إحياء المدن.

"وقد خلق ربط خير الدين للميناء وجود قاعدة بحرية فعالة ووضع الأساس القاعدي لعمران ومؤسسات مدينة حقيقية، فقد امتد البناء من الميناء إلى أعلى التل. وكان يعمل فيه مهنيون وعمال موريسكيون إلى جانب أسرى مسيحيين تحت إشراف تركي ليقيموا في تلك البقعة التخطيط الحضري الذي تعودوا عليه من المدن المينائية العثمانية.

إن التطور الناجح لهذا التصميم جعل مدينة الجزائر أكثر مدن شمال الإفريقي من حيث الطابع التركي (على غرار القسطنطينية في الطراز) وفي بنيتها وفي العمارات المجابهة للميناء وكذلك في الشارع الرئيسي الطويل."(سبنسر، 2006: 50).

وإذ جمع العثمانيون ورجال المغرب الأوسط سائر البلاد تحت إدارة مركزية موحدة، اتخذوها عاصمة لها بلدة صغيرة، ذات موقع جغرافي ممتاز، تتوسط الساحل كأنها درة تاجه، تدعى "جزائر بني مزغنة " لوجود عدد من الجزر الصغيرة أمامها، تستعملها لحماية سفنها والدفاع عن ديارها ضد غارة الأعداء فأخذ الأتراك يعمرون تلك المدينة، وينشئون بها الدور والقصور إلى أن تضخمت وأصبحت من أكبر المدن الإفريقية قاطبة، وصارت تدعى بإختصار مدينة الجزائر، ثم أطلقوا اسمها على كامل البلاد المترامية الأطراف التي تدين لحكمها، وهكذا نشأت في مستهل القرن السادس عشر، وحدة تدعى الجزائرية، أو قطر الجزائر، مع نشأة العصر الحديث في العالم".(المدني: 9-10).

إن مدينة الجزائر عرفت طيلة الحكم العثماني الأمن والاستقرار، وهذا بشهادة وملاحظات الأجانب الذين زاروها في تلك الفترة، ومرد ذلك إلى النظام والصرامة التي عرف بها الحكام العثمانيون في تطبيق العقوبات، بالإضافة إلى مساهماتهم في خلق جو من الطمأنينة لدى السكان بعد أن اهتموا بتوفير بعض ضروريات الحياة كالتمتع بالإنارة الجيدة في أزقتها ليلا وإغلاق أبوابها عند غروب الشمس، مما انعكس بالإيجاب على أمن المواطن وممتلكاته. وهذه الأعمال قلما نجدها في بلدان وممالك ذلك الزمان.

2: بايلك الشرق–قسنطينة وأهميتها العمرانية

يعتبر بايلك الشرق من أكبر البايلكات في الجزائر من حيث عدد السكان والمساحة، عاصمته قسنطينة، وجغرافيا يمتد من البحر المتوسط شمالا إلى غاية الصحراء الكبرى جنوبا، ومن الحدود التونسية شرقا إلى غاية بلاد القبائل غربا. يضم هذا البايلك مجموعة من الولايات تقع شرق دار السلطان، ونذكر منها مدن عنابة وقالمة وسطيف وبجاية...الخ.

كما يشير المؤرخ الاسباني مارمول كربخال في كتابه إفريقيا خلال القرن السادس عشر ميلادي على أن "إسم إقليم قسنطينة عند بطليموس هو نوميديا الجديدة" (كربخال، 1984، ج3: 5).

"يشتمل بايلك قسنطينة على عدة نواحي كبيرة، على رأس كل منها قائد يتصرف في شؤونها ويقر العدالة بها ويستخلص الضرائب من سكانها ...الخ. وكان حكام هذه النواحي إما قيادا يخضعون لأوامر شيوخ العشائر، أو من الشيوخ الكبار مثل شيخ العرب، أو من كبار موظفي البايليك المقيمين بقسنطينة. وهم يختارون لهذه المناصب حسب رغبة الباي." (سعيدوني، 2000: 156).

ومدينة قسنطينة هي العاصمة التاريخية التي واكبت جميع مراحل التاريخ الجزائري. وتاريخها عريق، والتي تمتاز بجمال منظرها وفنون عمارتها، إذ تأسست هذه المدينة على صخرة قاسية مرتفعة كثيرا عن مستوى سطح البحر.إذ عرفت صراعات كثيرة خاصة خلال العهدين الروماني والبيزنطي نتيجة موقعها الاستراتيجي الهام، تنافس عليه عديد الملوك والحكام.كما يعتبرها المؤرخون "من المدن المشهورة بإفريقية، فهي مدينة كبيرة عامرة قديمة أزلية، فيها آثار كثيرة للأول. وكان لها ماء مجلوب يأتيها على بعد على قناطر تقرب من قناطر قرطاجنة. ومدينة قسنطينة حصينة في نهاية من المنعة والحصانة لا يعرف بإفريقية أمنع منها، ليس لها في المنعة نظير غير مدينة رندة بالأندلس، فإنها تشبهها في وضعها

والخندق المحيط بها والحافة المحدقة بها شبها كثيرا. ولكن قسنطينة أعظم وأكبر وأعلى، على جبل عظيم من حجر صلد، وقد شق الله تعالى ذلك الجبل فكان فيه خندق عظيم يدور بالمدينة من ثلاثة جوانب."(مراكشي، 1985: 165).

أما المؤرخ البكري فيقول عن قسنطينة إنها "مدينة أولية كبيرة آهلة ذات حصانة ومنعة ليس يعرف أحصن منها، وهي على ثلاثة أنهار عظام تجري فيها السفن، قد أحاطت بها تخرج من عيون تعرف بعيون أشقار تفسيره سود، وتقع هذه الأنهار في خندق بعيد القعر متناهي البعد قد عقد في أسفله قنطرة على أربع حنايا، ثم بني عليها قنطرة ثانية (ثم على الثانية قنطرة ثالثة).ويسكن قسنطينة قبائل شتى من أهل ميلة ونفزاوة وقسطيلية وهي لقبائل من كتامة. وبها أسواق جامعة ومتاجر رابحة، وبينها وبين مرسى سقدة مسيرة يوم.(البكري، 1992،ج1: 728-729).

من جهة أخرى ذكرها البغدادي فقال إن "(قسنطينة) بالضم، ثم الفتح، ثم نون، وطاء مكسورة، وياء مثناة من تحت، ونون بعدها ياء خفيفة، وهاء: مدينة وقلعة يقال لها: قسطنطينية الهواء، وهي قلعة كبيرة عالية جدا لا يصلها الطير إلا بجهد، من حدود إفريقية، مما يلي المغرب.(البغدادي، 1992،المجلد1: 1092-1093).

ويقول عنها الإدريسي أنها كانت "مدينة عامرة وبها أسواق وتجار وأهلها مياسير ذوو أموال وأحوال واسعة ومعاملات للعرب وتشارك في الحرث والادخار والحنطة، تقيم بها في مطاميرها مائة سنة لا تفسد والعسل بها كثير وكذلك السمن يتجهز به منها إلى سائر البلاد ومدينة قسنطينة على قطعة جبل منقطع مربع فيه بعض الاستدارة لا يتوصل إليها من مكان إلا من جهة باب في غربيها ليس بكثير السعة. يحيط بها الوادي من جميع جهاتها كالعقد مستديرا بها. وهذه القنطرة من أعجب البناءات لأن علوها يشف على مائة ذراع . وهي من بناء الروم. وقسنطينة من أحصن بلاد الله."(الإدريسي، 1957: 67-68).

من المعروف أن عنصر الماء هو من أهم أسباب ظهور الحضارات والسبب الرئيسي في نمو المدن، وبالرغم من وجود هذه المدينة وبناءها فوق صخرة عالية وقاسية، مما جعلها قلعة شامخة في علو وكثيرة المنحدرات الشديدة، فإن الماء يمر تحتها عبر واديها المسمى وادي الرمال والذي تنحدر منه المياه والتي يتكون منها شلال بديع الجمال.

وبما أنها مدينة ثرية بمختلف الآثار والشواهد المعمارية التي تعود لأزمنة غابرة ولعصور تاريخية مختلفة، والتي ما زالت تحافظ على ذلك الموروث، فهي ترقى أن تكون من أحسن مدن الجزائر.

كانت هذه المدينة القاعدة الثانية بعد تونس لدولة الحفصيين، إذ يعين عليها أمير أو ولي حفصي يدير شؤونها. وبعد ارتباط الجزائر بالدولة العثمانية كانت كذلك ثاني أكبر مدينة بعد الجزائر وعاصمة مقاطعة وبايلك الشرق، والتي وصفت بالمملكة لاتساعها وكثرة سكانها ووفرة مواردها.

"يتميز بايلك قسنطينة بأن سلطة الأتراك فيه لم تتمكن في وقت من الأوقات من السيطرة على منطقة الشرق الجزائري. فقد كانت مشائخ العرب أو رؤساء القبائل يُنظمون باستمرار الثورات في وجه الحكام الأتراك. وإذا استثنينا عهد صالح باي، الذي يتطلب دراسة خاصة، نجد أن بايلك قسنطينة لم يخل في وقت ما من الثورات التي تعتمد دائما على وجود سخط شعبي ضد الحكم التركي."(الميلي، 1964، ج3: 298).

عرفت المدينة تشييد الانجازات والمباني المعمارية التي زادت من ازدهارها خاصة خلال العهد العثماني في عهد حكم صالح باي، "أما الجانب الأخر الذي تبرز من خلاله آثار صالح باي، فهو يتعلق بمآثره العمرانية التي أعادت لقسنطينة إزدهارها العمراني الذي عرفته في ماضيها السحيق عندما كانت عاصمة للنوميديين أو تاريخها الحديث حيث كانت مقرا مفضلا للحفصيين، فقد عمل صالح باي جاهدا على تجميل قسنطينة وتنظيم أحيائها وتشييد بعض المعالم العمرانية بها، ففي هذا الصدد نذكر إنشاءه لحي سيدي الكتاني وتعميره لناحية الشارة وتشييده لجسر القنطرة."(سعيدوني، 2009: 245).

تحتوي مدينة قسنطينة على عدد هائل من المعالم الإسلامية التي كانت وما زالت مراكز لدور العلم وتعليم القرآن الكريم وتحفيظه، منها المسجد الجامع الكبير، وجامع سيدي الأخضر وجامع سيدي الكتاني وكذا مسجد الأمير عبد القادر الذي بني على النمط المشرقي الأندلسي والذي يعتبر من أكبر مساجد شمال إفريقيا، فبفضل هذه الجوامع وغيرها عرفت المنطقة نهضة علمية وثقافية بلغت أثارها كل أرجاء العالم الإسلامي في كل زمان. كما ساهمت في ازدهار مختلف العلوم والفنون وعرفت بروز عدد كبير من العلماء والمفكرين الذين صنعوا تاريخ الجزائر وكانوا من أبرز أعلام الفكر العربي والإسلامي.

3.بايلك الغرب–تعريف المدينة (وهران عاصمة بايلك الغرب):

تعتبر مدينة وهران إحدى أهم وأكبر مدن الجزائر، وهي عاصمة غرب البلاد تطل على البحر الأبيض المتوسط، تأسست على أيدي التجار الأندلسيين في بداية القرن العاشر الميلادي. ونظرا لموقعها الاستراتيجي الهام، كانت تمثل منطقة وصل لكل المغرب الأوسط في جهته الغربية، إذ استخدمت كميناء بحري لنقل وتبادل السلع ومختلف المنتجات، هذا الميناء الذي يربط بين مدن جنوب الأندلس ومناطق شمال إفريقيا.

وقديما نزل بها الفينيقيون في خليج صغير غرب وهران لإنشاء محطة للتجارة، وازدهرت المنشآت التجارية وكثرت بها وتوسعت نتيجة لعملهم وحرفتهم المعروفة بالتجارة. إذ يقول البكري عن أهميتها من خلال الحصانة التي تمتعت بها المدينة ومياهها وبساتينها في حوالي القرن الخامس الهجري، ما يلي: "ومدينة وهران حصينة ذات مياه سائحة وبساتين، ولها مسجد جامع. وبنى مدينة وهران محمد بن أبي عون ومحمد بن عبدون وجماعة من الأندلسيين البحريين الذين ينتجعون مرسى وهران باتفاق منهم مع نفزة وبني مُسقن وهم من أزداجة."(البكري، 1992، ج1: 738).

تأسست المدينة بدعم وتشجيع من قبل أمراء قرطبة آنذاك بهدف تكثيف التبادلات التجارية مع تلمسان. "وأكد المؤرخون أهمية هذه المدينة. واعتبروا تاريخ ذكرها هو سنة 390هـ-903م في عهد أمويي الأندلس، فإنهم أرادوا أن يمدوا سلطتهم على المغرب الأوسط، فوجهوا القائدين محمد بن أبي عون وابن عبدون اللذين أبرما اتفاقا مع فرقة بني مزجن من القبيلة البربرية ازداجة الصنهاجيين فسلمت الفرقة للخليفة الأموي قطعة من الأرض شيدوا عليها مدينة وهران أو كانت قرية قديمة فوسعوها وهي تسمى كيزة ذكرها المؤرخون اللاتينيون فأصبحت المدينة نقطة انطلاق للأمويين في المغرب الأوسط، فتوسعت المدينة بفضل البلاد الخصبة المجاورة لها وأصبحت ميناء ذات ثروة وحركات تجارية هامة للغرب الجزائري لا يضاهيها مرسى آخر وبقيت هكذا حتى أخذها المرابطون. وكانت في عهد بني عبد المؤمن مجرد ميناء للناحية الغربية للمغرب الأوسط. ثم لما بسط بنو عبد الواد حكمهم على هذا القطر كانت أهم ميناء مع هنين وأرشقول ترد عليها البضائع بكثرة وتصدر منها."(بن اشنهو: 47-48).

يقول البغدادي إن "(وهران) بالفتح، ثم السكون، وآخره نون: مدينة على البر الأعظم، من المغرب، بينها وبين تلمسان سرى ليلة، وهي مدينة صغيرة على ضفة البحر، وأكثر أهلها تجار."(البغدادي، 1992، المجلد1: 1446).

ترتبط التجارة ارتباطا وثيقا بالحضارة وهي جزء منها، ومدينة وهران بحكم مبادلاتها التجارية بين الشمال والجنوب كان لها دور حضاري تجاوز الحدود، كما كانت محطة للثقافات عبر العصور، وامتازت بكثرة أسواقها ووفرة وتنوع منتجاتها من خلال عمليات البيع والشراء للسلع والمواد وتوفير الخدمات وتلبية احتياجات كل مناطق المغرب الأوسط، كما كانت تنقل البضائع منها وإليها عن طريق ميناءها عبر البحر المتوسط الذي جعل منها عاصمة التجارة بمنطقة غرب شمال الجزائر.

ساهمت التجارة كثيرا في التطور الحضاري لمدينة وهران، فبانتقال هؤلاء التجار منها إلى أقاليم أخرى كانوا يساهمون في التبادلات الثقافية والحضارية بين الشعوب، فأثروا وتأثروا وزاد الاحتكاك والتواصل ما أدى إلى تطور الفكر والمعرفة بالمنطقة ككل.

وفي حدود منتصف القرن الحادي عشر الهجري وصفها المؤرخ مارمول كاربخال إذ يقول: أن هذه المدينة قديمة بناها السكان الأصليون على الساحل، تفصلها مسافة فرسخ واحد عن المرسى الكبير جهة الغرب. كانت تسمى على عهد الرومان أونيكاكولونيا. ويسميها البعض باسم آخر."(كاربخال، 1989، ج2: 329).

تذكر بعض الروايات أن ميناءها في عهد الرومان كان يعرف بالميناء الإلاهي (يونيكا كولونيا).ويقول عنها الزياني أنها "من بناء الروم قبل الإسلام، ثم فتحت في الإسلام واستولى عليها بني يفرن ثم الأدارسة بعدهم، ثم الشيعة، ثم زناتة، ثم صنهاجة، ثم لمتونة، ثم الموحدون، ثم بنو عبد الواد، ثم بنو مرين، ثم الإصبنيول، ثم فتحها الترك أيام السلطان العثماني، ولا زالت بأيديهم."(الزياني، 1991: 141).

وهذا التنوع في الشعوب الذي مر على المدينة عبر مختلف الأزمنة والعصور ساهم كثيرا في مظاهر التنوع الثقافي والحضاري فيها، مما كان له تأثير كبير على مختلف مجالات الحياة، فكثر سكانها وزاد عمرانها.

وخلال منتصف القرن السادس الهجري تحدث عنها الإدريسي بعد زيارته لها، وذكر مختلف النشاطات التي عرفتها المدينة، خاصة ما تعلق بمواردها الاقتصادية والتجارية، حين قال أن:"وهران على مقربة من ضفة البحر وعليها سور تراب متقن وبها أسواق مقدرة وصنائع كثيرة وتجارات نافقة وهي تقابل مدينة المرية من ساحل بر الأندلس وسعة البحر بينهما مجريان، ومنها أكثر ميرة ساحل الأندلس ولها على بابها مرسى صغير لا يستر شيئا ولها على ميلين منها المرسى الكبير وبه ترسى المراكب الكبار والسفن السفرية، وهذا

المرسى يستر من كل ريح وليس له مثال في مراسي حائط البحر من بلاد البربر وشرب أهلها من وادي يجري إليها من البر وعليه بساتين وجنات وبها فواكه ممكنة وأهلها في خصب والعسل بها موجود وكذلك السمن والزبد والبقر والغنم بها رخيصة بالثمن اليسير ومراكب الأندلس إليها مختلفة."(الإدريسي، 1957: 57).

شهدت هذه المدينة عصور ازدهار عديدة إلى أن طمع فيها البرتغاليون عام 888هـ/1483م بغية الاستغلال التجاري، ثم احتلها الإسبان عام 914هـ/1509م وظلوا فيها حتى عام 1205هـ/1791م عندما سيطر عليها الأتراك العثمانيون وذلك إثر الذعر الذي انتاب الجالية الإسبانية بعد حدوث الزلزال الشديد الذي دمر المدينة عام 1204هـ/1790م وقد ظلوا فيها (أي الأتراك) حتى احتلتها فرنسا عام 1252هـ/1831م وشجعوا الهجرة الأوروبية إليها."(العفيفي، 2000: 516).

وخلال العهد العثماني والذي يعتبر أهم العصور التي مرت على الجزائر، فإن مدينة وهران لم تعرف هذا العهد والانتقال إليه، نتيجة الاحتلال الإسباني، إلى أن استرجعت أهميتها بعد أن أصبحت عاصمة لبايلك الغرب، بعدما سبقتها مدنمازونة ومعسكر ومستغانم كعواصم لبايلك الغرب. فشملت حدودها جغرافيا من حدود بايلك التيطري شرقا إلى الحدود المغرب الأقصى غربا، ومن الصحراء الكبرى جنوبا إلى البحر المتوسط شمالا.

"كان الطابع المميز لتنظيم وهران هو الطابع العسكري، نظرا للمنافسات والحروب التي نشبت بين الأتراك وبين سلاطين المغرب الأقصى من جهة، ونظرا لمتطلبات الدفاع العسكري ضد القاعدة الإسبانية في وهران ومرسى الكبير. ومن هنا كانت فرق بايلك وهران دائما على أهبة الدفاع والحرب. وقد تأثرت الزراعة بهذا الوضع، كما تأثر العمران، إذ لا وجود للاستقرار خارج المدن الكبيرة أو الجبال المنيعة، وأصبح مصدر الثروة الأساسي هو تربية المواشي، التي يمكن الانتقال بها عند نشوب معركة أو مقدم غارة."(الميلي، ج3: 297).

شهدت مدينة وهران تطورا وازدهارا خاصة خلال العصر الوسيط والحديث، كغيرها من مدن الجزائر المطلة على البحر المتوسط، ويعود ذلك بالدرجة الأولى لموقعها وميناءها الاستراتيجيين، اللذان يوفران امتيازات وتسهيلات في عدة جوانب منها التجارية والعسكرية والحضارية، كما لعبت دورا مهما في تنشيط وتنمية فيما بين مناطق جنوب البحر المتوسط والجهة الجنوبية للجزائر. فمدينة الباهية هي المدينة الشامخة منذ عقود والتي لا زالت مركزا اقتصاديا وحضاريا هاما. وعمرانها مزيج بين الأصالة والمعاصرة شاركت في تشييده أجناس مختلفة عبر تاريخها الطويل.

4 : بايلك التيطري –لمحة تعريفية عن مدينة المدية

إن التنظيم الإداري السائد ببايلك التيطري لم يكن يختلف عن التنظيمات الإدارية الأخرى بالجزائر، والذي جمع بين المهام الإدارية والأمنية وحتى الاقتصادية. خاصة ما عرف عن إمكانياته الاقتصادية لتوفره على أهم الموارد الطبيعية من إنتاج زراعي وتربية للمواشي على نطاق واسع، كما أن المنطقة بالغة الأهمية في التبادلات التجارية بين الشمال وقبائل الجنوب، والتي أخذت اسم بايلك الجنوب،لوقوعها على الحدود الجنوبية لبيلك الغرب والشرق ودار السلطان وبين الصحراء الكبرى، وضم هذا البايلك مدينتين مهمتين هما البليدة والمدية.(De Fontaine, (1837), 172)

لقد مرت مدينة المدية بأحداث متنوعة، وتداولت عليها العديد من الحضارات القديمة وسكنتها شعوب كثيرة عبر العصور، إذ احتلها الرومان ثم فتحها المسلمون ووصولا إلى العهد العثماني ومن بعده الاحتلال الفرنسي.

"اختلف المؤرخون في تسمية هذه المدينة، وتعددت الروايات في صيغة الاسم وفي نسبه وتاريخه، فهل المدينة من-لامباديا Lambdia القرية التي سبقت في نفس المكان مدينة المدية؟ وهل هي كلمة بربرية كما زعم بعضهم وقال: إن معناها العلو، والأرض المرتفعة؟ وفي موضع أخر يقول ابن خلدون: لمدية...هو اسم بطن من بطون صنهاجة وقد

استولى محمد بن عبد القوي (أيام بن عبد الوادي) على حصن هذا البطن المسمى بأهله ونطق بعضهم بلمدونة والنسبة إليها لمداني.(الجيلالي، 2007: 312).

وعرفت هذه المدينة بتنوع إنتاجاتها الفلاحية، نتيجة موقعها الجغرافي الهام، حيث تكمن أهميته في إطلالها على سهول ممتدة واسعة، وجبال شاهقة بالإضافة إلى توفرها على المياه الباطنية."والمدية هي مدينة بها حصن بني على نتوء صخري ليسهل الدفاع عنها ضد القبائل العربية، ويشهد على تاريخها القديم وجود حنايا مياه رومانية جميلة لا تزال تؤدي الغرض من بنائها حتى اليوم، فعن طريقها ينقل الماء إلى المدينة من الجبل المجاور...وهي مشهورة جدا بآبارها الكثيرة التي تتميز بمياهها النوعية، وهذا شيء نادر في تلك الجهات." (سعيدوني: 65).

دخلت المدية تحت نفوذ العثمانيين سنة 1517م، بعدما هزم عروج أمير تنس حماد بن عبيد بالمتيجة، ليترك فيها حامية مؤلفة من الأتراك وبعض الأندلسيين ويعود إلى الجزائر.(الجيلالي، 2007: 318).

إن العثمانيين لما دخلوا الجزائر جعلوا مدينة المدية قاعدة مهمة وعاصمة ومقر إدارة بايلك التيطري في وسط الجزائر. والتي امتدت حدودها من سهل متيجة شمالا إلى الصحراء الكبرى جنوبا، ومن حدود بايلك الشرق إلى حدود بايلك الغرب. كما حولوها إلى مدينة عثمانية مثل مدنهم بالأناضول، من خلال بناء مختلف المنشآت المعمارية المدنية من دور وقصور ومساجد وحمامات، وأخرى عسكرية متمثلة في عديد الحصون والأبراج والقلاع وغيرها. فاهتمامهم بهذه المدينة كان واضحا نتيجة موقعها الممتاز وكذا قرب بايلك التيطري من دار السلطان.

"وباي التيطري هو أول البايات في نظام التشريفات، لكنه أقلهم شأنا من حيث الأهمية السياسية والاقتصادية التي تكتسيها المنطقة التابعة له، بالرغم من فخامة حرسه.(الميلي، 1964، ج3: 296).

يذكر مارمول عن خصال هذه المدينة ويقول "المدية، مدينة كبيرة عتيقة جدا بناها سكان البلدان الأصليون في سهل خصيب على حدود جيتوليا على بعد خمسين فرسخا من مدينة الجزائر وعلى ستين فرسخا من شرقي تلمسان.وكان ملوك تلمسان يحرصون على تبعيتها لهم وإن وقعت خارج ولايتهم لأنها ممرهم إلى نوميديا. أرضها كثيرة الحدائق والبساتين ومنابع المياه، غنية، يجود بها الزرع وتكثر الماشية. أهلها متميزون بلطف المعاملة، لهم دور أنيقة ومسجد رائق البناء. ولما ضعف ملوك تلمسان ذاقوا الأمرين من غارات الجيتوليين والعرب وأهل نوميديا، إذ كان يتعذر إنجادهم من تلمسان ما لم يتوفر الجيش العظيم نظرا لبعدهم عنها ومجاورتهم لأولئك الأعداء، وكان أمراء تلمسان في عهد عزهم يتخذون بهذه المدينة حامية تشن الغارات وتدافع عن المدينة، وبذلك ظل جيرانها مساكين، جانحين للطاعة. ولما قل إنجادهم مال أهل المدية إلى أمراء مدينة تنس الذين يستطيعون إنجادهم عند الاقتضاء بسبب قربهم منهم، فعلى تلك الحال وجدها عروج وفتحها. ومنذ ذلك الفتح وهي تابعة لأتراك الجزائر، وحاميتهم لا تغادرها."(كاربخال، 1989، ج2: 373).

ويذكرها العفيفي في موسوعته على أنها "مدينة جزائرية معروفة تقع إلى جنوب مدينة الجزائر العاصمة.وموقعها إلى غرب جبال أطلس في منطقة السهول الزراعية الخصبة وتحيطها الحقول والبساتين وقد عاشت المدينة عهود ازدهار إسلامية... ثم زادت درجة تحضرها في عهد المرابطين والموحدين في العصور الوسطى، ولكنها تعرضت للاحتلال الفرنسي في القرن التاسع عشر الميلادي ويعمل سكان المدينة حاليا في عدد من الأنشطة الاقتصادية وخاصة التجارية منها."(العفيفي، 2000: 447-448).

فالمدينة بموقعها الاستراتيجي والهام جعل منها مطمع لكل جيرانها، وعليه عرفت الصراعات عبر مختلف الأزمنة. وهي من أهم المدن قديما وحديثا. وساهمت بقسط كبير في تاريخ حضارة الجزائر.

المبحث الثالث:المظاهر العمرانية لمدن الجزائر العثمانية

إن قوة وعظمة أي حضارة تعتمد أساسا على صمود منشآتها ومبانيها، فمعظم مخلفات الإنسان من بنايات لا تزال تقاوم الزمن بالرغم ما مر بها من كوارث وحروب دمرت في طريقها معظم تلك الشواهد والآثار.والفن المعماري أو العمارة بشكل عام والتي تُعبر عنها المنشآت المادية هي أكبر شاهد على تنوع واختلاف تطور حضارة الإنسان.

تزخر المدن الجزائرية كغيرها من مدن العالم، بهندسة معمارية متنوعة، ويرجع ذلك إلى تعاقب الحضارات ومجموعات بشرية مختلفة، وبصفة عامة فإن البنايات تعكس مدى تطور المجتمع ورقيه. والتي تميزت على المركزية في بنائها، شأنها في ذلك شأن معظم المدن العربية الإسلامية، خاصة الفترة التي سبقت الاحتلال الفرنسي.

وخلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، شهدت الجزائر تحولا عمرانيا كبيرا نتيجة الاستقرار السياسي الذي عرفته البلاد بفضل النشاط التجاري القائم بين المناطق المتواجدة تحت إدارة الباب العالي وانفتاح البلاد على العالم،وبالتالي توافد المهندسون والحرفيون من شتى أنحاء العالم الذين لم يبخلوا بمعارفهم وتجاربهم في تشييد المنشآت والإنجازات خاصة للعثمانيين حكام الجزائر. بالإضافة إلى بناء عدد من المدن والمراكز العمرانية على غرار مدينتي البليدة والقليعة المجاورتين لدار السلطان اللتين ارتقيا من منطقتين بسيطتين فلاحيتين إلى مصاف مركزين حضريين هامين بالجزائر خلال العهد العثماني.

أما عن بايلكات الشرق والغرب والتيطري، فقد عرفت مدن كل من قسنطينة وعنابة وبجاية ووهران ومستغانم وتلمسان والمدية رقيا وتطورا خاصة بعد استقبالها لمجموعات من المهاجرين الأندلسيين من مختلف فئات المجتمع (تجار وحرفيين ومزارعين ومثقفين وغيرهم) الذين ساهموا في تنشيط هاته المناطق وغيرها. فالعهد العثماني ميز الجزائر وأعطاها بعدا حضاريا ورقيا معماريا لم تشهده من قبل، طُبع باللمسة الشرقية التي جاء بها العثمانيين من

جهة، وتأثيرات الجالية الأندلسية من جهة أخرى، كانت نتيجة ذلك ازدهار ونمو كل المجالات في الجزائر بما فيها مجال العمران.

"وقد نتج عن معارك القراصنة امتزاج الأسلوب العثماني مع المغربي الساذج (شمال إفريقيا) والأوروبي، سواء فيما يتعلق بالأنماط الاجتماعية أو الهندسة المعمارية أو المهارات اليدوية وما إليها."(سبنسر، 2006: 15).

وفي هذا المجال يذكر الدكتور سعد الله بعد دراسته لبعض المدن الرئيسية والإقليمية، أن المجتمع الجزائري خلال العهد العثماني كان مجتمعا مدنيا، بمعنى أن المدينة كانت تلعب دورا بارزا في حياة السكان، وقد بلغ عدد سكان الجزائر، حسب معظم التقديرات، حوالي خمسة ملايين نسمة، وكان عدد العثمانيين فيها اثني عشر ألف نسمة، وكان التطور الاقتصادي والعمراني لبعض المدن قد جعل الريف يتمدن شيئا فشيئا، وأخذ الناس يخرجون من طور القبيلة والعرش والدوار إلى طور المدينة والتعايش السكاني المتكامل، حقا أن هذه الظاهرة لم تتم عن طريق الطفرة ولا عن خطة رسمية مدروسة، ولكن الوحدة السياسية للبلاد قد فرضت نوعا من الوحدة الاقتصادية، ومن ثمة نوعا من الوحدة الثقافية أيضا. ومع ذلك فلا يمكننا هنا أن ندعي بأن المجتمع الزراعي الاقتصادي انتهى في الجزائر خلال هذا العهد."(سعد الله، 1998، ج1: 185).

كان للإستقرار السياسي الذي عرفته الجزائر بعد قدوم العثمانيين أهمية بالغة ومثيرة، خاصة بعد تحولها من ممالك متفرقة متحاربة إلى دولة موحدة ذات سيادة عرفت النمو والتطور قابله توسيع وتشييد المدن، نافست قوى ذلك العصر، وبالتالي أصبحت منذئذ يحسب لها، وعليه فإن إيجاد إدارة مركزية واحدة، وتركيز السلطات في يد الديوان الذي يتولى تعيين أو انتخاب الداي، وتعامل دول أوروبا وأمريكا مع هذا الداي، والمعاهدات المبرمة بينها وبين الجزائر، يدل على أن الجزائر قد تطورت في العهد التركي إلى أن أصبحت لها دولة بالمعنى الحديث للكلمة.(الميلي، ج3: 301).

هذا إن دل على شيء فإنما يدل على النظام والاستقرار والأمن الذي عرفته الجزائر خلال ثلاثة قرون من تاريخها أي طيلة قرون 16 و17 و18م مقارنة بدول وممالك أخرى في ذلك الوقت.

إن تحسن ظروف الحياة أدى إلى ملائمة المعيشة بما يتفق مع حاجات المجتمع التي تهدف إلى تحسين مستوى حياة الأفراد، خاصة ما تعلق بالحكام والقادة بصفة عامة "ومع تضخم ثروة الدولة الجزائرية، فإن أعضاء النخبة وعلى الأخص ضباط مؤسسة القرصنة (الرياس) بدأوا في التأقلم لطراز العيش بالضواحي، فبنوا دارات لهم خارج المدينة."(سبنسر، 2006: 56).

بنيت المباني الجميلة بمساهمة الصناع والحرفيين المهرة، سواء المحليين أو الأجانب والذين تركوا بصماتهم ومهاراتهم في كل ما أنجزوه على مر العصور. كما "تدل المباني والمنازل الجميلة التي كانت قائمة بالجزائر قبيل الاحتلال الفرنسي على ازدهار صناعات الخشب والزجاج وفنون البناء وصناعة الأجر."(الميلي، ج3: 314).

والجزائر كباقي الدول آنذاك كانت تتكون من مدن وحواضر عديدة في الشمال كما في الجنوب، والتي ساهمت في تاريخ وحضارة البلاد، ومن المدن التي اشتهرت "خلال أواخر العهد التركي: الجزائر، قسنطينة، وهران، تلمسان، عنابة، معسكر، مازونة، المدية، البليدة، بسكرة، ملیانة، مستغانم، بجاية، المسيلة، تبسة، عين ماضي، تقرت، ورقلة الخ. تقطن هذه المدن طوائف تختلف من مدينة إلى أخرى، لكن بعض الطوائف نجدها في أغلب المدن، فطائفة الحضر نجدها في كل المدن وكذلك البراني، كما يسمون في مدينة الجزائر، ونجد الأتراك في المدن الكبرى خاصة في مدينة الجزائر، كما نجد الكراغلة في أغلب المدن وحتى خارجها، ونجد اليهود موزعين في أغلب المدن، في الجزائر، تلمسان، وهران، معسكر، مستغانم، قسنطينة وفي واحات وادي ميزاب وفي قرى بلاد القبائل، في المدية وبجاية.(عباد، 2012: 355).

وبصفة عامة فإن مدن المغرب الإسلامي قد تشابهت في هذه الفترة، إذ"تميزت المدينة المغربية بتنظيم خاص للفضاء العمراني وللبناءات، إذ ترتفع الأسوار حولها وتجعل منها فضاءا مغلقا بأسوار دائرية لا يفتح على العالم الخارجي، إلا عن طريق الأبواب المحروسة التي تتخللها، وهي بذلك ترتكز عن طريق الأسوار الشاهقة فكرة الثنائية بين الحضري والريفي وبين البلدي والبراني. كما أن المدينة تظهر تفوقها العمراني من خلال منشآتها الخاصة فالمساجد الكبرى مثل جامع الزيتونة بتونس أو جامع عقبة بالقيروان أو جامع القرويين بفاس، لم تمثل فحسب بناءات ضخمة وثرية من حيث الهندسة والزخرف والمواد التي استخدمت لبنائها، إنما كانت القلب النابض لتلك المدن.

فموقع هذه المساجد الكبرى الذي يتوسط المدينة يحدد من حولها توزيع مختلف الأنشطة الاقتصادية وتراتبيتها، وبدورها الديني-العلمي، تسمو بالمدينة إلى مركز قيادي ومرجعي. إلى جانب المنشآت الدينية، يضم الفضاء الحضري منشآت السلطة السياسية ومؤسساتها، غير أن قصور السلاطين بالمغرب والدايات بالجزائر والبايات بتونس لم تبق دائما داخل الأسوار، فبنيت خارج المدن. وبقيت المدينة مركزا للسلطة العسكرية أو الأمنية المباشرة داخل الثكنات والقصبة...وفي مدينة الجزائر نلاحظ نفس الظاهرة ولو بصورة متأخرة، فمنذ 1817 انتقل الداي علي خوجة للسكن في القصبة التي تشرف على المدينة من حدودها الغربية بعد أن كان الدايات يسكنون قصورا داخل المدينة. وربما خضع ذلك الاختيار الجديد إلى عوامل أمنية."(الأرقش، 2003: 213-214).

وفي الأخير يمكن القول إن المظاهر العمرانية بالجزائر قد ميزها تنوع الأبنية والمنشآت من مساجد وقصبات ومساكن التي لم تكن معقدة في تخطيطها المعماري، والتي كانت تخضع للنمط الإسلامي، فاتسمت بالبساطة، اعتمدت على المواد التقليدية البسيطة في البناء مثل الطوب والأحجار والأخشاب وغيرها.

والعمارة الجزائرية مثلها مثل العمارة الإسلامية سواء كانت مدنية أو حربية أو دينية فهي تمثل إحدى مظاهر الحضارة التي ميزت التاريخ الإسلامي.وهذه العمارة ميزتها مساهمات وابتكارات الجزائريين الذين أنجزوا شواهد معمارية رائعة من خلال استخدامهم لمواد أولية في غالب الأحيان محلية ومن الطبيعة بدعم من الولاة والحكام. فخلدوا إرث حضاري متميز بالبساطة والإتقان بالغ الأهمية،مثل حلقة مهمة من حلقات تاريخ الجزائر المجيد.

الفصل الثالث

الفصل الثالث: مدن الجزائر العثمانية بعد الاحتلال الفرنسي

المبحث الأول: السياسة الاستعمارية الفرنسية اتجاه المدن الجزائرية

1- دور السياسة الاستعمارية في طمس الهوية الجزائرية

2- تثمين الماضي اللاتيني القديم

3- أثار سياسة الاستيطان الأوروبي على نشاط مدن الجزائر

المبحث الثاني : حالة المدن العثمانية في الجزائر بعد الاحتلال الفرنسي

1- حالات الهدم الكلي والجزئي والتغيير في المباني والمنشآت

2- إعادة تخطيط المدن الجزائرية القديمة وبوادر ظهور المدن الاستعمارية

المبحث الثالث : تراجع نشاط المدن العثمانية في الجزائر بعد الاحتلال الفرنسي

1 . انحصار نشاط المدن الجزائرية القديمة

2 . انعكاسات النمط العمراني الأوروبي على المدن الجزائرية

المبحث الأول: السياسة الاستعمارية الفرنسية اتجاه المدن الجزائرية

1.دور السياسة الاستعمارية في طمس الهوية الجزائرية

عرفت الجزائر في الثلث الأول من القرن التاسع عشر وبالتحديد عام 1830م أبشع استعمار عرفته البشرية، لما واجهه الشعب الجزائري من طرف الاحتلال الفرنسي من قتل واضطهاد ونفي، وتهديم وتحطيم وسلب لممتلكاته، فتحولت كل مظاهر الحضارة في البلاد من معالم ومؤسسات كانت قائمة ومزدهرة ذات طابع إسلامي إلى دمار وخراب.كان الهدف من وراء انتهاج هذه السياسة هو ضرب كل ما له صلة بهوية وشخصية الجزائر،وبالتالي طمس ومحو لكل أثر حضاري عربي إسلامي لها.

لقد تذرعت السلطات الفرنسية بكل الحجج والبراهين لتبرير احتلالها للجزائر، وأوهمت الرأي العام المحلي والأوروبي أنها تدافع عن قضايا أوروبية بقضائها على تهديدات الجزائريين ومعاداتهم للمسيحيين وإنهاء ممارسة الرق، ولم تكن كلمات نشر الحضارة والقضاء على القرصنة بالبحر الأبيض المتوسط وتأمين الملاحة البحرية والتجارية سوى ذرائع تخفي من ورائهما غزو واستغلال ثروات البلاد واستعباد الأهالي، مُرتكزين على استدمار كل ما في البلاد، وباستعمال مختلف الأساليب والمناهج.

إن عملية غزو فرنسا للجزائر هو حلم لطالما راودها من قبل، فقد"شرعت تعمل لتحقيقه منذ الثلث الأخير من القرن الثالث عشر ميلادي، حين فكر ملكها لويس التاسع في غزو واحتلال بلدان المغرب ومنها الجزائر، التي هي قلبها منذ ما قبل 1270م. ومما يؤكد هذا ما ينسبه ولو في أسلوب خيالي، مؤلف فرنسي إلى شارل العاشر، الذي شن علينا حملة الاحتلال سنة 1830ممن انه أراد أن يحقق حلما راود جده لويس التاسع. الذي مات دون انجازه".(نايت بلقاسم، 2007، ج2: 21).

إن فرنسا باحتلالها للجزائر كانت تستهدف استعادة مكانتها وسلطانها، لاسيما لما كان يمثله موقعها الاستراتيجي والهام، فهي تمثل بوابة إفريقيا، وكذلك مخزن هام لثروات طبيعية هائلة، خاصة في وقت ظهرت فيه أثار الثورة الصناعية، وكانت مصانعها في حاجة ماسة إلى المزيد من المواد الخام، وكذا تصريف منتجاتها بعد فقدانها لمناطق نفوذ عديدة بآسيا وأمريكا الشمالية. كما كانت تخشى لأن تسبقها بريطانيا إلى احتلالها، خاصة عندما "فقدت الدول الأوروبية جزءا كبيرا من مستعمراتها في القارة الأمريكية في أواخر القرن الثامن عشر، ووجهت أنظارها من جديد إلى البحر المتوسط، وقد شجعها ضعف البحرية الإسلامية بما فيها البحرية الجزائرية".(شويتام، 2011: 133-134).

تعرضت الجزائر لأبشع هجمة استعمارية عرفها التاريخ المعاصر"حين عمدت هاته القوة الغاشمة (الاحتلال الفرنسي) إلى إغراق البلاد في بحر من الدماء، وحولت معالمها ومؤسساتها إلى خراب، ومجموع الشعب إلى جحافل من البؤساء يرزحون تحت نير القهر والطغيان والعبودية. إنها لمحنة عظيمة ونكبة كبرى تلك المأساة التي بدأت صبيحة يوم 5 جويلية والتي استمرت قرنا ونيف وثلاثين سنة."(قنان، 1994: 91).

تعددت أسباب الاحتلال وتداخلت وعرفت الدوافع الاستعمارية الاختلاف، والتي إن كانت اقتصادية أو سياسية أو اجتماعية أو دينية، وفقا للحالات التي يمارس فيها الاستعمار مهمته. فكثيرا ما تتداخل تلك الدوافع وتتراكب، "من ذلك مثلا ما ذكره البعض من أن وراء جهود كل من إسبانيا، وهولاندا والبرتغال وفرنسا وانجلترا لإنشاء إمبراطوريات في العالم الجديد هو ثلاثة دوافع تبدأ كل منها بحرف G هي:GOLD. GLORY. GOD-الذهب والمجد والرب."(مجاهد، 1990: 39).

اختلفت الآراء والمفاهيم حول مصطلح الاستعمار، منهم من يراه"كظاهرة سياسية واقتصادية وعسكرية، ظهرت بظهور الإمبراطوريات منذ العصر القديم-آشور وبابل وفارس. وكذلك هو تسلط دولة على بلاد غير بلادها الأصلية، من أجل استغلال ثروة هذه البلاد

الاقتصادية، وتعمل الدولة المستعمرة على بسط نفوذها السياسي على البلاد المستعمرة من أجل تحقيق أهدافها، ويتخذ أشكالا متعددة منها الاحتلال العسكري المباشر والغزو الفكري عن طريق نشر لغة وفكر الدولة المستعمرة أو صورة اتفاقات سياسية أو شكل سياسة عنصرية مثل سياسة البيض ضد السود في دولة جنوب إفريقيا."(نبهان، 2008: 21).

ويرى آخرون أن" الاستعمار بمعنى-كولونيالية- Colonialism-يعني في معناه الأصلي استعمارا استيطانيا وهو مستمد من كلمة "Colony" المشتقة من لفظ "Colonia" وتعني باللاتينية مستعمرة. وهو يتضمن حركة وانتقالا للمواطنين من دولتهم الأصلية إلى إقليم ما وراء البحار- أجنبي عنهم- والاستيطان به استيطانا دائما وتعميره نتيجة الاستيطان."(مجاهد، 1990: 20).

لقد استمر الاستعمار الفرنسي بكل ما يحمل هذا الاسم من معاني، لأكثر من مائة واثنين وثلاثين سنة، جاء بعد حقبة زمنية تجاوزت ثلاثة قرون من الزمن عاشت فيها الجزائر في جو أكثر فتراتها سادها الأمن والاستقرار،فكانت من أحسن بلاد العالم نظاما ورفاهية وأمنا وعدلا."(المدني: 72).

ومن جهة أخرى، فإن انفراد وتحكم الجزائر في جزء كبير من البحر الأبيض المتوسط شريان التجارة لعديد من الدول آنذاك، جعلها مطمع لكثير من الدول الاستعمارية، إلى أن دخلت الجيوش الفرنسية يوم الخامس من جويلية من عام 1830م مدينة الجزائر أولا ثم توغلت عبر كامل القطر بعدها، حينذاك عرفت فيه البلاد النهب والسلب لخيراتها وتدمير وتخريب لإرثها ومعالمها الحضارية والثقافية،بُغية القضاء على هوية هذا الشعب وطمس شخصيته، بعدما عاث الاستعمار الفرنسي فسادا وظلما واستباح كل ما في البلاد.

لقد اتخذ الاحتلال الفرنسي للجزائر ومنذ البداية سياسة الاستعمار الاستيطاني، إذ قصد الفرنسيون أن يجعلوا من هذا البلد إقليما فرنسيا. فعمدوا إلى اتخاذ سياسة استعمارية

واضحة تعتمد القضاء على الشخصية الجزائرية بكل مقوماتها سواء روحية أو مادية باستعمال وإباحة كل الطرق والوسائل من قوانين إدارية وقوة عسكرية واحتيال وغدر في سبيل تحقيق أهدافها، وكان أهمها هو فصل وكسر العلاقة التي تربط بين تعليم الشعب حتى لا تكون له ثقافة تعليمية أساسها الدين الإسلامي.(VOISIN (1861),38)

ولا يتحقق ذلك إلا بالقضاء على المعالم الحضارية التعليمية من مساجد ومدارس وزوايا وكتاتيب وغيرها، التي كانت تغذي الشعب الجزائري علميا وفكريا. إذ يقول عن دورها عبد العزيز شهبي "أنها كانت أيام الحرب مقرات ملتقى المجاهدين، ومراكز المقاومة، وهذا ما أثار غضب الاحتلال الفرنسي، فدفعه الحقد إلى هدم وتخريب معظمها، وأغلق بعضها، وذلك لأنها كانت مراكز للثقافة الإسلامية، واللغة العربية، والتوعية الوطنية والقومية، ولمقاومة الاستعمار، وتحريض الناس على مقاطعة المحتل".(شهبي، 2007: 200).

"إن المعالم الأثرية والمظاهر المعمارية في أي قطر ولدى أي شعب هي بمنزلة الذاكرة الجماعية التي تشعر الأمة وتربطها بماضيها وبمثابة بطاقة التعريف التي تظهر جوانب التفوق ومواطن الإبداع التي تكسبها المكانة المميزة في العطاء الحضاري والإسهام الإنساني.(عقاب، 2007: 9).

من المعروف تاريخيا أن "الجزائري قد عاش منذ الفتح الإسلامي فخورا بقوميته العربية متمسكا بالدين الإسلام الحنيف واعيا للمؤامرات وأطماع الدول المسيحية عليه وعلى بقية الأقطار العربية غربا وشرقا من العالم العربي. وقد شارك في جميع الأحداث التي تعاقبت على حوض البحر المتوسط."(عاشوراكس، 2009: 115).

إلا أن الرؤية الفرنسية كان هدفها استراتيجي-مستقبلي بعيدة المدى، بُغية تجريد المجتمع الجزائري من خصائصه ومقوماته. وهي بذلك"تخدم منطلقات ودوافع الحركة الاستعمارية تجاه العرب والإسلام، هذه السياسة، وفي أبعادها غير الاقتصادية، استهدفت التفكيك والتفتيت للبناء الاجتماعي والثقافي والديني والحضاري العام، ومحاولة الاحتواء

التدريجي وتحقيق التبعية الكاملة.ومنذ بداية الاحتلال، بدأ الهجوم على اللغة العربية ومؤسساتها الثقافية والدينية، ولما كانت اللغة العربية وعاء الدين الإسلامي باعتبار لغته العربية، فإن هذا الهجوم يحيل للقضاء على الدين، لأن فهم الدين لا يتم إلا بمعرفة اللغة العربية. وعليه بدأت سلطات الاحتلال بالقضاء على المؤسسات التعليمية والدينية، بالاستناد إلى مبدأ رئيس هو محاربة اللغة العربية واعتبارها لغة أجنبية.(داهش: 18-19).

وعليه فإن فرنسا بعد احتلالها العسكري للجزائر،سعت بكل ما تملك من قوة ونفوذ في خطوتها الثانية للقضاء على اللغة العربية، والتي كانت تريد من وراءها قطع كل صلة بين الشعب ودينه وتاريخه، خاصة محاولة نزع كتاب الله من صدور المسلمين من خلال القضاء على لغة القرآن، ومن هذا المنطلق كانت الحرب على اللغة العربية هدفها تجهيل الشعب ومحو ثقافته وقطع كل صلة بماضيه العريق.و"كشف الاستعمار عن طبيعته الهمجية وغرائزه الوحشية منذ الأسابيع الأولى من احتلال العاصمة، فبالرغم من أن عملية تسليم السلطة من طرف حكومة الداي لقوات الاحتلال، كانت قد تمت في ظروف أمنية وانضباطية قل أن سجل نظير لها في أية منطقة في العالم في مثل هاته الظروف، لقد وضع الفرنسيون أيديهم على جميع ممتلكات الدولة من عقار وأموال ووثائق كما سلمت أسلحة الجيش والبحرية."(قنان، 1994: 114).

"إن لسياسة الهدم التي استهدفت جميع مقومات مجتمعنا لم يستثنى منها جانب واحد. لقد اعتبرت المساجد من بين الأهداف الأولى لهذه السياسة، فقصة جامع كتشاوة غنية عن التذكير، فخلال ثلاث سنوات فقط من الاحتلال حولت ثلاثة أرباع مساجد مدينة الجزائر إلى أغراض أخرى، فالبعض منها أعطى للتجار الأوروبيين الذين حولوها إلى مستودعات لمعدات ولأغراض أخرى وضيعة، كما تحولت المباني الخاصة بالمؤسسات التعليمية وبالأعمال الخيرية إلى أغراض أخرى غير التي كانت تقوم بها بعدما سلبت منها أراضيها واستولى على الأموال التي كانت بين أيدي الأشخاص القائمين على شؤونها، لتصرف في مجالات أخرى...ومن بين أعمال الهدم الأولى التي قامت بها في العاصمة هو هدم سوق للكتب وهو سوق القيصرية الذي كان يجمع في رحابه نساخين وباعة الكتب، ولم يعوض

لأن الإدارة الاستعمارية رفضت أن تقتطع له مكانا آخر بدل الذي هدمته.(قنان، 1994: 121).

وهذا ما اعتبر من أكبر التحديات التي قام بها الاحتلال الفرنسي،إذ أن محاولاته المتعددة في القضاء على هوية الشعب الجزائري من خلال تحطيمه لكل معالمه الحضارية التي من شأنها تعليمه وتنويره وتعميم ثقافته العربية الإسلامية.و"لم تهتم الإدارة الفرنسية بالجزائر بوثائق الدولة-بل كانت عُرضة للسلب والنهب على يد عدد من الموظفين والمسئولين من الجيش المعجبين بالخطوط العربية والتركية وبالأختام، حيث كانوا يقتنونها لجمالها، ونستطيع أن نؤكد أن كل وثائق وتقارير الدولة الجزائرية قبل سنة 1830م قد ضاعت ولم يسلم من ذلك إلا الدفاتر الكبيرة الحجم التي لا يمكن نهبها، ويبدو أن الأكثرية الساحقة من تلك الوثائق قد ضاعت، ذلك أن عددا من الأشخاص قد عثروا واشتروا من بعض مكتبات باريس والجزائر مجموعة كبيرة من الوثائق."(حمودة، 1999: 32).

وعليه فإن الاحتلال الفرنسي اتخذ منذ البداية سياسة استعمارية واضحة في القضاء على الشخصية الجزائرية بتدميره لكل ما يغذي فكر الجزائري وينمي علمه، فراح يحطم ويقضي على كل المؤسسات التعليمية والتربوية الموجودة بالمدن والقرى التي كانت قائمة آنذاك.

"وقد قامت الإدارة الاستعمارية فعليا بتطبيق سياسة القضاء على الشخصية الدينية والثقافية للمجتمع الجزائري، وذلك باتباعها أساليب مختلفة قلصت من عدد المساجد واستولت على الأوقاف الإسلامية وقضت على دورها بمراسيم مختلفة وأمرت بالاستيلاء عليها حينا، وأعطت الحاكم العام حق التصرف في الأملاك الدينية بالتأجير والكراء حينا أخر."(مهديد، 2006: 18).

استعمل الاحتلال الفرنسي أبشع الطرق والمناهج في طمس هوية الشعب الجزائري من خلال القضاء على كل مصادر ثقافته الوطنية. وإبعاده عن إطاره الحضاري والثقافي العربي الإسلامي. فعمل على نسف كل مقومات المجتمع الجزائري بضرب كل ما له صلة بالإسلام واللغة العربية، وكذا تجهيل الجزائريين بمحو التعليم العربي الإسلامي، وتمكين اللغة والثقافة الفرنسية في البلاد.إذ عمدت السلطات الاستعمارية إلى السطو على كل أملاك الشعب الجزائري، وعلى رأسها الأوقاف الإسلامية ووضعها تحت تصرف ومراقبة أملاك الدولة الفرنسية، هذه الأخيرة التي كانت الممول الأول لمختلف النشاطات التعليمية والاجتماعية والدينية والخيرية بالجزائر. وكان أول قرار أصدره كلوزيل بشأن الأملاك كان في 8 سبتمبر 1830م، ومما جاء فيه: إن كل الدور والدكاكين والمخازن والحدائق والأراضي والمحلات والمؤسسات، مهما كانت، يدخل في أملاك الدولة (الدومين) ويجب أن تستثمر لحسابها.(سعد الله، 1992، ج1: 74).

"فقد أثبتت الوقائع التاريخية أن الجزائر لم تكن إطلاقا، قبل العدوان البشع عليها، بأقل من أي دولة أوروبية أخرى حضارة أو تقدما، بل لقد كانت الحركة التعليمية قائمة في الجزائر حتى عام 1830م، على قدم وساق فكان يوجد بها حوالي (3000) مدرسة ابتدائية وكانت جامعات الجزائر الأربع الشهيرة خير دليل على ذلك التقدم وهي: جامعة الجزائر، قسنطينة، تلمسان ومازونة."(عاشوراكس، 2009: 116).

وإضافة إلى تلك المعاهد والجامعات التي وجدت في مختلف مدن الجزائر، كان التعليم في الزوايا الكبرى مزدهرا. ولم تكن المواد المُدرسة في هذه المعاهد تختلف عن المواد التي كانت تدرس في باقي العالم العربي."(فرحات، 2005: 35).

وبذلك يعتبر التعليم أهم عناصر بناء المجتمع العلمي والثقافي، وأهم رابط لتحقيق التقدم الاجتماعي والاقتصادي لأي بلد. إذ كانت المؤسسات التعليمية في الجزائر قائمة، والتي شملت جميع المدن والحواضر سواء في الشمال أو الجنوب.

إن ما يعرف عن الاحتلال الفرنسي أنه منذ الوهلة الأولى أي بعد سقوط مدينة الجزائر مباشرة، قد صاحبه اقتراف لأبشع الجرائم في حق الجزائريين، طالت أرواحهم وأملاكهم وأموالهم ومقدساتهم ثم تلتها بقية المدن الجزائرية الهامة كوهران عام 1831م وعنابة عام 1832م وبجاية ومستغانم عام 1833م إلى أن شمل كل البلاد.حين أباح ذلك الاحتلال كل ما هو ممنوع ومحرم، دون ضمير ولا حسيب، فقام" بانتهاك المقدسات، كالاعتداء على المساجد بالهدم أو تحويلها إلى محلات أو مساكن للعسكريين أو مصالح إدارية أو كنائس أو كاتدرائيات بالعشرات. وأهم المساجد المتضررة جامع كتشاوة بالعاصمة، حين قام الاحتلال بقتل وجرح جمهرة من 4000 جزائري من المعتصمين، وحوله يوم 24 ديسمبر 1832م إلى كاتدرائية القديس فيليب."(بلاح، 2006، ج1: 65).

لقد كثرت أعمال الاحتلال الوحشية والشنيعة ضد الأهالي وممتلكاتهم،وحتى الأموات لم يسلموا من همجيته، وفي هذا الخصوص قام جنوده بانتهاك حرمة الأموات، حين قام بعض العسكريين ومن لا ضمير لهم بفتح ونبش القبور والأضرحة بمختلف المقابر الإسلامية خاصة بالعاصمة، باحثين عن الكنوز والأموال، كما قاموا أيضا بنقل عظام الموتى إلى فرنسا وبيعها لمعامل التحويل كمساحيق خاصة بمدينة مرسيليا وغيرها.وفي ذلك ذكر الدكتور سعد الله "أن أفظع ما حدث أيام الاحتلال الأولى تلك الفضيحة التي هزت الرأي العام الجزائري والفرنسي، ونعني بها تهريب عظام الموتى المسلمين من الجزائر إلى فرنسا لاستخدامها في فحم العظام وتبييض السكر".(سعد الله،1992، ج1: 86).

وهذه الحقيقة يؤكدها أيضا الدكتور جمال قنان حين ذكر أن "من بين الأعمال التي بقيت منقوشة في ذاكرة الأجيال من الجزائريين هو ما حدث بالنسبة لهدم المقابر ونبش القبور وبيع عظام الموتى وتسويقها إلى مدينة مرسيليا لأغراض صناعية."(قنان، 1994: 121).

لقد عرفت الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي بكثرة المؤسسات التعليمية التي وُجدت بكامل ربوعها، إذ كان الشعب حريصا على تمويل الهيئات الخيرية من دور الأوقاف عبر كامل البلاد، سواء لسد متطلبات المدرسين وإيواء الطلبة وحتى صيانة تلك المؤسسات. فكان التعليم يشمل جميع الفئات، وتواجدت المدارس في كل مدينة وقرية، وضمت كل مدرسة مكتبة للإطلاع والمعرفة. إلا أن "الإدارة الاستعمارية كان رد فعلها هو العمل على تجهيل الأهالي فهدمت معظم المدارس وأغلقت الكثير، وراقبت الباقي، وقاومت التحاق الأطفال الجزائريين بمؤسسات التعليم الفرنسية،ففي عام 1870م كان هناك 36 مدرسة ابتدائية عربية فرنسية و1300 تلميذا، ومعهدان عربيان فرنسيان، وثلاث مدارس دينية إسلامية...وفي حدود عام 1890 لم يكن يرتاد المدارس الابتدائية من أبناء الأهالي سوى 1.9% من مجموع الأطفال الذين هم في سن الدراسة وهذه النسبة لا تمثل سوى 10 آلاف طفل."(بوعزيز، 2007: 43).

ومن بين أهم النتائج المباشرة بعد عمليات "مصادرة الأوقاف ونفي العديد من العلماء وترهيب الباقين،ترك الفرنسيون التعليم يموت دون الإعلان عن ذلك رسميا، إشتغلوا بالاستيلاء على الأراضي وتوطين أبناءهم فيها ومحاربة المقاومين، وأهملوا كل ما يتعلق بتعليم الجزائريين."(سعد الله، 1998، ج3: 21).

ومن خلال هذا يمكن القول على أن" أعظم ما تمتاز به الإدارة الفرنسية بالجزائر هو محاولة نشر الجهل، وتعميم الأمية بين طبقات الشعب الجزائري، حتى لا تقوم له قائمة، أو يشعر بشخصيته ووجوده."(رمزي: 140).

"لقد حدد بوجو، الذي سيعين واليا عاما خطته بهذا الخصوص في خطاب ألقاه في مجلس النواب في 15 جانفي 1840.قبل استلام وظيفته بسنة وبضعة أشهر، عندما بين أنه لكي تكسب فرنسا الحرب في الجزائر يجب أن توجه جهدها ضد المقومات المادية التي يرتكز عليها الشعب الجزائري."(قنان، 1994: 120).

ففي السنوات الأولى من الاحتلال وبالتوازي مع ما حصل من نهب للثروات الوطنية واستيلاء على الأراضي الخصبة الشاسعة، التي تم توزيعها على الكولون الجدد وعلى المؤسسات الاستعمارية المختلفة، راح يوظف كل ما لديه من قوة، ظاهرة أو باطنة، للقضاء على مصادر الثقافة الوطنية. فهدم كثيرا من المساجد، وحول أعدادا كثيرة منها إلى كنائس أو ثكنات أو مستوصفات وحتى إلى ملاهي لجنوده."(الزبيري، 1999، ج1: 20).

عُرف عن الاحتلال الفرنسي باجتهاده المتواصل في قطع الصلة بين حاضر وماضي الشعب الجزائري خاصة فيما تعلق بالإسلام واللغة العربية، وكانت لهذه السياسة إنعكاسات خطيرة على حاضر ومستقبل الشعب، فقد اتخذت سياسة استعمارية واضحة منذ البداية بغية القضاء على مقوماته الروحية والمادية مست جميع ميادين الحياة سواء سياسة أو إجتماعية أو اقتصادية أو ثقافية، وبذلك فإن تعمده في القضاء على المؤسسات التعليمية وتحطيمها (سواء المساجد والزوايا والكتاتيب وغيرها) فهو بذلك يمحو كل مقومات الشخصية الجزائرية ويقضي على واقع الثقافة والفكر وعقيدة الأهالي بصفة عامة،ويدفع بهم إلى السير نحو طريق الجهل والتخلف وإبعادهم عن انتمائهم العربي الإسلامي.

إن عمليات الاستيلاء على أملاك الأهالي وتحطيمها كانت لها نتائج كارثية على المجتمع، وأهمها كان في "إفقار الجزائريين وانخفاض مستويات معيشتهم إلى أحد أدنى المستويات في العالم بسبب تدمير أملاكهم ومواشيهم ومصادرة أراضيهم، فتحولوا من مُلاك أرض إلى عمال زراعيين يستعبدهم المستوطنون، وتضاءلت الأجور، حيث كانت تتراوح ما بين نصف فرنك وفرنك ونصف عن 14 ساعة من العمل اليومي في مطلع القرن العشرين، أما مساكنهم فلم تكن سوى: الكوخ المسمى (القربي)، أو الخيمة."(بلاح، 2006: 161).

وفي هذا المجال تطرق مصطفى الأشرف في كتابه الجزائر الأمة والمجتمع حول الأحوال المزرية التي عاشها الجزائريون بعد احتلال الجزائر مستشهدا بذلك ببعض من شهادات المؤرخين الأوروبيين "إن هذا الاستيلاء على الأملاك الخاصة ألحق ضررا كبيرا

بمن كانوا يعيشون من إيجار عماراتهم، ويقول المؤرخ ليسبس بأن (الأهالي المجردين من أملاكهم بدون أي تعويض، بلغ الشقاء إلى حد التسول)، وتحدث المؤرخ روزي عن الأضرار الفادحة التي ألحقها الجنود بالديار، وتهديم المنازل المسكونة، وقلع الأبواب والشبابيك، وقطع أشجار الفواكه ليستعملوا الحطب في التدفئة" فقد جاء في(جداول المؤسسات الفرنسية لعام 1838) نقلا عن أوغستين بيرك، ما يستفاد منه بأن الحالة العامة التي آل إليها سكان الحواضر تتخلص كما يلي: إن مجيء الأوروبيين وتزايد عددهم قد ألحقا ضررا كبيرا بالتجارة. وكان إبعاد ونفي معظم الأغنياء المسلمين قد أدى إلى نقصان حركة البيع والشراء بشكل ملحوظ، كما أن هدم العمارات من أجل تصفيف الشوارع وتوسيعها، ورفع ثمن الإيجار، والاستئجار قد كان له وقع أشد على التجارة، وهكذا أخذ عدد الجزائريين يتناقص في العاصمة."(الأشرف، 2007: 202-203).

هذا وقد عرفت المناطق الجنوبية من الجزائر نفس المصير ولم تسلم من دمار وظلم المحتل الفرنسي الذي سعى إلى القضاء أيضا على مراكز التعليم من زوايا ومساجد، وهو بذلك استولى وحطم ونهب الممتلكات والمعالم الحضارية بالشمال كما بالجنوب، فقد "تدهورت وضعية السكان المعيشية بشكل رهيب، وعليه فالمناطق الجنوبية أصبحت تحت وطأة الفقر والمجاعة والأمراض والأوبئة الفتاكة، بعدما صودرت منهم كل ممتلكاتهم وتعرضهم لمختلف وسائل الاستعمار الفرنسي البشعة، الأمر الذي أدى إلى تناقص عدد السكان."(عميراوي، 2009: 148).

أصبحت مظاهر التخلف الاجتماعي والاقتصادي والثقافي أهم سيمات تميز بها المجتمع الجزائري حينذاك، بدءا من انعدام أبسط ضروريات العيش الكريم وصولا إلى قسوة التخلف والجهل،" مما كان لها أثار سيئة وخيمة العواقب في ميادين مختلفة على الجزائريين. فقد تم تحطيم العائلات الجزائرية الكبرى التي كانت تمثل القيادات للمجتمع الجزائري روحيا، وماديا، بل وحتى إداريا واجتماعيا، وسياسيا، ومزق المجتمع الجزائري شر ممزق وشرد

وأفقر. وتم تحطيم ما دعي بالبرجوازية الجزائرية في المدن الكبرى، وكانت تتألف من التجار، والحرفيين، والقضاة، والمثقفين، فشُردوا كذلك وزاحموا في أعماقهم وأنشطتهم المختلفة من طرف الجالية الأوروبية التي كانت تتصف بالشراهة في ميدان الاقتصاد، والغلظة والقسوة في ميدان السياسة والإدارة.وقد انجر عن هذه السياسة الاقتصادية المجحفة أثار سيئة على نمو السكان الأهالي. ولم يسكن منهم في المدن سوى 6.9% عام 1886 و7.6% عام 1906 و10.8% عام 1931."(بوعزيز، 2007: 35-38).

وفي الختام يمكن القول أن الفرنسيين منذ بداية احتلالهم الجزائر، قد حاولوا بكل ما يملكون من قوة ونفوذ في القضاء على المقومات المادية والمعنوية للمجتمع الجزائري، منتهجين في ذلك بكل الوسائل والطرق في سبيل تجريد الشعب الجزائري من هويته العربية الإسلامية وطمسها.وذلك باستهداف مصادرة واستيلاء على أملاك الوقف التي كان لها الدور البارز في الإشراف على التعليم الإسلامي، بالإضافة إلى تخريب وهدم معظم المؤسسات والمراكز التعليمية والتثقيفية من مساجد ومدارس وزوايا الموجودة بالمدن والقرى، والتي كانت منبرا لنشر العلم والثقافة الدينية في أوساط عامة الناس، وهي أهم خطوة كانت لها نتائج كارثية على حاضر الأمة ومستقبلها،ليتم استهداف كل ما يمثل من شخصية الشعب الجزائري وكل مقوماته من دين ولغة وثقافة لأجل فرنسة الأهالي من خلال المحاولات الكثيرة لتغيير تفكيرهم وعاداتهم وتقاليدهم وحتى دينهم.

هذا ما عرف عن تاريخ الاحتلال الفرنسي في الجزائر، أما بتونس فلم تعرف نفس المصير، فعند احتلالها لم تهدم منشآتها ولم تخرب معالمها الحضارية، كما أن مساجدها لم تحول إلى كنائس وكاتدرائيات مثلما حدث في الجزائر.(Golvin,1985, 206)

وبطبيعة الحال فإن السياسة الاستعمارية في الجزائر كانت تهدف إلى طمس الشخصية الجزائرية والهوية الثقافية، من خلال احتلال الأرض وتهديم البُنى التحتية وتراثها

الحضاري، باستعمال وإباحة كل الوسائل، إلا أن استحالة اجتثاث العروبة والإسلام لدى الجزائريين حال دون تحقيق هذه السياسة في الجزائر.

2. تثمين الماضي اللاتيني القديم

إن إثبات الوجود التاريخي للرومان بالمنطقة، هو المنطق والذريعة التي استخدمتها فرنسا لإثبات أحقيتها على الجزائر وتثبيت احتلالها، أي أن الوجود الفرنسي يستمد شرعيته من الوجود الروماني القديم، وبالفعل فقد طبق الفرنسيون عند احتلالهم الجزائر كل السياسات التي طبقها الرومان أثناء احتلالهم لشمال إفريقيا، الذين حاولوا جاهدين لإنجاح المشاريع التي تعثر أسلافهم الرومان فيما قبلهم.

لقد إقتنع الفرنسيون بضرورة الربط التاريخي بين العهد الروماني وحاضر الاحتلال الفرنسي من خلال محو أثار إحدى عشر قرنا من البربرية حسب زعمهم والتي كانت تفصل بين الوجود الروماني والفرنسي وإقامة المدن الفرنسية الحديثة على أنقاض المدن الرومانية القديمة.(Ch, DeRotalier (1841), T1, 11)

"وقد حفر الفرنسيون منذ الوهلة الأولى عن الآثار المسيحية، مستفيدين من الخرافة تارة، وكتب الرحالة تارة أخرى. فقد كانت الروايات تزعم أن الجامع الكبير (الأعظم) كان مبنيا على هيكل ديني مسيحي قديم، فعمل الفرنسيون على تعرية أساس الجامع المذكور لعلهم يكتشفون آثار ذلك الهيكل. وزعم مُنجموهم وكُتاب أخبارهم أن الجامع الجديد (الحنفي) قد بناه عبد مسيحي، وأن الأمر كان قد صدر له لبناء مسجد فبنى هو كنيسة، ونسبوا إليه أنه قال: عندما يحتل المسيحيون هذه المدينة سيكون لهم هذا الجامع كنيسة."(سعد الله، 1992، ج1:80).

عمل كل من الاستعمار الإسباني فيما قبل والفرنسي فيما بعد إلى تبرير تدخلهما واستعمارهما للجزائر من خلال تمجيد الاحتلال الروماني وتعظيم حضارته، ولأجل تحقيق ذلك"فقد تعرضت المدن الجزائرية لعمليات الطمس والمسخ والتشويه بكيفية فظيعة جدا لمعالمها الحضارية: العمرانية والفنية والتاريخية، والثقافية والدينية، وخاصة العربية الإسلامية

وذلك من طرف الإسبان والفرنسيين الذين بذلوا كل جهودهم لإثبات أن هذه البلاد كانت أوروبية قبل أن تكون عربية إسلامية وعملوا واجتهدوا على ما يلي:

1: أن يُثبتوا أن مدن وقرى الجزائر الكبيرة من تأسيس الرومان والبيزنطيين وكأن هذه البلاد قبل الاحتلال الروماني كانت خالية من السكان والعمران، وليس بها أي أثر للحضارة، وهي نظرة استعمارية بحتة لا تحتاج إلى أي دليل لدحضها.

2: أن يُحيوا ويكشفوا الغطاء عن كل الآثار العمرانية التي ترجع إلى عهود الرومان والبيزنطيين ويدرسوها، لإثبات مزاعمهم وهو ما فعلوه في بطيوة وشرشال وتيبازة وجميلة، وتيمقاد وتبسة وقالمة وعنابة، وغيرها.وغاب عن أنظارهم بأن هذه الآثار شيدت بسواعد أجدادنا، ومهاراتهم وبإمكانيات بلادهم الاقتصادية.

3: أن يهدموا ويطمسوا، ويخربوا، كل آثر للحضارة العربية الإسلامية كالمساجد والمدارس والزوايا والقصور والمكتبات، والكتاتيب القرآنية، وغيرها، ليفقدوها طابعها الإسلامي الشرقي ويقنعوا الأجيال بمزاعمهم وأقوالهم، وهذا ما فعلوه بالمدن التاريخية الكبرى والهامة."(بوعزيز،2009:5-6).

إن الاحتلال الفرنسي لأرض الجزائر"لم يكن مجرد عمل استعماري يعني بالبحث عن مصادر الثروة والمواد الخام والأيدي العاملة الرخيصة والأسواق المفتوحة، ولكن كان عملا آخر يتلخص بإبادة السكان الأصليين وتوطين أوروبيين في الجزائر لتكون الامتداد اللاتيني لفرنسا عبر المتوسط... وعندما تحققت للفرنسيين هذه الخطوة الأولى، وارتفع علمهم على الأرض الجزائرية بدأت خطتهم توضع في الممارسة والتطبيق، لأجل ذلك ساروا في طرق ثلاث، جميعها تعمل على إبادة العنصر الوطني وتوطين الأوروبي مكانه، وهذه الطرق هي: إيجاد تقسيم إداري جديد والقيام بالنهب الاقتصادي للبلاد وأخيرا نزع الجزائري من أصوله القومية."(القوزي، 1999: 469-470).

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على النوايا الحقيقية للاحتلال الفرنسي حين بلغ هذه الأرض. إذ عمل على تثبيت وجوده بكل الطرق والوسائل الممكنة، وكان الهدف هو إبراز فرنسا وإنجازاتها لأجل توصيل فكرة إثبات الخلفية الفكرية والإيديولوجية والسياسية

لصالحه. فشكل نوعا من الدعاية الثقافية العمرانية المتمثلة في تغيير كل ما له صلة بأصالة هذا الشعب"ومن آثار التغيير أيضا تبديل أسماء الشوارع والأبواب والمؤسسات. بإعطائها أسماء رومانية وأوروبية، ودينية مسيحية وتاريخية."(سعد الله، 1992، ج1: 70).

لتكون في الأخير الأولوية بالنسبة للسلطات العمومية، هي تعزيز الشعور بالانتماء الفرنسي للمدينة الأوروبية، سيما بإعادة تثمين ماضيها اللاتيني، وتوضيح مجد الأمة، واستثارة احترام فرنسا والخوف منها. ضمن هذا المنظور، نعثر غالبا على أسماء كبيرة من تاريخ فرنسا المعاصرة متمثلة في شخصيات أو معارك."(ريسلر، 2016: 134).

لقد ساهم كثيرا العسكريون الفرنسيون خاصة ما تعلق بتقاريرهم وكتاباتهم حول وجودهم بالجزائر،إذ ظل اهتمامهم وتركيزهم مُنصب حول "تبرير سلوكهم، فهم يتذرعون ويلتفتون إلى ما تبقى من آثار الماضي العتيق، ويعلنون في تكبر وعجرفة بأنهم الورثة المباشرون للإمبراطورية الرومانية، وأنهم يستعيدون في الجزائر ما كانوا قد فقدوه من أرزاق وممتلكات، فهذا مثلا كافينياك مستغرق في التأملات أمام صليب من العهد الروماني-المسيحي، منقوش على صخرة في مدينة موزاية، فيقول:بما أنها (روما) قد حكمت هنا، فما علينا إلا أن نواصل عملها.حيث كان كافينياك يجمع بمنتهى العناية كل الشواهد المتصلة بالاحتلال الروماني، مهما كانت صغيرة، لكي يقتفي الأثر الذي تركه هؤلاء الفاتحون المثاليون، كان شديد الإعجاب بأساليبهم العسكرية، ومجدهم الذي طالما تحدثت عنه الكتب، وكان خبيرا في الآثار، فاهتم اهتماما كبيرا بالحفريات، فأمر بإجرائها لكي يستخرج الآثار التي تبرهن للبدو بأن الأوروبيين لهم حقوق قديمة في امتلاك البلاد. فقد كان حلمه أن يجدد بناء المعبد المتهدم فوق نفس الأساس القديم، وأن يهديه إلى روح الأسقف ريباراتوس، واستعان في مشروعه بأحد الرهبان. فما كان منه إلا أن لبى طلبه وجاء لينحني إجلالا على رفاة سلفه، ولإعداد ما يلزم لاستئناف العبادة بين جدران كاستيلوم تانجيتانوم المشيدة.(الأشرف، 2007: 283-284).

ومن جهة أخرى سعى المُنصرون الذين رافقوا العسكريون في تثبيت هذه المزاعم، وساهموا كثيرا في إخضاع مقاومة الثوار الجزائريين للاحتلال، وارتبط هذا النشاط بالمشروع الاستعماري الفرنسي مستخدمين أساليب مختلفة تهدف كلها إلى تحقيق تطلعات الكنيسة النصرانية بإفريقيا الشمالية وخاصة الجزائر. وبالتالي كانت أعمالهم تصب كلها في استمرارية ترسيخ العقيدة النصرانية التي دعى إليها أجدادهم في السابق.إذ "سعى المنصرون أثناء الاحتلال الفرنسي للجزائر إلى تمسيح الوسط قبل تمسيح الروح، وقد تم ذلك عن طريق المحو الكلي أو الجزئي للمظاهر الدينية الإسلامية في المجتمع الجزائري، إضافة إلى بناء الكنائس والأسقفيات التي تعمل على نشر التعاليم المسيحية، ويمكن إجمال عملهم فيما يلي:

أولا: تمسيح العمران. وقد تم ذلك بمحاولة محو الطابع الإسلامي المميز للمدن خاصة مدينة الجزائر.

ثانيا: تمسيح المؤسسات الدينية والتضييق على الأئمة وعلماء الدين."فقد أقدم جيش الاحتلال منذ الوهلة الأولى على تمسيح المؤسسات الدينية مثل: المساجد والزوايا، أو على تدميرها أو تحويلها إلى أغراض أخرى.(عميراوي، 2009: 105).

استغلت فرنسا الاستعمارية بعد تفوقها العسكري على الجزائر تطبيق كل المناهج والسياسات التي من شأنها إضعاف كل مقاومة لها، لأجل السيطرة الكاملة والمطلقة على ارض وشعب الجزائر، ومن بين السياسات التي اجتهدت على تطبيقها سياسة فرق تسد، والتي أرادت من وراءها تثبيت وجودها، وهي سياسة اشتهرت بها الإمبراطورية الرومانية في العصور القديمة بشمال إفريقيا، وبذلك كانت إحدى أهم الخطط التي اعتمد عليها الاحتلال لتوطيد دعائمه،وبذلك أشاد الفرنسيون بكل الأعمال التي قام بها أسلافهم الرومان في القديم، معتمدين على ربط ماضي شمال إفريقيا المسيحي بالحضارة الغربية التي عادت بالوجود الفرنسي في الجزائر، وكان القصد منها هو امتداد المدنية اللاتينية بالمغرب العربي، مؤكدة

بأن هذه البلاد قد طبعت منذ العهد الروماني بالطابع المسيحي.(بقطاش، 2007: 137-138).

لقد أصبحت فكرة تسويد صورة الفترة العثمانية بالجزائر عُرف متوارث، خاصة لدى مؤرخي الاستعمار الفرنسي، إذ زعم المحتل الفرنسي صراحة أنه يعيد توطيد السلام والرفاهية الرومانية في أرض الجزائر.(ريمون، 1986: 34).

إن فكرة إعادة إثبات الوجود اللاتيني بالمنطقة قديم، فكانت عملية تثمين الأعمال التي قام بها الرومان في الجزائر إحدى أهم التبريرات والدعاية التي استعملها الاحتلال الفرنسي لغاية استيطان الجزائر. وكان من البديهي للجزائريين أن الرومان فيما قبل كانوا أيضا محتلين ومستعمرين، مثلهم مثل أحفادهم الفرنسيين، لا يختلفون عنهم سوى في الزمان لا غير، إذ كانوا يمثلون استعمارا استيطانيا سيطروا من خلاله على البلاد والعباد، فكلا الاستعمارين تميزا بنهب الأراضي واستعباد العباد لزمن طويل. بالرغم من سعي الفرنسيين وإصرارهم على اعتبار العهد الروماني عهد مجد وتقدم، وإبرازه على أنه عهد حضارة وازدهار، إلا أنه كان عهد تخلف حضاري بالنسبة للأهالي المحليين. وما تلك المخلفات المادية من مدن ومسارح وغيرهما عبر ربوع الجزائر لازالت قائمة، فقد بناها عشرات الآلاف من الأهالي الذين ماتوا وهم يشيدونها، ليستغلها ويعيش فيها ويفتخر بها المستعمرون دون سواهم.

وفي الأخير يمكن القول إن الفرنسيين عملوا منذ الوهلة الأولى على طمس ومحو معظم المعالم الحضارية والتراث المادي واللامادي للجزائر، خاصة التي تعود إلى العهد الإسلامي، فهدموا الجوامع والمساجد وخربوا قصبات وشوارع معظم المدن الجزائرية، زاعمين التنقيب عن المخلفات والإنجازات التي تعود إلى الفترة الرومانية لأجل تثمين وتمجيد الماضي اللاتيني في الجزائر وتبرير احتلالهم وإظهار عظمة التراث الروماني القديم، في مقابل إنكار ماضي وتاريخ وحضارة الشعب الجزائري، وهي محاولات باءت كلها بالفشل

نتيجة وعي وإدراك الشعب وتمسكه بأرضه وماضيه، وجهاده ومقاومته للاحتلال الفرنسي منذ أن دخل جنوده أرض الجزائر.

3. أثار سياسة الاستيطان الأوروبي على نشاط مدن الجزائر

منذ بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر تعرضت معظم المعالم الحضارية الإسلامية من بنايات وقصبات وغيرهما إلى التخريب والهدم خاصة بالمدن الكبرى، حين سعى الفرنسيون بكل ما يملكون من قوة ونفوذ إلى تدمير وتحطيم لكل المنشآت والمنجزات العمرانية التي تعود إلى العهد الإسلامي، إضافة إلى طمس كل المقومات الروحية والمادية وكل ما له صلة بماضي الجزائر وتاريخها،والتي تحمل قيم حضارية وتاريخية مشتركة مع المسلمين.وفي المقابل حاول الاحتلال الفرنسي الاستثناء والمس لكل المخلفات التي تعود للعهد الروماني بالجزائر حتى تكون حجته في الاستقرار بالبلاد.

ومن بين أهم الطرق والمناهج التي استعملت في تحقيق السيطرة الكاملة على البلاد ومحاولة محو شخصية الشعب الجزائري التي تكونت بفعل التراكمات التاريخية، هو الاعتماد على عمليات تهجير السكان الأصليين وإعمار مكانهم من الفرنسيين والأوروبيين، أو بمعنى أخر تطبيق سياسة الاستعمار الاستيطاني ومعناه االتوطين في الأرض المحتلة، ذلك الذي يعد من أقدم أشكال الاستعمار، إذ تتوافر في هذه المستعمرات نسب كبيرة من المستعمرين بسبب الهجرة من البلد الأم لاستغلال ثروات هذه المستعمرة والإقامة فيها.(نبهان، 2008: 23).

إن الاستيطان بصفة عامة هو أخطر أنواع الاستعمار، خاصة إذا ما تمكن من سلب ومصادرة الأراضي من أصحابها في مقابل جلب المهاجرين وإتاحة لهم فرص الاستقرار والاستثمار فيها،وهذه الأخيرة كانت تجربة ونموذجا جربته فرنسا في الجزائر وحاولت تعميمه وتطبيقه على دول ومستعمرات أخرى.بالرغم من أن عملية اجتثاث الشعب من أرضه ليست بالعملية السهلة، وهذا ما وقع فعلا مع الاحتلال الفرنسي للجزائر.

لقد عرف موضوع الاستيطان في الجزائر جدلا كبيرا حول إمكانية مباشرته قبل إكمال السيطرة وانتهاء الحرب، وفي هذا الإطار اقترح ألكسي دو طوكفيل(1805-1859) المؤرخ

والمنظر والسياسي الفرنسي من خلال النصوص التي كتبها عن الجزائر في بدايات غزو فرنسا لها واحتلالها فيما بعد، والذي كان من المؤيدين للاحتلال التام والاستيطان، أي مسايرة الاحتلال العسكري مع الاحتلال المدني،وحين ذاك كتب مدافعا عن أفكاره " لقد قلت وأكرر أنه ما لم يكن لنا سكان أوروبيون في الجزائر، فإننا سنبقى مخيمين على الساحل الإفريقي ولن نستقر هناك. إذن ينبغي أن نجعل الاستيطان والحرب يسيران معا."(دو طوكفيل، 2008: 61).

لقد تقرر الاستيلاء على أراضي الجزائريين منذ الوهلة الأولى، وشملت كل المناطق التي وصلها الاستعمار، ففي مدينة قسنطينة ومن خلال شهادة بول بورد الصحفي في جريدة LE MONITEUR UNIVERSELوخلال زيارة وفد من مجلس الشيوخ الفرنسي للجزائر عام 1879م،فقد لاحظ هذا الأخير أن الأوروبيين استولوا على جميع الأراضي السهلية والمستوية بالمنطقة لأجل بناء سكنات للمستوطنين، ما أدى بالضرورة إلى تناقص عدد السكان الأصليين في مقابل زيادة عدد المستوطنين(Bourde,(1880), 66).

هذا بالنسبة لمدينة قسنطينة أما عن مدينة الجزائر، فإذا كان مجموع عدد سكانها يقدر ب52708 نسمة سنة 1876م، فإن عدد السكان الجزائريين قدر بحوالي 11013 نسمة فقط أي خمس العدد الإجمالي للسكان.(Bourde,(1880),272)

وهذه إحدى الدلائل على تأثير الاستيطان على الناحية الاجتماعية للسكان المحليين، فكلما زاد عدد المستوطنين كلما تقص عدد الجزائريين، وهي معادلة منطقية لما قام به هؤلاء المستوطنين بعدما تملكوا أراضي وأملاك الجزائريين وطردوهم من مدنهم وحتى من وطنهم.

لقد باركت فرنسا خطواتها في تشجيع الهجرات بصفة عامة حين قامت حكوماتها "بتشجيع هجرة الأوروبيين إلى الجزائر واستقرارهم فيها بمنحهم الأرض مجانا أو بأسعار رمزية تدفع في أجال طويلة، وبتجهيزهم بالعتاد، وإمدادهم بالقروض الميسرة، وتشييد القرى، وتعبيد الطرق، ومد سكك الحديد، وبناء السدود، ومد قنوات الري، وتوزيع الكهرباء وغير ذلك من المرافق والخدمات."(بلاح، 2006: 251).

فكان من الطبيعي تزايد عدد المستوطنين الأوروبيين خلال السنوات الأولى في الجزائر، إذ قدروا بحوالي 11221 شخص عام 1835م، ليرتفع هذا العدد إلى 14561 عام 1836م، من بينهم 5485 فرنسي فقط، حيث كانوا يقيمون في المدن الكبرى على غرار الجزائر ووهران وعنابة وبجاية ومستغانم.(Pellissier (1839), t3, 190)

وهذا ما يدل على حرص الاحتلال الفرنسي على تشجيع وتوسيع حركة الاستيطان لتمس مختلف الجنسيات الأوروبية، وتوطينهم في الجزائر والسعي لإغرائهم خاصة بمنح وتوزيع الأراضي الخصبة عليهم، بعدما تطلب ذلك انتزاعها قسرا من أصحابها الشرعيين تارة، ومن خلال إصدارها لترسانة من القوانين والتشريعات تارة أخرى، لتقوم بتوزيعها على هؤلاء المهاجرين والقادمين من مختلف أنحاء بلدان أوروبا، وبذلك يتخلص معظمهم من الفقر والبطالة التي كانوا يعانون منها في بلدانهم،إلى أن أصبحوا أصحاب أملاك وعقارات، وفي مقابل ذلك اضطر الكثير من الجزائريين إلى الهجرة والهروب إلى المناطق الجبلية والنائية والصحراء وحتى إلى خارج البلاد. خاصة إذا علمنا أن المجتمع الجزائري مجتمع زراعي، والأرض ومنتوجاتها هي مصدر وأساس رزقه.

"إن حركة الاستيطان في بدايتها الأولى رافقتها مناقشات فكرية، وظهور نظريات متعددة حول المناطق الأصلح للاستيطان الأوروبي، فقد قام الطبيبان (ريكو Ricoux) و(بورديهBordier) بدراسة جغرافية فلكية، حول خطوط الحرارة المتساوية، ونصحا الأوروبيين بالاستقرار في شمال خط عرض (25°). وهو الخط الذي يمر بمدينة معسكر غربا إلى باتنة ثم عين البيضاء شرقا، وكان ذلك يعني الاستقرار في المناطق والسهول الشمالية. ولذلك لا غرابة أن نجد فيما بعد نشاط الحركة الاستيطانية، والجهود السياسية والدبلوماسية تحت أغطية سياسية متعددة، وممارسات عسكرية يتخذ من المدن الشمالية، والساحلية تحديدا إطار نظاميا وجيواستراتيجيا لفرض أيديولوجية التوسع والتوطين، والنهب والاستلاب، والاستغلال من أجل إحكام السيطرة الكلية على منابع ومنافذ الثروة الاقتصادية."(عميراوي، 2007: 73-74).

إن عملية نزع الأراضي من أصحابها الشرعيين أدى إلى تصدع وخلخلة في البناء الاجتماعي والاقتصادي للسكان، حيث امتدت أثارها طيلة مدة الاحتلال. "وقد اتبع الفرنسيون سياسة صارمة في اقتلاع القبائل من أماكنهم بالقوة ووضع مستعمرين أوروبيين محلهم، غير أن ذلك لم يكن حلا معقولا للمشكلة الاستعمارية إذ لم يكن من الميسور طرد جميع العرب والبربر نحو الصحراء وكان من الضروري احتلال الجبال والسهوب الداخلية ووضع خطة شاملة لتوزيع القلاع والحصون في أنحاء البلاد."(الجوهري، 1970: 198).

اجتهدت السلطات الاستعمارية الفرنسية وسعت لأجل تسهيل توطين المستوطنين بالمدن الجزائرية وإزالة كل العراقيل التي من الممكن أن تؤثر على استقرارهم فيها، بعدما أرغموا السكان الأصليين للمدن على النزوح منها كرها، لذا كان احتلال المدن سريعا على خلاف القرى والريف الذي كان بطيئا، فحاجة المستوطنين لدور ومساكن المدن كانت من أولوياتهم. وقد أسفرت هذه السياسة عن انتشار المستوطنين وتركزهم في المدن الكبرى لتوفرها على البنية التحتية من دور ومساكن ومحلات تؤدي غرض الاستقرار لهؤلاء المستوطنين، الذين أصبحوا يكونون الأغلبية في المدن الكبرى على غرار مدينتي الجزائر ووهران وعنابة في أول الأمر، ثم شملت باقي المدن الجزائرية.

ففي السنوات الأولى للاحتلال عُرف عن عهد الحاكم العام كلوزيل (1835 و1836)" أنه نشط في تطبيق سياسة الاستيطان الحر والرسمي، وصمم على تحويل سهل متيجة وقراه العمرانية إلى وطن حقيقي للمهاجرين الأوروبيين الوافدين من فرنسا وأوروبا، وحضرت أفواج عديدة منهم من إسبانيا، وإيطاليا، ومالطة وجزر البليار، وسويسرا وباريس ومرسيليا، أغلبهم من الصعاليك والمنحرفين وذوي السوابق، وسيطروا على كل الأراضي والمباني، والقرى والغابات الساحلية بشكل فوضوي لا مثيل له، بعد أن طردوا منها سكانها وأرغموهم على النزوح والهجرة تحت سمع وبصر كلوزيل وأمثاله من ضباط الاحتلال الفرنسي. وقد شجع هذه العملية وتحمس لها، وأنشأ قرية بوفاريك غرب مدينة الجزائر وأخذ

يُوزع الأراضي والآلات والحيوانات مجانا على المستوطنين الأوروبيين الجدد تشجيعا لهم على الاستقرار والبقاء."(بوعزيز، 2007: 8-9).

لم تعرف البدايات الأولى للاحتلال الفرنسي بناء القرى الاستيطانية بشكل كبير في الجزائر، إلا أنه مع زيادة "الهجرات تم التفكير في بناء قرى استعمارية استيطانية، حيث تم بناء قريتين فقط على المستوى الوطني سنة 1835، لكنه بداية من سنة 1850 تم بناء 126 قرية استعمارية، ثم ارتفعت إلى 558 سنة 1880 لتصل 736 سنة 1890 و794 سنة 1920 و928 سنة 1929."(عميراوي، 2007:48).

شكلت المقاومة التي قادها الشعب الجزائري على الاحتلال الفرنسي عائقا مُهما أمام سياسة الاستيطان والتي أربكتها لمدة عقدين من الزمن على الأقل."وما إن جاءت سنة 1850م حتى بلغ عدد الأوروبيين المدنيين في الجزائر 130 ألف. فأصبح الغزو مدنيا واقتصاديا بعد الغزو العسكري، وبانتهاء العمليات الحربية تبين للسلطات الفرنسية أنه من الميز للمعمرين أن لا تقضي على وجود الجزائريين في المناطق التي تمركز فيها هؤلاء المعمرين. ولكن على شرط أن لا يكون للجزائريين إلا حد أدنى من الأراضي.إن تغيير الحكم في فرنسا من نظام ملكي إلى نظام جمهوري لم يتبعه تغيير يذكر بالنسبة للسياسة الفرنسية في الجزائر. فما إن جاءت سنة 1860 حتى أصبح عدد الأوروبيين في الجزائر 200 ألف منهم 120 ألف فرنسي وكل هؤلاء أصبحوا يملكون أحسن الأراضي."(الشريط والميلي، 1965: 216).

لقد ساهم كل من العسكريين والمدنيين في توطيد الاستيطان، كل حسب قدراته وتأثيره، واهم الشخصيات المؤثرة آنذاك الحاكم العام بوجوالذي كانت له نظرة حول هذا الموضوع فأدرك "أن استيطان الفرنسيين في الجزائر سيعمل على خلق حامية دائمة في هذا القطر، تساعد قوات الاحتلال ويمكنها أن تأخذ مكانها في يوم من الأيام".(يحي: 220).

ولتحقيق هذا المسعى عمل هذا الأخير على تشجيع ازدياد عدد المستوطنين، الذين انصب اهتمامهم على الاستثمار في الأراضي وفي مساحات شاسعة وهو الميدان الأكثر

جذبا لهم، وحل المستثمرون الأجانب محل الملاك الأصليين، الذين أبعدوا قسرا عن أملاكهم، وبذلك وجدت فرنسا الحل الشامل لمعظم مشاكلها الداخلية خاصة الاجتماعية، والتي كان أهمها الحد من البطالة المتفشية، وإيجاد مناصب شغل لألوف العاطلين عن العمل، إلى جانب تصريف فائض من سكانها إلى الجزائر.

بعد نجاح الحملة العسكرية تبعها المهاجرون من كل الأصول، الفرنسيون والإسبان والإيطاليون هاربين من البطالة والفقر. وهكذا صارت الجزائر مستعمرة استيطانية لكل أولئك الأوروبيين الذين كانوا يبحثون عن أحسن ظروف الحياة أو عن الثراء. فكان لا بد من تمكينهم من الأراضي المنبع الأول للثراء والعمل على بناء القرى والمدن وأن تستغل الثروات الباطنية وتحت تأثير السلطة العسكرية أراد هؤلاء القادمون الجدد أن يكونوا قادة المؤسسات الإدارية المماثلة للوطن الأم وأن يتعاملوا كالسادة مع الجزائريين."(قداش، 2008: 151).

وابتداء من النصف الثاني من القرن التاسع عشر"صار العدد الإجمالي للمهاجرين الأوروبيين في الجزائر كلها حسب تقرير قيادة الأركان لعام 1866 كما يلي:

الجدول رقم1

السنة	المهاجرين	زيادة بنسبة مئوية
1851	132708	/
1853	142379	%7.28
1854	151712	%6.55
1855	155607	%2.56
1856	158282	%1.72
1857	180471	%14.02
الزيادة لمدة ست سنوات	47764	%35.99

"وتضاعف عدد المستوطنين بعد ظهور الجمهورية الثالثة سنة 1870م مثل ما هو مبين فيما يلي:

الجدول رقم 2

السنوات	العدد
1870	245500 نسمة
1880	376800 نسمة
1890	500900 نسمة
1900	610000 نسمة
1911	792000 نسمة
1921	400791 نسمة
1936	946000 نسمة
1948	922300 نسمة
1958	948000 نسمة

المصدر: الجدولين رقم1 ورقم2 ،(عميراوي، 46:2007-48).

وكانت من نتائج الهجرات الأوروبية للجزائر بناء قرى استعمارية استيطانية مختلفة، لاستيعاب العدد الهائل لهؤلاء القادمين وتوفير لهم الظروف الملائمة للحياة والاستقرار."ولكي تُسهل حياة المستوطنين الأوروبيين، وتُذلل مصاعبهم الاقتصادية، تم إلغاء الحواجز الجمركية بين الجزائر وفرنسا عام 1851، وانشأ بذلك بنك الجزائر في أوت من نفس العام، وبورصة الجزائر في أبريل 1852، ونجحت في زراعة القطن منذ عام 1850، وزراعات: التبغ والكروم، والبطاطا، والنباتات العطرية، وتم التوسع في زراعة القمح الصلب كأهم منتوج زراعي للبلاد، واهتمت الإدارة الاستعمارية بإنشاء شبكة من الطرق البرية، والحديدية، والجسور الكبرى، منذ مطلع الخمسينات وخاصة ابتداء من 1857."(بوعزيز، 2007، 17).

عكف النواب الفرنسيين والإدارة الاستعمارية مع مرور الوقت على تخطيط وتهيئة كل الظروف لتحقيق وإنجاح المشروع الهام والمصيري والمتمثل في "مشروع إنشاء ثلاثمائة قرية استيطانية جديدة في الجزائر خلال ثلاث سنوات، ابتداء من سنة 1881 نصفها(أي 150 قرية) ستُبنى على مساحة ثلاثمائة ألف هكتار، تعتزم السلطات أن تفتكها من الأهالي، لذلك طلبت الإدارة الاستعمارية في الجزائر اعتماد خمسين مليون فرنك لبناء هذا المشروع." (مياسي، 1996: 131).

ويتضح لنا أن التوسع العسكري شكل مع التوسع المدني سياسة استيطانية متميزة في الجزائر، إذ شمل هذا الاستيطان كل جهات الوطن من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب، ومن خلاله نهبت كل ثروات البلاد وشرد الأهالي، فكانت مناطق الشمال أولى المناطق المتضررة زمنيا من ويلات الاحتلال، لتشمل باقي البلاد في مرحلة لاحقة. مما اتضح أن الساسة والقادة الفرنسيين كان همهم الأكبر هو الاحتفاظ بالجزائر، واستغلال كل ثرواتها إلى الأبد.

وكغيرها من مناطق الجزائر لم تسلم المناطق الجنوبية من المعاناة التي كانت قد عانت منها المناطق الشمالية، من نهب الثروات واستغلال الأهالي، "إن سياسة التوسع الفرنسي في الجنوب الجزائري كانت نقمة وكارثة حقيقية على الاقتصاد الصحراوي الجزائري، ويتجلى لنا ذلك من خلال استنزاف الثروات الباطنية، وتنمية الفلاحة المضاربية التي تحصلت على فوائدها الشركات الرأسمالية الإمبريالية الاستعمارية منذ 1880م،والاستغلال غير العقلاني للثروات المعدنية الباطنية مثل منجم الفحم الحجري بالقنادسة ببشار، والقضاء على تجارة القوافل وذلك بإنشاء العديد من الطرق بجانب الخطوط الحديدية، بحيث أصبح يتم نقل البضائع والسلع الصحراوية عن طريق العربات والشاحنات،وتراجعت تجارة القوافل التي بدأت تتلاشى شيئا فشيئا ابتداء من سنة 1890، وتراجع تسويقها وخاصة إنتاج التمور، وتراجع الاقتصاد الريفي المنتشر في الواحات الصحراوية، وخاصة في منطقة واد ريغ التي بلغ فيها الاستثمار الأجنبي في غرس أشجار النخيل نسبة كبيرة، والقضاء على الثروة الحيوانية التي تراجعت بنسبة 80%بسبب نظام العشابة التي فرضته السلطة الفرنسية على مربي المواشي."(عميراوي، 2009: 135-138).

وبفعل هذه السياسة فإن الأحوال المعيشية في المناطق الشمالية والجنوبية للجزائريين زادت سوءا خاصة الاقتصادية والاجتماعية، وفيما يخص"التاريخ الاقتصادي للجزائر، فيمكن أن نسمي الفترة التي تبدأ حوالي 1880(بعد الاستقرار السياسي الذي عرفته البلاد، من الحرب والاستنزاف والخراب الاقتصادي وكذا نهاية إحدى كبريات الانتفاضات الوطنية عام 1871) بعهد الكروم بالتخصيب أولا، ثم بتنمية الأنشطة التي أدت إلى تكثيف الأعمال وإلى

الهجرة. ولقد نجم عن هذه العوامل مجتمعة، نمو صناعة البناء. حيث عبئت رؤوس الأموال المتأتية من التجارة والفلاحة ووظفت توظيفا مربحا."(إيشبودان، 2007: 214).

وفي هذا العهد "عُرف عن الاستيطان الأوروبي توسعه في الأرياف، كما توسع كذلك في الحواضر وكان أكثر ازدهارا، ونشاطا، وتطورا، اجتذب عناصر أوروبية مختلفة اهتمت بممارسة الأنشطة التجارية والصناعية والخدمات الاجتماعية والوظيف العمومي، وبلغ عددهم 260ألف شخص ما بين 1870-1900. وحتى عام 1872 كان 60% من الأوروبيين يسكنون المدن والقرى العمرانية الكبيرة، ثم ارتفعت هذه النسبة إلى 63.6%عام 1886 وإلى 65.4% عام 1906 وإلى 71.4% عام 1926."(بوعزيز، 2007: 34).

والجدير بالملاحظة أن أثار سياسة الاستيطان الأوروبي على مدن وحواضر الجزائر التي ورثت عن العهد الإسلامي عامة والعهد العثماني خاصة، كانت نقمة على سكانها الأصليين الذين تناقص عددهم نتيجة سلب ممتلكاتهم وتهجيرهم قسرا، إذ عرفت معظم بنايات وإنشاءات تلك المدن وهياكلها إما التخريب والهدم أو التغيير، في مقابل تزايد عدد المستوطنين والذين شكلوا أكبر نسبة سكانها، مما ترتب على هذه الزيادة آثار سلبية على المستويات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وعلى استقرار المجتمع الجزائري.

وفي مقابل ذلك تحسنت معيشة المستوطنين الذين اتخذوا من دور وقصور الجزائريين إقامة لهم، وزادت فرص الازدهار والنمو لديهم بتوفير ومجانية الخدمات كالتعليم والخدمات الصحية ومزايا أخرى، بينما عانى السكان الأصليون من الإهمال وانعدمت أمامهم كل الظروف المعيشية الحسنة، التي قلصت من الحياة الكريمة كالسكن اللائق، وانعدام خدمات الصرف الصحي الذي زاد من انتشار الأمراض والأوبئة... الخ.

وفي الأخير يمكن القول أن الاستعمار الفرنسي حاول تطبيق السياسة الاستيطانية الذي خطط لها، إذ نجح في عملية الغزو والاحتلال والسيطرة العسكرية والإدارية

الواسعة،وكذلك في إقامة كيان اجتماعي ونظام سياسي في الجزائر، لكنه فشل في تحقيق الهدف الكبير والمتمثل في ربط الشعب الجزائري حضاريا بفرنسا. وفشل كذلك في الانفصال عن فرنسا على الرغم من محاولات المعمرين وضباط الجيش الوصول إلى هذا. فكان الفشل خلاف ما وقع في أمريكا وجنوب إفريقيا.(عميراوي، 2004: 107).

وبالموازاة مع هذه الأحداث زاد إصرار الشعب الجزائري على مواصلة الكفاح والمواجهة ليتحرر من تلك الظروف، متحديا في ذلك من كل الحواجز ومختلف التحديات التي فرضها الاستعمار الغاشم الذي واصل في إقامة البُنى الأساسية من هياكل قاعدية في القرى والمدن عبر كامل ربوع الجزائر،يقطنها المستوطنين دون غيرهم، وأصبح حال المدن الجزائرية كالمدن الأوروبية بعدما تم التغيير في نمطها العربي الإسلامي إلى الأوروبي الغربي بما يتماشى ورغبة المستوطنين.الذين صاروا أصحاب أملاك سواء في المدن أو الأرياف ينتجون ويزرعون ما تحتاجه فرنسا.في حين عرف الجزائريون حياة التشرد والبؤس، وأصبحوا أجراء وخماسين عند هؤلاء المستوطنين بعدما كانوا أسياد وأصحاب أملاك.

المبحث الثاني: حالة مدن إيالة الجزائر بعد الاحتلال الفرنسي

1. حالات الهدم الكلي والجزئي والتغيير في المباني والمنشآت

عرف الشعب الجزائري مباشرة بعد الاحتلال الفرنسي مأساة ومظالم وتجاوزات لم يسبق لشعب أخر أن عاشها عبر التاريخ. فأول خطوة اتخذها الاحتلال الفرنسي بعد الاحتلال العسكري هو تنفيذ عمليات التهديم والتغيير التي طالت معظم الانجازات الحضارية للجزائر،كما عمد إلى طمس شخصية وهوية الشعب الجزائري أيضا، من خلال القضاء ومحو كل معالمه الروحية التي تربطه بالدين الإسلامي ولغته العربية، بعد أن أحكم الاحتلال سيطرته على كل الأوقاف الإسلامية التي كانت قائمة آنذاك،إذ عمد مباشرة إلى تحويل المساجد والجوامع إلى كنائس وكاتدرائيات وثكنات وغيرها، كما كانت معظم المنجزات والمنشآت العمرانية في جميع مدن الجزائر عُرضة للتخريب والتحطيم، حيث علل الاحتلال

همجيته حينذاك بعمليات مد وتوسيع الطرقات وفتحها، وكذا إقامة بنايات وشوارع تتماشى مع متطلبات عساكره وحتى عصرنة الأحياء والشوارع الجزائرية التي أصبحت لا تتماشى مع رغباته ومتطلباته الجديدة، ومن ذلك بدأت تتحدد أولى المعالم لمدن وحواضر على النمط الغربي-الأوربي. وتجسد ذلك على أرض الواقع" ابتداء من 6 جويلية، حين استولى المنتصرون، بدون مراعاة المعاهدة، على الديار والدكاكين والمساجد ونهبوا العديد من الممتلكات في الضاحية. لقد تم دك أحياء بأكملها."(قداش، 2008: 13).

باشرت السلطات الفرنسية في تنفيذ مخططاتها الإجرامية المتمثلة في إبادة الشعب الجزائري، حين عمدت على القيام بحرب شرسة على كل ما هو جزائري-إسلامي رغم توقيعها على المعاهدة التي التزمت بموجبها احترام حقوق وأملاك الجزائريين وكذا ديانتهم وأوقافهم. فقد "تعرض الشعب الجزائري بذلك لأخطر عملية هدم وتخريب ومحو على يد الاحتلال الفرنسي لم يسبق أن تعرض لمثلها في الماضي منذ غزو الوندال، وقد فتك الاستعمار بكل وحشية بجميع مقومات المجتمع من عنصر بشري وموارد مادية ومقومات روحية بالهدم تارة والإبادة والقتل تارة أخرى، دون توقف أو كلل طيلة الأربعين سنة الأولى من تاريخ الاحتلال. لقد اعتقد الاستعمار أنه قد قضى على جميع منابع الحياة لمجتمعنا وأعفى أثارها إلى الأبد.هذا هو تاريخ الاستعمار في بلادنا وهذه هي قصتنا معه، إنه مما يلفت الانتباه أن سياسة الهدم هاته لم تحظى بأية دراسة مستقلة متخصصة لحد الآن بالرغم من خطورتها وآثارها الضارة التي ألحقتها بالبلاد."(قنان، 1994: 113).

لقد تمكن الفرنسيون"خلال وقت قصير من هدم مئات المنازل في الجزائر لإقامة ساحة الحكومة وغيرها. وكانت طريقة البناء تجعل سقوط البعض يؤدي بالضرورة إلى سقوط غيره معه بالتتابع، لأن البنايات كانت متلاصقة ببعضها البعض والشوارع ضيقة. أما إذا هطلت الأمطار أثناء عملية الهدم فإن ركام البنايات يزداد ضخامة. ومن المشاريع التي لجأ

فيها الجيش الفرنسي من أجلها إلى هدم المنازل والمساجد والأضرحة هي ساحة الحكومة، والمسرح، والكنيسة والفندق. الخ."(سعد الله، 1992، ج1:70).

إن حالات الهدم والتخريب التي طالت كل المنشآت والإنجازات التي عرفتها البلاد وبدون استثناء، جعلت كل من يتصفح تاريخ الجزائر في تلك المرحلة وبالخصوص عند بداية الاحتلال يتحسر ألما ويفيض غيضا لتلك الوحشية الممنهجة في القضاء على تاريخ وشخصية الجزائر، فقد كانت حسرة ومأساة حقيقية لمن عايشوها وضاقوا مرارتها آنذاك. "لقد ترك لنا حمدان خوجة صورة تقطر ألما لعملية التدمير المنظمة هاته التي اتبعتها سلطات الاحتلال، عندما بين أنه لكي تهيئ الساحة التي أطلق عليها ساحة الحكومة (ساحة الشهداء حاليا) هدمت خمسة أسواق عمومية. كما هدمت ثلاث مساجد من بينها جامع السيدة الذي يعتبر من أقدم المساجد بالمدينة إلى جانب عدد كبير من المساكن ومرافق عمومية أخرى مثل المراحيض وغيرها. وهذا التهديم كله يحدث من أجل إعداد ساحة عمومية لا تتلائم مع تخطيط المدينة ولا مع حجمها، كما دون ذلك حمدان خوجة في مذكرته لملك فرنسا.هذه حقائق أثبتتها اللجنة الإفريقية نفسها في التقرير الذي أعدته لحكومتها على إثر المهمة التي قامت بها في الجزائر من أجل دراسة الأوضاع بعد ثلاث سنوات من الاحتلال، وما جرى في مدينة الجزائر من السلب والنهب والتهديم هو نموذج اتبعته سلطات الاحتلال في جميع مدن البلاد التي امتد إليها نفوذها بعد ذلك."(قنان، 1994: 117-118).

لقد أظهرت فرنسا نيتها في القضاء على الماضي الإسلامي الأصيل للجزائر سواء كان ماديا أو معنويا وبكل وحشية ودون مراعاة للقوانين والأعراف، ولا حتى الجانب الحضاري أو الإنساني.

وعليه كان الفرنسيون منذ غزوهم الجزائر أخذوا يطمسون معالمها العربية الإسلامية الشرقية ويحلون محلها المعالم الفرنسية الغربية. وقد شمل ذلك كل المدن وبدون استثناء ولكن بدرجات متفاوتة. وقد شرعوا في ذلك منذ الوهلة الأولى، مما يدل على عزمهم على

البقاء والاحتلال الدائم خلافا لمن كان يزعم أنهم كانوا مترددين. وشمل هذا الطمس أيضا تغيير الشوارع وأسمائها، وتهديم المنازل والأسواق القديمة وإحداث الساحات الواسعة مكانها، إلى جانب تحويل الدور والقصور إلى مؤسسات عمومية ومستشفيات ونحو ذلك تخدم الجيش، وقد سلبت الدكاكين والورشات وغيرهما من الجزائريين ليتاجر فيها الأوروبيين، كما كانت عمليات تحويل المساجد إلى كنائس ومخازن وتهديم بعضها نهائيا دون استبدالها بأخرى أثر كبير على نفسية الأهالي، ونفس المنهج اتخذ مع المدارس والكتاتيب والزوايا،كما زادت من المأساة تهجير ونفي السكان. وبذلك عرفت الأحياء العربية أكبر التغيير في هياكلها ومخططاتها العمرانية الإسلامية.

ومن أبرز المدن التي تأثرت بذلك منذ الوهلة الأولى هي العاصمة، وقد امتاز الطمس الذي عرفته بالعنف والعنجهية والتعصب لأنها كانت في نظر الفرنسيين، رمزا للقرصنة والقوة والدين الإسلامي والجهاد، ولأنها كانت مقرا للسلطة التي طالما دوخت الأساطيل الأوروبية وأرعبت تجارها وقناصلها."(سعد الله، 1992، ج1:66-67).

وهكذا وبعد مرور أربعة عشر سنة من الاحتلال الفرنسي أصبح الطابع المعماري لمدينة الجزائر يشبه المدن الفرنسية، ولا يمكن التمييز بين ما هو موجود بتلك المدن والجزائر خاصة ما تعلق بالبنايات التي برزت بالناحية السفلى للمدينة والمجابهة للواجهة البحرية .(219Berteuil (1856), tome 1,)

كانت فرنسا تعلم أن بالقضاء على أثار وفنون الجزائر يعني اقتلاع جذور الأمة وسحقها من الوجود. لكن بقيت هذه الأمة صامدة رغم كل المحن التي مرت عليها عبر الزمن، إذ عجز المحتل من تحقيق مراده،وفي تغيير كل ما هو أصيل من منشآت ومباني تخدم مصالح المستعمر لا غير" فالقصور والأحواش الريفية الخاصة، قد استولى عليها الفرنسيون عند الاحتلال، وتحولت إلى أملاك الدولة، ونصبت فيها الإدارات والمحاكم والمصالح الأخرى كالمتاحف والمكتبات وإقامات رجال الدين ورجال الجيش... وقبل أن

تستقر هذه الآثار في أيدي السلطات الفرنسية وتنتصب هيئة الآثار والفنون الجميلة، تعرضت إلى الهدم والنهب. ففي أتون الحملة العسكرية خلعت الأبواب والنوافذ لعدد من هذه المباني الحزينة، بدعوى أن فيها خزائن الذهب والفضة وكنوز أغنياء الجزائر. وتعرضت الفسيفساء والزليج الذي كان يغطي الحيطان إلى التكسير والإقتلاع بحثا عن الثروات المخبوءة. وبذلك فقدت الجزائر الكثير من آثارها وفنونها... وقد اختفت مساجد كثيرة، دون مراعاة الخسارة الأثرية ولا الوطنية. كما تهدمت أجزاء عديدة من القصبة في العاصمة، واختفت أو كادت تختفي قصبات معظم المدن الأخرى: قسنطينة وعنابة وبجاية ومستغانم ووهران. ولولا أن القصور سكنها أعيان الأوروبيين ومنظماتهم واستخدمت لمصالحهم لكان أمرها كالقصبات والمساجد والأضرحة. والغريب أن أحد الكتاب الفرنسيين يقول إن سكن الأوروبيين للقصور والأحواش هو الذي أنقذها من التخريب."(سعد الله، 1998، ج8: 399-402).

تفنن الاحتلال الفرنسي في القضاء على كل المقومات المادية والمعنوية للجزائر حتى أن بلغت أعماله من الدرجة ما لا يصدقه عقل ولا يرضاه عاقل، فبالإضافة إلى كل تلك الهمجية والوحشية التي قضى فيها على معظم إنجازات وشواهد الفترة الإسلامية سواء بهدمها كلية أو جزئيا كان المُراد منه قطع كل صلة بالماضي العربي الإسلامي للجزائر، بعدما استعملت السلطات الاستعمارية مختلف الوسائل والطرق للتعبير على قوتها وغلبتها.

إن سعي الاحتلال الفرنسي من عمليات الهدم والتخريب كان القصد من وراءها هو التغيير في الطابع العمراني للمدن الجزائرية الأصيلة، محاولا تبديلها من طابعها الشرقي الإسلامي إلى الطابع الغربي الأوروبي، وكأنه بذلك أراد تغيير ومحو كل أثار وماضي الجزائر، بالإضافة إلى محاولاته تغيير سكانها الأصليين بسكان أوروبيين، ومدنها بمدن أوروبية، فالهدف كان واضحا، وهو محو وطمس هوية شعب كامل بكل مقوماته وتاريخه وإرثه وحضارته.

"كان للمدن الجزائرية سواء في الشمال أو الجنوب طابع مميز، ولكن هذه المدن عانت من الهدم المنظم على يد الاستعمار الفرنسي بعد احتلال الجزائر، فخربت قصبة مدينة الجزائر وقصبة تلمسان وقصبة عنابة وقصبة وهران وقصبة مدينة المدية، ولم ينج من هذا الهدم سوى مدن الجنوب الجزائري مثل غرداية وتيميمون وأدرار وغيرها، ومصيبة الاستعمار الفرنسي أنه هدم مدننا ووضع على أنقاضها مدنا أوروبية بلا روح ولا طابع ونستثني من ذلك ما شيده الحاكم الفرنسي جونار في الجزائر خلال بداية القرن العشرين، الذي كان له إعجاب بالطابع العمراني العربي الإسلامي، فشُيد في عهده مقر ولاية الجزائر ومركز البريد المركزي.أما المدن المغربية فلم تشهد نفس المصير على يد الفرنسيين أثناء قيام نظام الحماية في المغرب الأقصى، ولم تعاني تونس بنفس المصير أيضا الذي وقعت فيه الجزائر."(سليماني، 2007: 213).

ظهرت أولى أهم نتائج التهديم والتغيير فيما عرفته العاصمة الجزائر،وذلك من خلال هدم ثلثها خلال السنوات الثلاث الأولى من الاحتلال فقط، فكان مصير معالمها التغيير في بنيتها الثقافية والاجتماعية بالإضافة إلى السطو على الأملاك. فكانت البداية الفعلية الواسعة للاستعمار الأوروبي في العالم العربي وإفريقيا."(بلاح، ج1: 66).

ومما تجدر ملاحظته أن مباشرة فرنسا لعمليات التهديم والتحطيم الواسعة للممتلكات العقارية للشعب الجزائري كان الغرض منها محو شخصية هذا الشعب، فكان القضاء على المؤسسات التعليمية وتهديم معظمها كارثة على حاضر ومستقبل العلم والتعليم،فتعمدوا إلى حرمان أبناء الشعب الجزائري وإبعادهم عن تلقي العلم والمعرفة، وفي المقابل شجعوا أبناء المستوطنين على التعليم وتحفيزهم بشتى الطرق والوسائل،" ولعل أعظم ما تمتاز به الإدارة الفرنسية بالجزائر محاولة نشر الجهل، وتعميم الأمية بين طبقات الشعب الجزائري، حتى لا تقوم له قائمة، أو يشعر بشخصيته ووجوده.وفي هذا الإطار صرح عميد الجامعة الجزائرية أمام لجنة الإصلاحات الإسلامية في يناير 1942 بمدينة الجزائر أن بين 1.250.000

طفل وطني في سن الدراسة 100.000 فقط خصصت لهم 699 مدرسة، وأن عدد الأوروبيين حسب الإحصاء 900.000 وعدد أبنائهم الذين يتمتعون بالتثقيف والتعليم الابتدائي 200.000 طفل خصصت لهم 1400 مدرسة."(رمزي: 140).

"وكثيرة هي المؤسسات الدينية والتعليمية التي مسحها (من المسيحية) الفرنسيون أو هدموها أو أعطوها إلى الجيش أو بيعت كأملاك للأوروبيين يتصرفون فيها. ويمكن تصنيف مصير المؤسسات على هذا النحو: مساجد بقيت كما كانت، ومساجد حولت إلى كنائس فبقيت أيضا في هيكلها كما كانت، ولكن مع إدخال تعديلات عليها، ومساجد هُدمت في حينها أو أعطيت لمصالح عسكرية ومدنية في أول الأمر ثم هدمت في تواريخ لاحقة، ثم مساجد هُدمت من أول وهلة."(سعد الله، 1992،ج1: 82).

وبذلك فإن عمليات الهدم التي طالت المنشآت الموجودة بالمدن والحواضر والتي كان على رأسها المؤسسات الدينية والتعليمية من مساجد وزوايا ومدارس كان لها أثار ونتائج مست عمق المجتمع الجزائري،فكانت نتائجها أشد فتكا وضررا، ولا تقل خطورة ووحشية من الأسلحة الظاهرة والتي تكمن خطورتها في استمرارية أثارها ونتائجها على مستقبل الجزائر.

كما لا ننسى أن الاحتلال بهمجيته قد سعى إلى القضاء على مصادر ثقافتنا الوطنية وفي هذا الإطار يذكر "دفولكس (Devoulx) ولو بالتقريب ما خلفته الهمجية الفرنسية آنذاك إذ يقول:إنه في سنة 1830م، كان بالجزائر ثلاثة عشر مسجدا جامعا، 109 مسجدا صغيرا، 32 ضريحا ومعاهد، 12 زاوية، فالمجموع : 176 بناية دينية،وبعد الاحتلال وتطبيق سياسة التخريب بدعوى توسيع الشوارع، وتجميل المدينة، ومختلف الادعاءات لتبرير طمس المعالم، كاد إجماع مختلف طبقات الكتاب، فرنسيين وأجانب، مدنيين وبعض العسكريين، أن يتفق على وسم هذه التصرفات بجرائم القرن ضد المدنية والإنسانية، ورأوا أن الداعي لارتكاب هذه الجرائم هو الجهل والحقد العنصري، والتعصب الديني، حيث إنه لم يبق في سنة 1862م من البنايات التي أحصاها دفولكس إلا 9 مساجد كبار، و19 صغار و15

معهدا وأضرحة، و5 زوايا، فالكل 47 بناية. فقد هدم في مدة 32 سنة، 129 بناية دينية، ثم إن هذه البقية لم يبق كلها تحت تصرف المسلمين، بل بقي منها للمسلمين 21 بناية: 4 مساجد كبار، و8 صغار، و9 أضرحة أو معاهد، أما 26 فقد حولت إلى كنائس أو مخازن ودكاكين."(البوعبدلي: 56).

وكان هذا حال معظم المدن الجزائرية التي شهدت نفس المصير تقريبا، إذ حيثما طال الاحتلال طال معه الهدم والتخريب والتغيير،"أما بمدينة قسنطينة فقد تراجع عدد مدارسها من 90 مدرسة إبتدائية عام 1836 إلى نحو 30 مدرسة حسبما ذكر الجنرال بيدو(Bedeau) في مذكراته، وصار يؤمها350 تلميذا فقط سنة 1850 بدلا من 1300 إلى 4001 تلميذ كانوا يؤمون تلك المدارس قبل الاحتلال."(بلاح، 2006: 150).

وفي الأخير يمكن القول أن الاحتلال الفرنسي بمحاولة قضاءه على أهم المخلفات المعمارية التي احتوتها المدن الجزائرية منذ العهد الإسلامي عامة والعهد العثماني خاصة، والتي شملت كل الانجازات والبناءات العديدة التي ازدهرت خلال هذه الحقبة سواء مدنية أو دينية أو عسكرية من مساكن وقصور وجوامع ومساجد وثكنات وحصون وغيرها، التي كانت تمثل ثمرة العمل الجاد لأسلاف الشعب الجزائري، وبمساهمة مختلف الحضارات التي تعاقبت على الجزائر، تاركين بصمات مميزة لعمران الجزائر الذي تكون بفضل تأثير وامتزاج للعديد من الخصائص والطُرز المعمارية الإسلامية على رأسها المحلية والأندلسية والعثمانية بعد استقرارهما في الجزائر، وهذا ما أدى إلى ثراء التراث المعماري المحلي، والذي سعى الاحتلال الفرنسي بكل ما يملك من قوة لقطع كل صلة حضارية تربط الجزائر بماضيها المجيد.

وبصفة عامة عرفت المعالم المعمارية لغالبية المدن والحواضر الاختفاء والاندثار بمجرد استيلاء الفرنسيين على الجزائر في مقابل بروز وتجسيد عمارة جديدة على الطراز

الأوروبي الغربي،والتي تمجد أفكار وثقافة الغالب، وبذلك خطط المهندسون المعماريون لإنجاز وتأسيس منشآت بكل المدن الجزائرية تتميز بطراز حديث وجديد على مجتمعنا الإسلامي ولا تمت له بأية صلة، والتي ستكون بديلة للمدن الأصلية التي كانت موجودة ما قبل الاحتلال.

2. إعادة تخطيط المدن الجزائرية القديمة وبوادر ظهور المدن الاستعمارية

تعود معظم بنايات المدن الجزائرية اليوم إلى الحقبة الاستعمارية المتميزة بالطابع الهندسي الأوروبي، والتي مازالت تحتفظ بهويتها الكولونيالية، إذ أن دخول الفرنسيين إلى الجزائر كان بمثابة بداية بناء المدن الغربية على حساب المدن الأصلية القديمة.

ولأجل فرض وجودهم قاموا بمحو كل ما له صلة بماضي البلاد، خاصة ما تعلق بتشييد نمط جديد من المدن، بعدما لجئوا إلى تهديم أجزاء كبيرة أو كلية من شوارع وقصبات معظم المدن القديمة، والتي شيدت بسواعد الأهالي المحليين عبر الزمن، خاصة ما يعود إلى الحقبة الإسلامية، "في الحقيقة أن بعضا من العدد الهام من عمائر القرن السادس عشر حتى القرن الثامن عشر التي زالت، كانت عثمانية بحتة. ففي الجزائر كانت حصيلة الاحتلال الفرنسي دمارا أو تشويه عدد من الجوامع الهامة التي نشأت خلال الفترة العثمانية. وفي أماكن أخرى كان التحديث سببا في ضياع الكثير منها."(ريمون، 1986:122).

بدأت التغيرات تظهر على ملامح المدن الجزائرية منذ الأسابيع الأولى للاحتلال، إذ كان جيش المستعمر يزعم من وراء عمليات الهدم والتغيير الواسعة لأجزاء كبيرة للأحياء والشوارع هو تلبية احتياجاته العسكرية ظاهريا، وباطنيا هو طمس المخلفات والآثار العربية الإسلامية بمعظم مدن الجزائر، وتشييد مكانها من العمارة الأوروبية التي تعكس ثقافة الغالب وتأكيد قوته وتفوُّقه العسكري والحضاري.إذ عرفت الجزائر المحاولات الأولى خلال العشرية الأولى من الاحتلال (1830-1840)والتي شملت في أول الأمر المدن الساحلية الكبرى

(الجزائر ووهران وعنابة)، بعدما أحكم الجيش الفرنسي وتمركز في المواقع والمراكز الإستراتيجية لفرض الحماية. (Malverti, 230)

وكأُولى الخطوات التي اتخذت في هذا المجال هو تحويل للكثير من الشوارع الضيقة إلى أخرى واسعة ومفتوحة، وإقامة الساحات العمومية التي تلبي التحركات العسكرية والاحتياجات الاقتصادية الاستعمارية، وتبرير إسكان المستوطنين في مساكن وقصور الجزائريين بعدما طردوا وهجروا منها أصحابها وملاكها.إلا أن هؤلاء المستوطنين وبعد مرور فترة من الزمن، لم يستطيعوا السكن والعيش في تلك البيوت، نظرا لاختلاف عادات وتقاليد كل شعب، وهي موروثات يعود أصلها إلى بيئة الإنسان وتنشئته جغرافيا ودينيا.

وعلى إثر هذه الظروف "قررت السلطات الاستعمارية، مع نهاية حرب التهدئة، إعادة السلام وإنشاء مدينتها الاستعمارية خارج أسوار المدينة القديمة للجزائر العاصمة، والتي عرفت انطلاقة هامة في ميدان التعمير، بفضل منتجات الأراضي المحتلة والنتائج المالية المتأتية من الكروم. تستجيب المراحل العمرانية منذ بداية القرن لمتطلبات المجتمع الحضري الأوروبي، أما المجتمع الإسلامي فقد بقي على الهامش طيلة هذه الفترة التي ميزت انتصار الاستعمار."(إيشبودان، 2007: 189-190).

كانت مدينة الجزائر أولى المدن الجزائرية التي عرفت تغيرات جذرية في مورفولوجيتها، بعدما سعى الاحتلال الفرنسي إلى إعادة تخطيطها وتنظيم مظاهر الحياة داخلها لسد رغبات واحتياجات العسكريين والمستوطنين على السواء، وفق خطة موضوعة لتسهيل الحركة داخلها، وبذلك عرفت أولى التغييرات، بداية من الشوارع والطرقات والممرات التي ينتقلون عبرها والتي تشكل شبكة الشرايين التي تمد أطراف المدينة بالنشاط والحركة، بهدف التغيير في المعالم العربية لمدن الجزائر الإسلامية،"فكانت هناك عدة دراسات للمهندسين المعماريين لمشاريع التنظيم العمراني بمدينة الجزائر العاصمة، وركزوا على الطريقة التي يتبع من خلالها التخطيط العمراني تغيرات المشروع السياسي للاستدمار. وهكذا

تجاوزت الأولويات في هذا المجال سريعا المستوى اللازم (بنى تحتية للتموين والتجهيز وتعزيزات) لاكتساب بعد سياسي من خلال إعادة إنتاج النمط الأوروبي في الحياة وتنصيب الرموز. وهكذا، ومنذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر انبثق طابع للهندسة المعمارية العمومية بالجزائر في حكم الجمهورية الثانية: أولا تكييفها المدروس مع الاستلزامات الوظيفية والثقافية لسياسة جديدة تتركز على الحضور الفرنسي التجاري والصناعي على الخصوص، أي عمراني."(ريسلر، 2016: 129-130).

سبق الاحتلال الاستيطاني تنظير إيديولوجي عقائدي، بعيد الطموح لأجل تحقيق غاية مستقبلية أساسية بالنسبة لفرنسا وهي حلم التوغل في إفريقيا، ولا يتم ذلك إلا بالاستحواذ على الجزائر كخطوة أولى وتحقيق غرضهم في البقاء فيها. وتكريس ذلك لن يتأتى سوى بالقضاء ومحو هوية الشخصية الوطنية ومقوماتها المادية بدءا بالعاصمة التي تمثل أولى وأهم المدن الجزائرية."إن النظام الجديد يقابله نظام عمراني جديد، ولئن كان الاحتلال، على مستوى الوطن، قد أقام شبكة حضرية معتبرة فإنه شيده على مستوى الجزائر مدينته الخاصة، بغرض توطين سكان يختلفون عن سكان المجتمع الأصلي المغلوب على أمره، سيكون للنظام الحضري، خلال فترة الاحتلال، منطقه السياسي لتطوير المدينة وفق ما يقتضيه تطوير النظام الرأسمالي الكولونيالي."(إيشبودان، 2007: 10-11).

بدأت قصة بداية العمران الحديث في الجزائر تظهر ملامحها من خلال الوجه العمراني الجديد المتمثل في نمو المدن الأوروبية في مقابل فقدان المدن الحضارية القديمة دورها الوظيفي بالتدريج.إذ "شهدت الحقبة الاستعمارية التفاتات من لدن لفيف من المعماريين الغرباء الذين اجتهدوا في إحياء تراثنا المعماري، من خلال تيار ظهر في أواسط القرن التاسع عشر وابتدأ من مصر والجناح الغربي من الوطن العربي، أطلق الفرنسيون على هذا الطراز من البناء اسم (Arabisance) ونعته بعضهم "بالحداثة" أو "الحداثة الكلاسيكية"،

ووسمه بعضهم "بالعقلانية المحلية"، ويمكن أن نطلق على هذا التيار تسمية "الطراز الغربي المعرب" وهي الأقرب في المعنى والفحوى."(الحلاق، 2012، العدد248:1).

وخلال هذه المرحلة عرفت ظهور جيل جديد من المعماريين الذين اعتبروا أن عمارة العصور السابقة أي لما قبل الاحتلال، بكل ما تملك من عناصر ووسائل وتخطيط أضحت قاصرة عن الرد على المتطلبات الجديدة للنازحين والمستوطنين الجدد ولا تلبي مطالبهم، فهي لا تتلاءم مع ما سيناسبهم ويخدمهم، ولم تعرف حياتهم الاستقرار في ضوء التغيرات الاقتصادية والاجتماعية والصناعية التي طرأت بعد ظهور الثورة الصناعية التي أحدثت تغييرا جذريا في مختلف جوانب الحياة.ويستشهد مصطفى الأشرف بما خلفه المُفكرون الغربيون في تنمية العمران في الجزائر حيث أوضح في كتابه،الجزائر: الأمة والمجتمع أن"الاستفادة من الدراسة التحليلية التي قام بها مارسيل إيمريتالمفكر السان سيموني،الذي عُرف بالدفاع عن هذا التيار بدليل تأليفه لكتاب شامل بعنوان السانسيمونيين في الجزائر، والذي اعتبرهم رجال سياسة واقتصاد،على أن التعمير سوف يكون له أثر حسن في تقدم البشرية جمعاء، خاصة إذا عرفنا بأنه سوف يفتح المجال لتطبيق التجارب الاجتماعية التي تحتاجها فرنسا، والتي ستصبح من الممكن تنميتها في فرنسا إذا ثبتت أنها ناجحة. إن إفريقيا الشمالية بهذا الاعتبار هي أرض تجارب، من أجل تصور جديد للإنتاج، وللمجتمع وللدولة."(الأشرف، 2007: 279).

ظهر التيار السانسيموني، التيار الاشتراكي، في النصف الأول من القرن التاسع عشر بأوروبا على يد سانسيمون، وخلفه أنفونتان الذي أصبح يعرف بالأب الروحي للتيار. وقد آمن السانسيمونيون بغزو الغرب للشرق، في صورة أن يكون الغرب فاعلا والشرق مفعول به. ومن أجل ذلك نادوا بوحدة العالمين،الشرق والغرب وبالاستعمار الذي تقوده أوروبا خاصة فرنسا وإنجلترا وألمانيا، لما تتوفر عليه من علم ومال وإرادة.(عبيد، 2013: 9).

وقد اعتمدت إيديولوجيةهذا الفكر على تأسيس مشروع اقتصادي اجتماعي على مستوى العالم، تكون فيه الصناعة المصدر الأساسي لوجود المجتمع الذي هو أصل كل ثروة ورخاء."ومن السان سيمونيين الذين كان لهم دور خطير في السياسة الفرنسية في الجزائر الجنرال الدوق دومال(Duc d'Aumale) وكذلك الجنرال بيدو(Bedeau) اللذان حكما في الشرق الجزائري. كل هؤلاء وغيرهم سواء عسكريين كانوا أو مدنيين، قد لعبوا أدوارا خطيرة في السياسة الفرنسية في الجزائر على مختلف الأصعدة الاجتماعية والاقتصادية كإقامة المشاريع العمرانية وبناء المدارس والطرق المعبدة والسكك الحديدية."(عميراوي،2004: 125-126).

عرفت الجزائر تطبيق أفكار السانسيمونيين منذ عهد مبكر عن طريق الأب الروحي أنفونتان الذي رأى أن ظروف نجاح المشروع الاستيطاني الذي يتبناه سيكون ناجحا بعدما خابت أماله بمصر. وتركزت أفكاره على أن تكون الهجرة إلى الجزائر أوروبية بينما الاحتلال يكون فرنسيا.وعموما "فإن السياسة الاستعمارية الحضرية، خلال القرن التاسع عشر، كانت تكمن في إنكار المدينة الأصلية، لكونها غريبة عن المحتل، وتطورت هذه السياسة لاحقا نحو الإقصاء ثم تجاهل المجتمع الإسلامي، وتم الإبقاء على السياسة الحضرية التي ولدت من رحم الخطابات التي أسست، كمصطلحات السياسة والاقتصاد للاستعمار في موقفها الأول سواء إزاء الجزائر أو إزاء المدن الأخرى."(إيشبودان، 2007: 193-194).

ومن الواضح أن هؤلاء المُنظرين من عسكريين أو مدنيين الذين تركوا أثارهم البالغة وبصماتهم الواضحة في تجسيد مشروع الاحتلال وتغيير البنية التحية، لهم كفاءات عالية على التنظير والتخطيط "فأنشأوا الشركات الكبرى واستغلوا الثروات فهيأوا الجسور وفتحوا معظم الخطوط الإستراتيجية، كخط قسنطينة-وهران بواسطة السكة الحديدية التي امتدت إلى عنابة بأقصى الشرق الجزائري، حريصين على بعث ثورة في الحياة الاقتصادية واستغلال كل

الثروات المتاحة والبحث عن المجهول (اكتشاف الصحراء) بفضل تأسيسهم لفيالق من الجيش خاصا بالأشغال العمومية في الجزائر".(عبيد، 2013: 33).

كما شهد القرن التاسع عشر نشاطا كبيرا لعبته الكنيسة بُغية احتلال الجزائر وتوطيد التوسع الاستعماري بصفة عامة، والتي كانت مساهماتها كبيرة وفعالة في محو التراث الإسلامي بالجزائر. "إذ يربط أغلب المبشرين والمفكرين بين التبشير والاستعمار ويرون أن لا تناقض بينهما، ما دام الاحتلال يرمي إلى نفس الهدف الذي يقصده التبشير، ألا وهو إنقاذ الأمم من حالة التخلف."(بقطاش، 2007: 12).

وازداد خطر المبشرين الذين كانت لهم نظرة خاصة حول تخطيط المدن الجزائرية، التي كانت لا تتناسب مع معتقداتهم، فكيف لهم تجسيد أفكارهم وتحقيق أهدافهم بوجود الزوايا والمساجد ومختلف المعالم الإسلامية التي تُرسخ للعقيدة الإسلامية في الجزائر؟ وبالفعل فقد حاولوا بكل ما يملكون من قوة وتأثير دون ملل لأجل تهديم وتحطيم لكل ما وُجد من التراث المادي الإسلامي بالجزائر وتعويضه بما يناسبهم ويخدم عقيدتهم.

منذ نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، عرفت المدن الجزائرية بوادر لظهور المدن الاستعمارية التي تلبي حاجيات المجتمع الاستيطاني، خاصة بعدما تأكد أن الجزائر أصبحت مستعمرة فرنسية بامتياز، نتيجة ما تحقق من انجازات واستثمارات في جميع الميادين،وفي مقابل ذلك أقدم بعض المهندسين المعماريين والمثقفين الأوروبيين على رأسهم لوكوربوزييه وبوكنيل الانجليزي وهنري كلاين وغيرهم، الذين أُعجبوا بالتراث المعماري الإسلامي والاستلهام من مختلف الانجازات العمرانية الموجودة بمدن وحواضر الجزائر والتي شيدت قبل عام 1830م، خاصة ما تعلق بالقصبات المختلفة والقصور الجميلة والأحواش الواسعة. والذين سعوا واجتهدوا على حمايتها والمحافظة على نمطها العمراني المتميز، وكان الهدف من وراء ذلك هو تصور مضمون جديد للعمران بعد الاقتباس من الموروث المحلي، لأجل إنشاء المباني والمراكز الحضرية تعكس صورة البيئة والمدينة الجديدة،وإعطاء ذوقا

وجمالية للمدينة الأوروبية في الجزائر. فالعنصر الإيجابي في هذا الموضوع هو حماية تلك الإنجازات وصيانتها، فكانت نتيجة هذا الفعل هو بقاء جزء من مباني العهد الإسلامي، خاصة منها التي تعود إلى العهد العثماني بالجزائر من دور وقصور ومراكز مختلفة صامدة لم يطلها التهديم والتغيير الذي مس معظم البنايات منذ بداية الاحتلال.

ومن بين المهندسين الذين كانت لهم بصمات في مجال العمران في الجزائر نذكر منهم المهندس المعماري لوكوربيزيي Le Corbusierالذي"اختار مدرسة وحيدة لنفسه، هي أن يسأل عن فن البناء في الهندسة المعمارية القديمة والريفية. فأسفاره وجولاته في الشرق معروفة أكثر من تجواله في الجزائر، الأمر الذي أثر على إنتاجه تأثيرا عميقا. فالنصوص التي كتبها في شأن ميزاب مثلا تهيب بذكاء بناة هذا العمران الذي يرجع عهده إلى القرون الغابرة. وبالبساطة الواعية لتلك الهندسة المعمارية التي تمثل القدوة الفضلى، وتشير هذه النصوص خاصة إلى العلاقات الوثيقة بين الفلسفة والحياة الداخلية التي تفوق أهميتها هناك أهمية الحياة في أوروبا بكثير. فمن الدرس المستخلص من حي القصبة وأزقتها الضيقة وواجهاتها التي تبدو منعدمة النوافذ والآبار العميقة التي تجدها في فناء المنازل، من كل ذلك احتفظ لوكوربيزيي بالبناءات العالية الخطوطية التي يمر بها طريق مفتوح لحركة مرور نشطة. وهذا يتفق مع المنطق تماما. ذلك أنه لمس في الأنهج الضيقة (ظلالا ونسيما) ومناعة المارة وانعدام ضجيج المحركات والأبواق والروائح وبخار البنزين."(علي إبراهيم، 1970: 12).

إن النسيج العمراني المشيد بالجزائر جعل هؤلاء المثقفين ينبهرون بثقافة المباني ويطيلون النظر في جماليات فن العمارة التي عرفتها الجزائر والتي ترجع إلى العهد العثماني بلمسة أندلسية خاصة، فالقصور والمنازل والحصون المُشيدة والأزقة والشوارع كلها عناصر مكونة للعمارة الإسلامية، كون أن المعماري الجزائري المسلم حرص على أن تتلاءم عمارته

مع مناخ المنطقة التي يعيش فيها، مُوازيا بين الرطوبة وشدة الحرارة، بالإضافة إلى استخدامه لتصاميم وفق معايير البيئة والتضاريس حسب مناطق استقراره.

واضح أن المختصون اتفقوا على اعتبار العمارة الإسلامية ثروة حضارية وقيمة فنية اتسمت بالتنوع والتطور، كما أنها تميزت بخصوصيات جمالية وزخرفية مُعبرة عن شخصية المجتمع وهويته الثقافية. فكانت الحركة التي قام بها هؤلاء المثقفون بمثابة حماية ووقاية للعديد من المنشآت الجزائرية الأصيلة والسعي لاستمرار وجودها. كما استلهموا كثيرا من تلك النماذج في بناء وتجميل المدن الأوروبية المشيدة بأرض الجزائر خدمة لمصالحهم وليس اعترافا بما تم تشيده في الجزائر.

ومما يلاحظ أن "النمط الموريسكي الجديد يعتبر نمطا معماريا ظهر بالجزائر في بداية القرن العشرين، لغايات متعددة منها ما هو سياسي وإقتصادي وثقافي، كما سمي بأسلوب جونار، نسبة إلى الحاكم العام شارل سيليستين جونار Charles Célestin Jonnart الذي أسدى بتوصياته لكل المهندسين المعماريين على ضرورة إعادة الاعتبار للجمال الموريسكي، إذ يعتبر نوع من التوافق بين النمطين الشرقي والغربي."(Boulbene, (2012), 17).

وبصورة عامة" شهدت الفنون الجميلة في مجموعها، ثورة غير مسبوقة في الجزائر، وقد اشتهرت بعض الشخصيات المقام الأول في تاريخ الحركة، وهم رجال سياسة بالحاضرة الفرنسية أو بالجزائر، وأعضاء في الحزب الكولونيالي وفنانون. وإذا كان ثمة رجل ميز هذه المرحلة ببصمة لا تتمحي، فهو حقا الحاكم العام جونار. وكان الهاوي الكبير للفن، مقربا من الأهالي ومشهورا بينهم كذلك. ولم يكتف ذاك الذي كان البعض يلقبه ب(العربي) ببعث الحرف الأهلية، بل لم يتوقف عن تطوير عناصر ثقافية للتقريب بين الأوروبيين والأهالي. وكان هذا الطموح يمر عبر إنشاء تيار فني جزائري في الهندسة المعمارية والرسم." (ريسلر، 2016: 254).

ولا شك أن "جونار الذي جاء لحكم الجزائر بفكرة استرجاع شخصيتها التقليدية، قد بذل جهده في بناء نماذج جديدة مستوحاة من الطراز القديم، وهو ما سماه بعضهم "بالحركة الموريسكية الجديدة". وظهر ذلك في المباني الإدارية التي بنيت في عهده أو التي تمت بعده مثل البريد المركزي، ومقر ولاية الجزائر، والبلدية وبريد الأبيار، وعمارة جريدة (لاديباش ألجيريان)، ومحطة وهران ومركز سكيكدة. وشارك بعض المهرة من الجزائريين في الخط والزخرفة وفي تطوير هذا الفن، يُذكر أنه جيء بأحد النقاشين والخطاطين من وادي سوفاسمه عمر قاقة لزخرفة البريد المركزي بالعاصمة."(سعد الله، 1998،ج8:403).

والظاهر أن "بداية القرن العشرين عرفت التمييز في مجال الهندسة والتزيين وذلك بتأكيد محاولة إستشراقية تخص البنايات العمومية، تعكس الإرادة العمومية في التقارب الثقافي الفرنسي-الأهلي. وكان الحاكم جونار أحد أعمدة هذه الحركة. وبينما كان الفن الأهلي ينبعث من رماده، كانت البنايات الموريسكية الجديدة تتضاعف:البريد الكبير، مقر ولاية العاصمة، مقر بلدية الأبيار وبريدها، فندق لادياش الجزائرية، محطة قطار وهران، المجموع المركزي لفيليب فيل، كانت هذه المرحلة، المتميزة ببضعة إنجازات مسماة ب"إنجازات على أسلوب جونار" إلى الجمع بين البصمة المحلية والحداثة".(ريسلر، 2016: 262).

يتبين لدينا أن الأوروبيون قد تأثروا كثيرا بالعمارة الإسلامية ونماذجها التزينية والتي كان على رأسها الفن العربي المتمثل في الزخارف التي وصفت بأنها لغة الفن الإسلامي. هذه الأخيرة لها أشكال هندسية أو نباتية مختلفة تقوم على زخرفة القصور والمساجد وغيرها والذي سماه الأوروبيون بالارابيسك. "والمتمثل في تلك الزخرفة التي تتم باسمها عن أصلها العربي، فقد أطلق مؤرخو الفن من الأوروبيين هذه الكلمة على نوع من الزخارف النباتية ابتدعه الفنان المسلم، حقا إنه لم يبتكر وحدات زخرفية جديدة بل استعمل ما وجده بين يديه من وحدات في الفنون السابقة على الإسلام، إلا أنه رتب هذه الوحدات ترتيبا غير مسبوق ولاءم بينها بطريقة مبتكرة، ونسق بين أجزائها تنسيقا جعلها تبدو كأنها شيء جديد اخترع

لأول مرة وما هي في حقيقتها كذلك، لقد جمع هذه الوحدات الموروثة معا ثم صهرها في بوتقته،"(مرزوق، 1965: 181).

وعليه فإن هذا الفن يُعبر عن الهوية العربية الإسلامية الخالصة، والذي ازدهر في ربوع السلطنة العثمانية مما كان تأثيره كبير على الدول التي انضوت تحت الحماية العثمانية، ومنها الجزائر التي عرفت هذا الفن وانتشرت الزخارف في مختلف المساجد والمراكز الدينية والتعليمية،وفي جميع ربوعها سواء بالشمال أو بالجنوب.

لقد سعى الاحتلال الفرنسي إلى العمل على تخليد كل أعماله وإنجازاته في الجزائر، وعلى هذا الأساس تم تجنيد كل ما له صلة بالبناء والعمران من مهندسين معماريين وعسكريين ورجال دين لأجل وضع بصماتهم وأثارهم في كل مكان،في مقابل محو كل ما هو عربي إسلامي بالجزائر، ومحاولتهم إخفاء لكل مظاهر الحضارة الإسلامية التي وجدت قبل مجيئهم، "فخلال الفترة الممتدة من 1840م إلى نهاية القرن التاسع عشر، كان المهندسين المعماريين منخرطين أساسا ومشجعين، لنفث شخصية فرنسية تحديدا في البنايات العمومية التي كانت تتكاثر بالجزائر.كان يبدو ضروريا، من ناحية أخرى، بناء نظام مرجعي مفهوم لأجل زيادة تأثيره وفرصه في التجذر: تعلقت الإدارة بإدامة لغة معمارية مفهومة فيما وراء البحر، مرجعيتها الصروح العمومية الفرنسية.على كل بناية عمومية أن تدل بشكل واضح على ما تؤويه من وظيفة مؤسسية.نلاحظ بالجزائر، وأكثر من أي مكان أخر، الأهمية السياسية والإيديولوجية الممنوحة للبنايات العمومية. ومن خلالها كانت صور فرنسا وثقافتها ونظامها في الحكم، وبالتالي شرعيتها ومصداقيتها وقوتها، على المحك. كان لقصر العدالة، ضمن هذا المنظور، أهمية أساسية، من حيث كونه "التمثيل المادي والرمزي للعدالة" هذه العدالة الفرنسية (ذات التقاليد الرومانية) التي عليها أن تفرض نفسها على الأرض الإسلامية.(ريسلر،2016: 130-131-132).

يجب التذكير على أن بداية من النصف الثاني من القرن التاسع عشر عرفت الجزائر انطلاقة واسعة في تطبيق برامج استعمارية كبيرة لصالح المستعمر، على غرار بناء الطرقات والسدود في مختلف الجهات، مما يؤكد الحرص الشديد على مرافقة وإنجاح السياسة الاستعمارية في مجال الإقتصاد والزراعة التي يعول عليهما كثيرا.

وبذلك فإن السياسة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر لم يكن لها مثيلا في باقي الدول، فقد خصتها دون غيرها "أما في تونس والمغرب فقد غير المستعمر من خطته وأوقف عمليات الهدم التي حصلت في الجزائر فبدأت مرحلة جديدة للتخطيط العمراني الذي اعتمد على الإبقاء على المدن القديمة ودمجها مع المدن الجديدة، فكان التماسا واضحا بين المدينتين في حين كانت معظم المباني العسكرية تقام خارج المدن القديمة."(الحلاق، 2012، عدد1:255).

وصفوة القول أن الاحتلال الفرنسي حقق إلى حد كبير مشروعه في تغيير الملامح المادية الحضارية الإسلامية للمدن الجزائرية، لكن حدث كل ذلك في مقابل هدم وتغيير وتخريب المنشآت والانجازات التي حملت الطابع العربي الإسلامي، ومن دون مراعاة للهوية الوطنية للشعب الجزائري وخصوصياته ولا حتى التفكير في عواقب ذلك، حيث كان يُرجى من وراء ذلك طمس الشخصية الجزائرية بما تملك من تاريخ وأثار وماضي عريق، على الرغم من ظهور تيار استلهم من النمط الأندلسي-العثماني الذي شجع على تخطيط وبناء المدن الأوروبية الغربية على حساب المدن الجزائرية الإسلامية التاريخية.

المبحث الثالث: تراجع نشاط المدن العثمانية في الجزائر بعد الاحتلال الفرنسي

1. انحصار نشاط المدن الجزائرية القديمة

تعرضت معظم مدن وحواضر الجزائر التي نشأت وتطورت خلال العهد الإسلامي عامة والعثماني خاصة إلى التغيير، نتيجة الهدم الكلي أو الجزئي لمعظم معالمها ومبانيها سواء كانت مدنية أو حربية أو دينية، وكان ذلك مباشرة مع بداية الاحتلال الفرنسي، الأمر الذي أدى إلى تغيير في هيكلها العمراني ونسيجها الحضاري،وظهر ذلك جليا بعد استقطابها لعدد كبير من المستوطنين الأوروبيين الذين حلوا محل السكان الأصليين، هؤلاء الذين سعوا بكل ما لديهم من قوة ونفوذ في إحداث عمران حديث يتوفر على ظروف ملائمة تتناسب مع عاداتهم وتقاليدهم، ولا يتحقق ذلك إلا على حساب مدن وقرى الجزائر ذات الطابع القديم التي مستها عمليات الهدم الكبيرة والتغيير في منشأتها والتوسيع في شوارعها وأزقتها، وبالتالي إعادة تكييفها بأنماط بنائية وطرز معمارية مستوحاة من بيئاتهم الأوروبية.

وهذا ما أدى إلى ضياع معظم الخصائص المعمارية التاريخية التي ميزت مدن الجزائر القديمة، وأفقدها الكثير من ارتباطها وشخصيتها الإسلامية، وأهميتها الحضارية والثقافية، فأصبحت المدن الجزائرية القديمة عُرضة للضياع والنسيان.

إن قصة العمران الحديث في الجزائر بدأت تظهر ملامحه من خلال الوجه العمراني الجديد المتمثل في نمو المدن الأوروبية في مقابل فقدان المدن الحضارية القديمة دورها الوظيفي بالتدريج.وبما أن المدن الجزائرية تنتمي إلى حظيرة المدن الإسلامية وتنطبق عليها خصائصها ومميزاتها، فكان التشابه كبيرا فيما بينها، إذ "ترتبط مقاييس الشوارع في المدينة الإسلامية بعوامل مختلفة، منها ما هو متصل في الأصل بنظام تخطيط المدينة الإسلامية، ومنها ما هو مرتبط بطبيعة الموضع والمناخ والعادات والتقاليد. وقد تشابهت هذه العوامل في تخطيطها بالمدن الإسلامية، وتؤكد ذلك جل الدراسات الأثرية والحضارية والتاريخية للمدينة الإسلامية التي وصفت شوارعها وصفا اتسم بالتعميم، وأكد هذا الوصف على ضيق شوارعها والتوائها."(عبد الستار، 1988:162).

إن الشوارع في المدن الإسلامية هي الأصل في تخطيطها،كما أنها تمثل شرايين الاتصال والحركة التي تربط بين تكويناتها المعمارية، والتي بدورها تتفرع منها شوارع فرعية، وتبعا لمكانة المدينة وأهمية الشارع اختلفت مقاييسها سلبا وإيجابا والتي تدرجت من الضيق إلى الاتساع. كما تنوعت فتكون مستقيمة ومتسعة في الشوارع العامة، وتتسم بالضيق والالتواء في الشوارع الخاصة. وكلها مميزات قلصت من عوامل تأثير الظروف المناخية من الرطوبة وحرارة الشمس وحركة الرياح على القاطنين.

وفي هذا المجال استشهد دو هايدو (DeHaedo) في بداية القرن السابع عشر، حين ذكر أنضيق الشوارع بالجزائر كان من أهم خصوصياتها العمرانية، ولاحظ أن معظم أزقتها لا تسمح بمرور فارسين في نفس الاتجاه ما عدا الطريق المؤدي إلى السوق.(DeHaedo, 1870, 38)

إن ضيق الشوارع الذي كان يراه الأوروبيين في المدن الإسلامية ومنها المدن الجزائرية القديمة كان يوحي بنظرة تفاؤلية بالنسبة للمسلمين،"فإذا كانت الشوارع في المدينة الإسلامية متعرجة ضيقة ومقسمة إلى أجزاء مغلقة المطل،فإنها تُوحي إلى الإنسان بقصر المشوار الذي عليه أن يقطعه إلى بُغيته."(عكاشة، 1994: 157).

هذا بالنسبة لشوارع وطرقات المدن، أما المستوطنون بشكل عام لم يستطيعوا العيش داخل بيوت ومنازل الجزائريين نظرا لعدم تناسبها مع رغباتهم وعدم تماشيها مع أذواقهم بما ألفوه في أوروبا، وذلك للاختلافات الجوهرية في التقسيمات والمخططات الداخلية للبيوت، التي لم تناسب احتياجاتهم العملية ولم تخلق لهم الجو العام الذي عايشوه بأوروبا،كما أنهم لم يألفوا المخططات الداخلية للدور والمساكن، ومنها وجود الصحن والدور الذي يلعبه "في وسط الدار،الذي يعتبر العصب الحيوي والمجال المركزي للمسكن الأصيل، وهو يتوسط الأجزاء الموزعة في المبنى وتتصل به اتصالا وثيقا."(عقاب، 2002: 109).

كانت مدينة الجزائر أولى المحطات التي مستها الآلة العسكرية الاستعمارية لتسهيل تحركات الجنود وتعميم الاستعمار إلى كامل البلاد، بالرغم من تميزها بالطراز المعماري الإسلامي، وبذلك شهدت أولى التغيرات في منشآتها المعمارية، حيث لم يتوقف التهديم خلال زمن معين أو تاريخ محدد، بل كان مستمر باستمرار الاحتلال، إلى أن مس معظم عمران مدن الجزائر.

"إن تاريخ المجتمع الجزائري خلال المرحلة الاستعمارية الأولى- حتى 1871- يبرز إقدام الآلة العسكرية الفرنسية وحزم الإدارة الاستيطانية من بعد لتكسير مختلف الأنشطة الاقتصادية والتجارية الموجودة من صنائع وحرف ومهن، وإتلاف الثروات المحلية في المدن، إضافة للتغيير الذي حصل داخل المدن الحضارية بإعادة تخطيطها، وفقا لمصالح وسياسة الاستعمار الجديد والدخيل على مرافق وأحياء هذه المدن، وذلك باحتلال وسطها لفرنستها وتغريبها مرحلة مرحلة، بإنغراس مؤسساتها، الإدارية، السياسية، والاجتماعية بل والثقافية الدينية أيضا، هذا ما شهدته جل مدن القرن التاسع عشر عبر مناطق الوطن ومن بينها مدن الغرب الجزائري. فكل من مدن تلمسان وندرومة ومعسكر والقلعة ومستغانم ومازونة ووهران وغيرها، عايشت أزماتها المختلفة الاجتماعية".(مهديد، 2006: 58).

لقد عرفت معظم المدن الجزائرية قبل الاحتلال الفرنسي التهيئة الحضرية، فكانت الشوارع منتظمة، والمباني مستوية، وعرفت الأزقة والأحياء وجود مختلف الحرف والصناعات التقليدية لتوفير الحاجيات الضرورية للسكان وتقريبها من السكان. "فكانت البلاد الجزائرية بإعتراف الفرنسيين مزودة بالطرق التي لم تكن معبدة بالزفت طبعا، ولكنها كانت مزودة بالجسور، وكانت طُرقها واضحة ومعروفة المسافة، مثلا كان معروفا أن المسافة بين الجزائر ووهران تستغرق عشرة أيام.وبين الجزائر وقسنطينة تسعة أيام. وكانت هناك قوافل للرحلات مضبوطة المواعيد."(شريط والميلي، 1965: 151).

كان نظام تهيئة المدن الجزائرية يسير على مستوى واحد، لأن ثقافة البناء والمشيد الجزائري كان قد راهن كثيرا على إتقان كل انجازاته لأجل دوامها واستمرارها، وبذلك تشابهت المدن الجزائرية إلى حد كبير في تركيبتها ومكوناتها أو حتى في نموها أو انكماشها حسب

الظروف والعوامل التي مرت عليها."وقد نجد هذا التشابه حتى فيما يتصل ببعض الخصائص النفسية من سعادة وشقاء، وازدهار وانكماش، وقوة وضعف وهذا ما نلاحظه عند دراستنا لبعض المدن التي برزت على مسرح الحياة السياسية والاجتماعية بالقطر الجزائري ثم تراجع أمرها، وانحصر مدها، أو انقرضت من الوجود، تأسست في منتصف القرن الثاني الهجري،واستبحر عمرانها، وخدمها السعد حينا، ثم اعترتها الشيخوخة والانقراض."(الجيلالي، 2007: 209).

ويجدر الذكر أن مدن وحواضر الجزائر عرفت تغييرات عميقة وشاملة بعد أن حل الاحتلال الفرنسي، وشمل هذا التغيير بنيتها وشكلها (مورفولوجيتها) بصفة عامة، مما أثر على نموها ودورها الطبيعي والأصلي المتمثل في استمرار تاريخها الطويل بعدما كانت مصدر فخر واعتزاز ومراكز إشعاع روحية وثقافية وعلمية وتجارية منذ أن وجدت، وبطبيعة الحال أثر هذا الواقع سلبا على حياة السكان فيها.

وعليه يمكن اعتبار أن الاحتلال الفرنسي للجزائر كان بمثابة قطيعة وتغيير جذري للنسيج العمراني للمدن القديمة، بالإضافة إلى تميز مرحلة ما بعد الاحتلال الفرنسي عن المرحلة التي سبقتها (العهد العثماني)بمثابة حدث تاريخي بارز، غير في طبيعة التركيبة العمرانية المميزة لمدن جزائر العهد الإسلامي. كانت نتيجته انحصار كلي لنشاط المدن وبالتالي فقدان أهميتها ودورها الذي اكتسبته منذ وجودها.

2. انعكاسات النمط العمراني الأوروبي على المدن الجزائرية

عرفت المدن الجزائرية تغيرات جذرية في تخطيطها وهياكلها بصفة عامة بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر عام 1830م، إذ باشرت السلطات الفرنسية عمليات الهدم والتحطيم والتغيير للمباني،والتهيئة التي مست أجزاء كبيرة لكل أحياءها وشوارعها وقصباتها، لأجل إحداث الساحات العمومية وشق الطرقات وتوسيعها كحتمية لتسهيل حركة الآلات العسكرية وتحركات الجنود للقضاء على المناهضين والثوار من جهة، وبناء مساكن جديدة

لإيواء الجنود والمستوطنين من جهة أخرى، وهي عمليات عجلت لظهور النموذج العمراني الأوروبي- الغربي الحديث على حساب الطابع الأصلي التقليدي الإسلامي القديم.

"كان إقحام نموذج التخطيط الغربي من أهم آثار الاستعمار الفرنسي، وارتبط التحديث العمراني في الجزائر بظاهرة استعمارية عنيفة إقصائية، عملت على تصحيح مورفولوجية المدينة الأصلية بإشراف سلاح الهندسة (Génie Militaire) الذي وضع مخططات معسكرات محصنة وقرى استيطانية، وغير وجه المدن القديمة تحويرا وتوسعة. وقدمت التحويرات العمرانية والمنشآت المستحدثة على أنها نهضة عمرانية نزعت عن المدينة الأصلية مظهرها الشرقي البالي.وبذلك نخرت المدينة الجديدة المدينة الأصلية بفتح الشوارع وإزالة واجهات المنازل العربية التي لا تليق بمتطلبات الإنسان الأوروبي ولا ترقى إلى جماليات الفن العمراني الكلاسيكي، فتداخلت المدينتان بواسطة شوارع وصلت أبواب المدينة التي عوضتها ساحات ومتنزهات احتضنت الحياة الأوروبية."(سعيدوني، 2016، عدد16، مجلد4: 10-11).

إن عمليات التوسعة التي طبقت في المدن والتي مست أجزاء كبيرة منها ما كانت لتتحقق إلا بعد تطبيق سياسة المصادرات التي مست الأوقاف والبيوت وأملاك الجزائريين عن طريق سن قوانين وتشريعات مختلفة، كان الهدف من ورائها هو سلب كل ممتلكات هذا الشعب وتجريده خاصة من تراثه المادي الذي اكتسبه منذ القديم.

تميزت عمليات التعمير والبناء الذي باشرها الاحتلال الفرنسي في مدن وحواضر الجزائر بالطابع الظرفي الوظيفي الذي لبى الاحتياجات العسكرية والحربية للمستعمر الفرنسي في أول الأمر. وبذلك بدأت تظهر ملامح وجه عمراني جديد، وفي مقابل ذلك عرف الأهالي التشرد والإقصاء والهجرة، بعد أن طردوا من أملاكهم ومدنهم وحتى من بلادهم، كما كان مصير معظمهم العيش كغرباء ولاجئين. أما الأوروبيين فشملتهم حياة الاستقرار في سكنات وقصور أعيدت تهيئتها لتليق بهم وتلبي احتياجاتهم وتوفر الراحة والطمأنينة لهم في

مجتمعهم الجديد."استمرت سياسة الإقصاء والإبقاء على مختلف الفضاءات الحضرية: فالمسلمون ليس لهم حق التواجد في المدينة، وأن مكانهم هو المرتفعات (فوق الهضبات) وهو المكان المفضل لاحتضان البيوت القصديرية."(إيشبودان، 2007: 190).

كانت سياسة الاحتلال الفرنسي ترمي إلى تحقيق الرفاهية للسكان الجدد (المستوطنين) على حساب الجزائريين. وفي ظل هذه الظروف يمكننا أن نتصور حجم البلاء والكارثة التي حلت بالشعب الجزائري ومدى مساهمة الفرنسيين في العمل على زوال أو تغيير وجه العمران بكل ما يحتويه.ومع مرور الزمن اتضح على أن أهم "انعكاسات السياسة الاستعمارية على الجزائر: هي إفقار الجزائريين وانخفاض مستويات معيشتهم إلى أحد أدنى المستويات في العالم بسبب تدمير أملاكهم ومواشيهم ومصادرة أراضيهم، فتحولوا من ملاك أرض إلى عمال زراعيين يستعبدهم المستوطنون، وتضاءلت الأجور. أما مساكنهم، فلم تكن سوى: الكوخ المسمى "القربي"، أو الخيمة."(بلاح، 2006، ج1، 161).

وعلى هذا الأساس أرغم أكثرية الأهالي على السكن في دور القصدير أو مدن الصفيح وهي فضاءات جغرافية مكونة من مساكن وبيوت عشوائية تحيط بالمدن والحواضر.

ويقصد بمدن الصفائح تلك الأحياء التي تتكون من أكواخ من صفيح يقيمها المعدومون في ضواحي المدن الكبرى، وهي ظاهرة معروفة في كل بلاد العالم النامي، ولكن استخدام الاسم بالذات ارتبط بمدن الشمال الإفريقي، وتعرف في مصر بالعشوائيات."(عبد الفتاح: 244).

في هذه الظروف بدأت المدن الجزائرية القديمة تفقد دورها الوظيفي تدريجيا. وبالإضافة إلى التغيرات العمرانية على مستوى البناءات والمنشآت، عرفت أيضا تحولات على المستوى الاجتماعي والثقافي، والتي طرحت من خلاله مسألة إدماج المجتمع وتكييفه مع تلك المتغيرات.

وبما أن العمران هو فن تنظيم المدينة، وبعد التزايد السريع لعدد المستوطنين الذين أقاموا في المدن الجزائرية، كانت نتيجته إجبار الجزائريين إلى اتخاذ من الأحياء العشوائية كمناطق للعيش من شأنها إسكان العدد الهائل منهم، بعدما طُردوا من حواضرهم وسلبت ممتلكاتهم.

هذا النمط العمراني البدائي العشوائي الذي أُجبر الأهالي للعيش فيه ظهر في الجزائر نتيجة عدة عوامل، أهمها التغيرات العمرانية التي عرفتها المدن التاريخية وإعادة تأهيلها بما يخدم الاحتلال، وهو مخطط كولونيالي هدفه القضاء على المقومات المادية والتراثية للشعب الجزائري، ودفعه للاستقرار في البيوت القصديرية في ضواحي المدن، وهذا ما أدى إلى تخلف العمران الحضري بصفة عامة، ولعل فترة الاحتلال الفرنسي كانت من أهم الفترات التي تركت مخلفات سلبية على المدن الجزائرية.

إن "مدن الصفائحBidonville" كلمة شائعة الاستعمال عند المؤلفين الفرنسيين تشير إلى السكن المديني العفوي والمرتجل وهو حصيلة التجمعات البشرية في المدن الكبرى من البلدان النامية حيث يعيش السكان دون مصادر بعد قدومهم من الأرياف."(جورج، 2002: 734).

"وشاءت الأقدار أن كان الأوربيون كافة يسكنون الدور والقصور، والأماكن الجميلة في المدن والقرى، فإن الجزائريين المسلمين يتيهون في أماكن لا تصلح للعيش الكريم.وسكنى البادية: خيام من الصوف والوبر لأهل الوسط والجنوب. وقرابى (جمع قربى) لأهل الشمال. وهو بيت صغير من قش وطين فيه حياة السقم والكآبة. ثم مدائن القصدير الرهيبة، على مقربة من المدن يسكنها أهل البادية الذين أضناهم الجوع وحطمهم الإهمال، فيؤمون ساحات المدن جريا وراء لقمة العيش، ولو على طريق التسول والتقاط فضلات المزابل.ومدينة القصدير هذه تجمع مئات الآلاف من الناس، يسكن كل عائلة منها (بمعدل خمسة نفوس في العائلة) بينما شيدت جدرانه وسقفه من بقايا صفائح القصدير تجمع إلى بعضها بأخشاب

بالية ومسامير، ولا يتجاوز مساحة البيت منها ستة أمتار مربعة، وهو بذلك قبر جماعي."(المدني: 133).

عملت سلطات الاحتلال الفرنسي على التضييق والحد من حريات الشعب الجزائري منذ البداية،وسعت بكل ما تملك لأجل إنهاء وجوده، حتى يتسنى لها استغلال البلاد والتغطية على مشروعها الرامي إلى اجتثاثه،وبذلك اختار العيش في بيوت وأكواخ لا تمت بصلة للكرامة والإنسانية، وهذا ما تحدث عنه أوكتاف فيكتورهوداس(1840-1916)عالم الأجناس البشرية عن أحوال وحياة المسلمين حين ذاك، فقال عن سكنات الجزائريين أنها لم تكن سوى أكواخ مصنوعة من جذوع وسيقان الأشجار، وأحيانا من الخيم المنسوجة من وبر الإبل تعيش تحتها عائلات بأكملها.(Houdas, 1886,45).

لقد لجأت فرنسا إلى التضييق على حياة السكان والدفع بهم إلى العزلة والانزواء في أماكن لا تصلح للعيش الكريم، فكان "يعيش في الجزائر أكثر من نصف مليون مسلم، داخل أحياء برمتها، أو في مدن قامت على هذا النوع من المساكن، ولهذا لا نعجب أن نسمع أن أكثر من 400.000 جزائري مصابون بالسل، وهو يعادل عدد المصابين به في فرنسا، وعدد سكانها يقرب من أربعين مليونا، ولما كانت الوقاية الصحية غير متوفرة لدى الأهالي وليس لديهم أية خدمات لحمايتهم، فقد انتشرت الأمراض الزهرية إنتشارا إجتاح قرى برمتها.إن أعظم صورة تقدمها فرنسا بعد حكم دام أكثر من قرن من الزمن هو مواكب النساء والرجال والأطفال، الذين لا يجدون من الكساء إلا ما يسترهم، يسيرون نحو بقايا الأطعمة ومزابلها يلتقطونها لسد رمقهم، بعد أن حرمتهم حكومة الاستعمار من زعمائهم، وقادتهم، ومدارسهم، وأوقافهم، وفرضت عليهم الذلة والمسكنة، وحرمتهم من كل مميزات شخصية الدين واللغة والتوجيه، لقد بقي لهم شيء واحد هو الإسلام والإيمان بالله."(رمزي: 152).

وتظهر سلبية هذه الأحوال أن الجزائريون الذين يسكنون الأكواخ القصديرية أو البنايات القديمة المجاورة لبنايات المعمرين العصرية التي تحيط بها مساحات خضراء بلغ أكثر من 82%."(عميراوي، 2007: 49).

إن حال الشعب الجزائري مرهون بمخططات الاحتلال الفرنسي،" فإن هذه الأعمال على النقيض تسمح للمنتصر من خلال المصادرات وطرد السكان، بالاستيطان داخل المدينة نفسها وتملك فضائها الحضري، وهو ما سيقوم به من خلال احتلال الأماكن ثم عبر عمليات الهدم من أجل الضرورات المختلفة، قصد التغيير السريع للبنية الحضرية السابقة."(إيشبودان، 2007: 189).

وإذا كانت فرنسا قد شيدت المدن على حساب المدن القديمة وزادت من حجم الاستثمارات العمرانية بكل الجهات والمناطق، يجدر بنا طرح السؤال التالي:"لمن خصصت العمارات والدارات التي تستغل حركة انطلاقها المتسارعة لامتداح الازدهار في الجزائر؟ إنها خصصت بصورة رئيسية لرجال الأعمال، والموظفين، والتجار الفرنسيين. وليس ثمة أي مراقب، ولو كان سطحيا، فمن يزور إحدى المدن الجزائرية الكبرى إلا ويلاحظ التناقض القائم بين ترف الأحياء الفرنسية، الذي كثيرا ما يكون معيبا فاضحا، وبؤس الأحياء الإسلامية، والمدن المبنية من التنك والتي تتكدس فيها وسط شروط معيشة لا تصدق، عشرات الألوف من الرجال والنساء والأطفال. ولا شك في أن ثمة الطرقات، والسكك الحديدية، والمرافئ، هذه التي يستطيع أن يستفيد منها كل إنسان. ولكن هل حاول المستعمرون أن ينشئوا مصالح عامة حقيقية، كما هو حاصل في فرنسا، مخصصة ليستخدمها مجموع السكان."(فيكس: 14-15).

إن هجرة السكان الجزائريين بعد احتلال المستوطنين لمدنهم وحواضرهم ساهمت بشكل كبير في الظهور الفجائي للأحياء السكنية القصديرية والعشوائية داخل المدن، والتي تفتقر إلى التنظيم واللمسات الجمالية، إذ تفتقر أغلبها إلى التخطيط المحكم، ولا تلبي الاحتياجات الضرورية للعيش الكريم. وكانت من عواقبها "انتشار البطالة بشكل خطير،

واضطرار العمال المزارعين إلى الهجرة شبه الجماعية إلى المدن للاستقرار على أطرافها في أحياء قذرة بنوها بأنفسهم من القصدير والخرق البالية، وقطع الخشب، وعُلب الأطعمة الفارغة. وأصبح أكثر من نصف مليون يسكونون هذه الأكواخ بين خمسة وعشرة أشخاص في كل خيمة في حالة اجتماعية يُرثى لها، حيث لا غذاء كاف ولا عناية صحية، والعمل يوفر لهم بعض الغذاء الضروري."(بوعزيز،2007: 52).

وللوقوف على هموم الجزائريين بعدما فقدت مدنهم أصالتها ومجدها في مقابل مدن حديثة النشأة بطابع غربي هيمنت على العمران الجزائري، كانت نتيجته إقامة نظام جديد على أنقاض النظام المنهار ليتلائم مع المعايير العمرانية التي يتطلبها واقع ما بعد الاحتلال.

"أما السلطة الاستعمارية فقد طورت مخططا للعمل، ذا بعد مزدوج، يهدف من جهة، إلى التخلص من المجتمع القائم من خلال إفراغ المدينة، مدفوعة بوضعية الأملاك الشاغرة التي أنشأتها. ومن جهة أخرى،إظهار تفوق حضارتها وبالتالي هيمنتها. وقررت نفس السلطة التكفل بالمدينة من خلال هدم المركز الرئيسي، ثم بقية الفضاءات الحضرية وفقا لحاجيات المجتمع الأوروبي المستوطن حديثا."(إيشبودان، 2007: 209).

وكل هذه الإنجازات والفضاءات التي تم تشييدها خلال فترة الاحتلال وإلى غاية الاستقلال كانت لا تخدم سوى المستوطنين والمجتمع المسيطر، بينما عاش الأهالي والسكان الأصليين في حياة الحرمان والبؤس ولم يمسهم أي برنامج تنموي لتحسين مستوى معيشتهم، أو حتى محاولة معالجة قضايا الفقر والبطالة والتهميش التي عانى منها الشعب طيلة الاحتلال الفرنسي.

لقد تحدث الكثير من الرحالة على أن الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي كانت تزخر بمختلف الإنجازات والمنشآت من منازل ومساجد وقلاع وحمامات وجسور وثكنات في كل مدنها وفي مختلف جهاتها منذ العهود القديمة، وزاد قدوم واستقرار الأندلسيين ثم العثمانيين في رصيدها العمراني بعدما امتزجا النمطين الأندلسي-العثماني بالمحلي. إلى أن جاء الاستعمار الفرنسي بهمجيته وغطرسته الذي عمل على محو كلي لكل الإنجازات ضمن سياسة استدمارية هدفها الرئيسي اجتثاث جذور الشعب الجزائري والقضاء على كل مقوماته

المادية والروحية، حتى لا تكون له صلة بماضيه العريق ومحو تاريخه المجيد. فقام الاحتلال الفرنسي باستهداف المآثر العمرانية بالدرجة الأولى بعد أن حطم وهدم عددا كبيرا من البنايات والأحياء سواء كانت مدنية أو عسكرية أو دينية أو ثقافية وتهجير سكانها بفعل الحرب والإرهاب، مما أدت تلك الظروف إلى انتشار الفقر والبؤس والدمار في كل مكان، وفي مقابل ذلك توسعت الأحياء والمدن التي شيدها الفرنسيين بطراز معماري غربي أوروبي.

إن السياسة الاستعمارية قد ساهمت بشكل كبير في تغيير الملامح الإسلامية لمدن الجزائر المتميزة بتخطيط حضري أهمها توسط الجامع للمدينة، ثم تبنى حوله المنشآت الأخرى كالسوق والمنازل وغيرها، وكذلك الدور الذي لعبته القصبات في تميز الملامح العمرانية للمدينة الإسلامية.

والمدن عامة والمدينة الجزائرية خاصة، هي مرآة المجتمع إذ أنها تعبر عن الموروث الثقافي والتاريخي والحضاري،طالما بقيت قائمة وشاهدة على حضارتها. والتي فقدت هذه الملامح بمجرد دخول الاستعمار.ولم تبق محافظة على ميزاتها المعمارية التي اكتسبتها مع مرور الزمن بعدما ساهم فيه مزيج من الشعوب والحضارات مرت بالمنطقة.

فإذا كان الاحتلال قد غير ملامح العمران في البلاد، فقد فعل ذلك لصالح السكان الأوروبيين، فأغلبية الجزائريين قد تألمت من الوضعية الاستعمارية الشنيعة وقبعت في الفقر الاقتصادي والفكري المدقع."(قداش، 2008: 3).

والجدير بالملاحظة أن الجزائر لعبت دورا هاما في بعث التجارب العمرانية من خلال تطبيق المشاريع المعمارية الحديثة خاصة مع بداية القرن العشرين، والتي مزجت بين النمطين الشرقي والغربي، مما كانت له انعكاسات على نمط البناء لمستقبل المدن الجزائرية، فكانت العمارة أوروبية في جوهرها وإسلامية بزخارفها الخارجية، والتي تجسدت بمعظم المدن الكبيرة. بالإضافة إلى أن هذه الفترة عرفت ترميم القصور العتيقة، وإعادة تهيئتها بل حتى تشجيع المهندسين المعماريين المعجَبين بها على تقليدها في إنجاز المشاريع العمرانية الجديدة في عديد من المناطق، إلى جانب التحسيس والتعريف بالآثار الإسلامية عامة

والأندلسية-العثمانية خاصة، وذلك رغم انتقادات الكولون المتطرفين الذين كان همهم الاستغلال والربح على حساب التعدي على المدن والمحافظة على التراث والمعالم الحضارية، وهذا ما أدى إلى محو معظم الآثار العمرانية الإسلامية بالجزائر، وبقي الوضع على حاله إلى غاية الاستقلال.

الخاتمة

الخاتمة:

لقد تعاقبت على الجزائر العديد من الحضارات وعبرتها شعوب من مختلف الأعراقوالعناصر عبر التاريخ، فاستقر الفينيقيون بالمنطقة على أساس التعاون السلمي والاتصال الحضاري والاقتصادي بعدما ربطوا بين أجزاء مختلفة من العالم بواسطة الملاحة البحرية التي اشتهروا بها،مما أصبح المجال مفتوحا لبناء المدن وتأسيس المحطات والمراكز التجارية بالمنطقة.

كما كان للاحتلال الروماني وغزواته لقرطاجة ونوميديا تأثيرا بليغا على الحياة العامة في بلاد المغرب الإسلامي وفي نشر الحضارة الرومانية خاصة العمرانية في شرق ووسط الجزائر.وإلى جانب اهتمامهم بتشييد المعالم والإنجازات العمرانية في المدن، والتي لا يزال الكثير منها مجهولا إلى اليوم، اهتموابالجانب الزراعي الذي يضمن لهم مختلف المحاصيل، حيث كانت روما تعتمد كثيرا على ما كان يُنتج في الجزائر. ثم جاء الغزاة البيزنطيون الذين لم يعمروا طويلا، فكان عهدهم عهد الاضطهاد وفرض الضرائب على الشعب، ثم كان الخلاص في امتداد الفتوحات الإسلامية من المشرق إلى شمال إفريقيا وتصفية البيزنطيين آنذاك، حين قاد المسلمون المعارك والحروب التي انتهت بالفتح لمعظم مناطق المغرب الإسلامي.

أما التواجد العثماني في الجزائر فيعتبر أهم فترة في تاريخهابصفة عامة،والذي دام أكثر من ثلاثة قرون من الزمن، معظم فتراته عرفت فيه الجزائر الاستقرار والأمن والنظام مقارنة ببعض العهود السابقة.إذ شهد هذا العصر تحولا عمرانيا كبيرا، تميز بتوسيع المدن وتشييد المراكز العمرانية وبناء القصبات وعلى رأسها قصبة مدينة الجزائر التي شيدت على أساس مقر للسلطة السياسية في البلاد عكست مستوى الازدهار الذي بلغته الجزائر والذوق الرفيع للمعماريين آنذاك.

فكانت عملية تخطيط المدن في الجزائر العثمانية تتسم بإبراز الشخصية الإسلاميةالنابعة من روح الدين الإسلامي الحنيف كمنهج في الحياةوالمستنبط من تعاليمه السامية القائمة على

احترام خصوصيات واحتياجات المجتمع، خاصة بعدماستقرت الأحوال واتسع الثراء، فكان بناء المسجد أولى وأهم الخطوات.

كماحتوت المدن الشوارعوخططت على أساس أن تكون ضيقة، تسمح فقط بمرور الأشخاص أو الدواب، وهذا ما يدخل ضمن الخصائص العامة لمخططات المدن الإسلامية آنذاك. فهي غير مهيأة لمرور العربات والمراكب التي تستدعي طرقا واسعة، وهذا ما لم يتماش مع رغبات ومتطلبات جيش الاحتلال الفرنسيفيما بعد، الذي كانت معداته وتجهيزاته الحربية المختلفة والضخمة تتطلب طرقا واسعة لتسهيل تحركاته ومراقبة السكان، فكان هذا سببا مباشرا في إزالة الأزقة والبنايات التاريخية مندور ومساكن ومساجد وأحياء بكاملها، وهي متطلبات وحاجات تستجيب لرغبات المستعمر أكثر مما تستجيب للأهالي،ومنذئذ لم يعرف سكان المدن الجزائرية تشييد المنشآت العمرانية والمعالم الحضارية ذات الطابع الإسلاميوالتي كان لها دور تاريخي وحضاري والتي مثلت إرثها الثقافي، وبالتالي تفكيك النموذج المعماري الأصيل للجزائر الممتد إلى العهود السابقة، وهذا ما أدى إلى التغيير العميق لواقع وحالة المدن في الجزائر بصفة عامة.

كان الاحتلال الفرنسي يرى من خلال ضيق الطرقات والأزقة نوعا من الفوضى وعدمالانسجام، بينما كان المُخطط والمُشيد المسلم يرى في ضيقها وتعرجها مظهرا من مظاهر الحضارة الإسلامية في توفير الأمن والسلامة والصحة للسكان، والاستجابة لكل متطلباتهم المادية والروحية وتحسين نوعية البيئة العمرانية. ذلك أن ضيق الأزقة كثيرا ما يبعث على المودة والرحمة بين العائلات ويُحافظ على حرمتها، كما أنها كانت تمنع الرياح من حمل الغُبار بين أفنية الديار والمساكن، بالإضافة إلى تلطيف الجو خلال مواسم الحرارة.وحالة المدن الجزائرية شيدت على أساس أن المناخ كان طرفا مهما في شروط بنائهاخاصة بمراعاة فصل الحرارة الطويل.

وعليهفقد رعى المخططون المسلمونفي الجزائر وغيرها على أهمية توفير أسباب العيش الكريم وتحسينه وبالتالي توفير بيئة سكنية صحية آمنة ومريحة في عمارة الأرض.

إن التغيير الذي مس المدن العثمانية بالجزائر بعد الاحتلال الفرنسي مكن من التحول في الأنماط الحضرية لها، وذلك لعجزها عن استيعاب التطور الذي جاءت به الآلة العسكرية الاستعمارية الفرنسية من خلال تلبية متطلباتها للاستحواذ على البلاد. فكان التغيير سريعا ومفاجئا وغير مدروس، وكل ما قام به الاستعمار حين دخوله الجزائر كان يفتقر إلى المعايير والضوابط التقنية التي من خلالها كان يجب أنيسعى ويراعي فيه الحفاظ على خصوصية المدن وشخصيتها الأصيلة، لاسيما عمليات التهديم والتحطيم الكبرى التي شهدتها أحياء وقصبات معظم المدن، مما كان له تأثير كبير على حياة السكان الذين اجبروا على الهجرة وترك ديارهم ومدنهم لغرباء مختلفين عنهم في الطباع والعقيدة وحتى في البيئة، هؤلاء الذين استولوا علىأرزاقهم وأملاكهموحولوها عن مهامها الحقيقية، فحولوا المساجد إلى كنائس وثكنات وحتى إسطبلاتوالدور والمنازل إلى مراكز عسكرية وغيرها.

فالتغيرات التي شهدتها المدن آنذاك لم ترقأن حافظت على هويتها وخصوصيتها، فهي ذات قيمة تاريخية تراثية تمتلك أبعادا رمزية وروحية أصيلة، فكان المسجد من المعالم الرئيسية التي اشتملت عليها المدينة الإسلامية الذي أقيم في وسطها، بينما عرف هذا المعلم الاختفاء في التشييدات التي عرفتها مدن الجزائر خلال عهد الاحتلال الفرنسي.

إن استمرارية المدن الجزائرية القديمة من خلال الشكل والمضمون التقليدي والذي يعتمد أساسا على الحيوية الاجتماعية والاقتصادية والمساهمة الفعالة لسكانها في إحياءها وصيانتها، إلا أن هذا لم يحصل نتيجة العدوان الفرنسي عليها والذي أثر سلبا على الأحياء التاريخية فيها، مما جعلها تعاني من تغيير بنيتها الوظيفية الأصلية، وهذا ما لمسناه في تحولها من فضاءات للسكن إلى وظائف أخرى عسكرية وأمنية مختلفة. وهذا ما أدى إلى حدوث تغيرات جذرية عليها، نتج عنه تدهورها وفقدانها للموروث الثقافي المميز لها.وبالتالي فإن ما أصابها من

تدمير وتلف، أدى حتما إلى فقدان أجزاء كبيرة من النسيج الحضري لها، وهذا بالضرورة أدى إلى ضياع وفقدان خصائصها العمرانية والتخطيطية والاجتماعية والثقافية.

في ظل تزايد اهتمام الاحتلال الفرنسي في تحقيق وتحديث تخطيط عمراني جديد بنمط غربي يعكس رغبات المستوطنين في إقامة مدن على نحو ما كانوا يعيشونه في أوروبا، وهذا ما انعكس على حاضر ومستقبل المدن التاريخية، إذكانلآليات التغيير الدور الكبير في رسم سمات مدن جديدة استمرت لأكثر من قرن من الزمن،وكل ذلك على حساب الإنجازات المعمارية التي وُجدت قبل احتلالهم، وهذا أدى بالضرورة إلى فقدانهاللهويةالمحلية وأصالةالمجتمع وأبعاده التراثية والتخطيط الحضري ذو الطابع الإسلامي بصفة عامة.

إن الإهمال المتعمد للسلطات الاستعمارية الفرنسية والتدمير الكلي أو الجزئي للعديد من الشوارع والبناءات والقصبات لمعظم مدن الجزائر سمح بخلق وظهور مدن جديدة تفتقد للهوية العمرانية المعمارية العربية الإسلامية، وهي تغيرات جذرية وجوهرية انعكست على خطط المدن والنمط العمراني واستعمالات الأرض، مما يشكل أكبر تحدي لمراعاة التكوين النفسي والاجتماعي للفرد الجزائري الذي ملك سمات ومقومات معمارية وتخطيطية رائعة ورثها عن أسلافه عبر السنين واكتسبها ضمن مبادئ الدين الإسلامي الحنيف.

كما أن التوسع العمراني للاحتلال الفرنسي أدى إلى إزالة العديد من المباني القديمة التي حلت محلها الهياكل الحديثة،والتي احتوت على شواهد ومخلفات معمارية متنوعة نتيجة تواجد حضارات وأجناس مروا بالجزائر من جهة، ومن جهة ثانية، أراد المستعمر الفرنسي إثبات بعض مزاعمه في تفوق الحضارة الرومانية حضارة أسلافه التي ساهمت فيبناء المدن وتشييد مختلف الإنجازات في العهود القديمة من تاريخ الجزائر، ولأجل هذا سارعت السلطات الفرنسية غداة الاحتلال إلى توجيه الاهتمام بدور المدينة الحضاري والاقتصادي والاجتماعي، والاستلهام بكل ما جاءت به الحضارة الرومانية، مما كان لزاما عليها تحديث وتصحيح مورفولوجية المدن التاريخية الجزائرية على النمط الغربي وتغيير وجه المدن الأصلية، واعتبرت هذه الأعمالنهضة

عمرانية خدمت المجتمع الفرنسي المسيطر فقط، بينما عرف السكان الأصليون الهجرة وسكن الضواحي في بيوت لا تصلح للعيش الكريم،بعيدين كل البعد عن أي نمو وتقدم، مما كان لهذه السياسة آثار سلبية على واقع السكان، وفقدت من وراءها المدن الجزائرية هيبتها وشخصيتها وكيانها إلى الأبد.

وإلى يومنا ما زال المجتمع الجزائري يفتقد إلى إستراتيجية سليمة في تشييد وبناء المدن وبقي يتخبط بين التبعيةلماضيه العمراني الإسلامي أو الاستنساخ من العمران الأوروبي الغربي الذي استحدثته فرنسا الاستعمارية، وهذا أكبر تحدي في فقدان الخصائص المميزةللموروث العمراني وهوية الجزائريين التي تعبر عن أصالتهموماضيهم.

لكن يبقى التساؤل مطروح هل بمقدورنا تدارك هذا التحدي وبناء مدننا على الطراز الإسلاميوبالتالي نكون قد ساهمنا في الحفاظ على موروثنا الأصيل وتعود الجزائر إلى سابق عهودها ؟

الملاحق

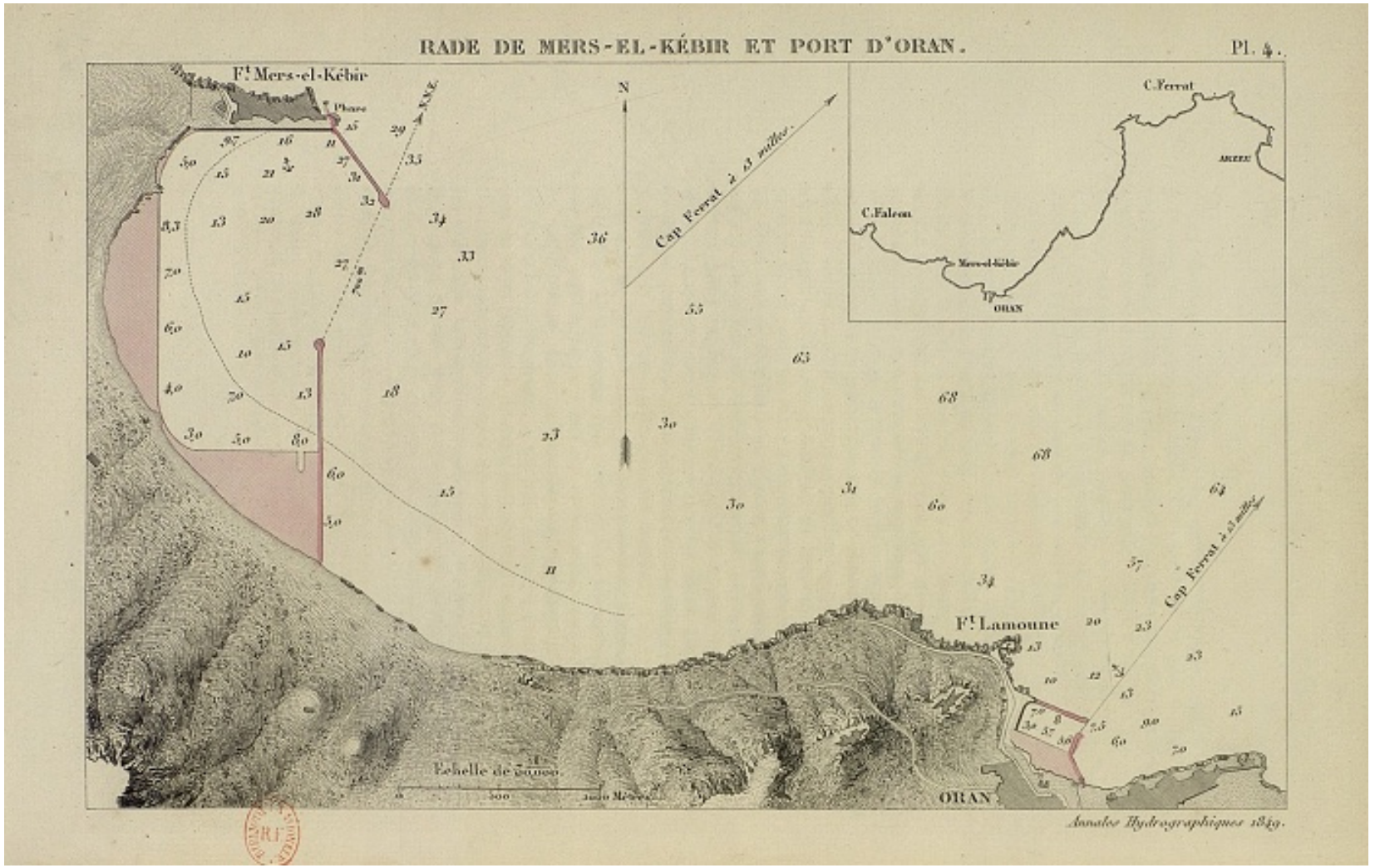

Source: Lieussou, (1850)- Etude Sur Les Ports d'Algérie, page 16.

المرسى الكبير

المصدر: صاريناييوسف، الجزائر في الوثائق العثمانية. ص109.

قصبة الجزائر

المصدر: صاريناييوسف، الجزائر في الوثائق العثمانية،ص 143.

الجزائر

المصدر: صاريناييوسف، الجزائر في الوثائق العثمانية،ص171.

جامع ساحة الحكومة

المصدر:صاريناييوسف، الجزائر في الوثائق العثمانية، ص267.

جامع أبي الحسن بتلمسان

المصدر:صاريناييوسف، الجزائر في الوثائق العثمانية، ص 277.

قسنطينة

المصدر: صاريناييوسف، الجزائر في الوثائق العثمانية، ص 287.

قصر الحكومة بالجزائر

المصدر :صاريناييوسف، الجزائر في الوثائق العثمانية، ص 327.

ساحة مسجد الباشا بوهران

فهرس الأعلام

فهرس الأعلام:

-أ-

-ابن المنظور:4

-ابن بري: 4

-ابن حوقل: 5

-أفلاطون: 9، 10

-ابن خلدون:12، 26،27، 51، 86، 157.

-أمير علي: 31

-الأمير عبد الرحمن الثاني الأموي: 32

-الأمير محمد بن عبد الرحمن الثاني الأموي: 32

-ابن حوقل: 46

-آل زيري: 46

-أحمد بن عبد الرحمن الشقراني: 64

-أبو العباس أحمد بن القاضي: 73

-إبراهيم التازي: 87

-أحمد بن عبد الله: 87

-محمد بن يوسف السنوسي: 87

-أحمد بن يحي الونشريسي: 89

-أبي الفضل محمد المشداليالبجائي: 89

-أحمد بوعصيدةالبجائي: 89

-أحمد بن يونس القسنطيني: 89

-ابن سالم الوشتاتيالقسنطيني: 89

-أبي زيان ناصر بن مزني البسكري: 89

-محمد بن أحمد المعروف بابن صعد التلمساني: 89
-ابن الأنبار الأندلسي: 90
-أبي زكريا: 90، 96
-احمد الغبريني: 90
-ابن المطرف المخزومي: 90
-أبو العباس أحمد الأول: 96
-أبي تاشفين: 99

-ب-

-بيدرو دو نافارو: 64
-بربروس: 69
-بيار جورج: 92

---ج-

-جوستينيان الأول: 105
-جورج مارسيه: 118
-جونار: 183، 194، 195، 218

-ح-

-حمو رابي: 15
-حازم القرطاجني: 90
-الحسن الوزان: 120
-حسن بن خير الدين: 125، 126
-حمدان خوجة: 180، 181

-ر-

-الربيع بن سليمان القرشي: 32

-س-

-سنان باشا: 104

-سعيد بن العاص الأموي: 32

-سليمان القانوني: 70

-سليم الأول: 70، 73، 74، 107

-سيدي الحسن: 82

-سيدي أبي مدين: 82

-سيديالحلوي: 82

-ط-

-طلحة بن الأحوص الأشعري: 32

-طارق ابن زياد: 60

-ع-

-عمر بن الخطاب: 20، 22

-عقبة بن نافع: 20، 41، 42، 95

-عثمان بن عفان: 21، 22

-عمرو بن العاص: 26

-عروج وخير الدين: 67، 69، 70، 72، 132

-عبد الرحمن بن محمد الجيلالي: 72

-عبد الجليل التميمي: 73

-عبد الرحمن الثعالبي: 87، 91

-عبد الرحمن بن رستم: 95

-ف-

-فرناندو وإيزابيلا: 60

-فرديناند: 97

-ص-

-صالح باي: 138

-ق-

-القزويني: 5

-قسطنطين الأكبر: 105

-ك-

-الكاردينال خيميناس: 61، 63، 64

-كوسة مصطفى: 81

-ل-

-ليون الإفريقي: 99

-م-

-محمد بن القاسم الثقفي: 32

-مازيغ ابن كنعان: 34

-معاوية بن حديج: 41

-الملكة إليزابيت: 61، 63

-الملك فرديناند: 61

-محمد الفاتح: 70، 106

-موسى الأندلسي وعلي إبراهيم موسى: 80، 81

-الميلي: 86

-محمد الهواري: 87، 88، 91

-المقري: 89

-محمد بن عبد الكريم المغيلي: 89

-محمد الثاني: 104، 111

-محمد بن أبي عون ومحمد بن عبدون: 139
-مارمولكاربخال: 140، 145

-ن-

-ناصر الدين المشدالي: 90

-هـ-

-هايدو: 118، 131

-و-

-الوجناء بن الرواد الأزدي: 32

-ي-

-يغمراسن: 84

فهرس الأماكن والدول

فهرس الأماكن والدول:

-أ-

-أوروبا: 17، 23، 24، 30، 31، 42، 45، 59، 64، 66، 68، 91، 99، 106، 113، 119، 124، 133، 134، 148، 172، 190، 193، 215.

-أسيا: 7، 17، 22، 23، 24، 32، 68، 71،102، 105، 155.

-إفريقيا: 11، 17، 23، 24، 34، 35، 40، 41، 42، 55، 63، 68، 75، 79، 95، 130، 136، 137، 155، 184، 189.

-إسبانيا: 26، 40، 43، 47، 48، 54، 55، 56، 59، 60، 61، 62، 63، 64، 65، 66، 68، 71، 72، 78، 79، 86، 97، 116، 134، 156، 172، 173.

-الإسكندرية: 20

-أنطاكية: 20

-الأندلس: 22، 24، 30، 42، 49، 54، 55، 59، 60، 61، 63، 67، 68، 69، 71، 72، 87، 130

-إيطاليا: 22، 66، 105، 134، 172، 173

-ألمانيا: 66،105، 190

-الأناضول: 70، 74،103، 110، 124، 144

-استانبول: 73،103، 104، 105، 106، 110، 123

-أغادير: 87

-إيران:103

-إنجلترا:105، 156، 190

-إيكوسيوم: 129

-ب-

-بجاية: 37، 45، 52، 53، 57، 58، 64، 79، 85، 87، 90، 92، 103، 104،
120، 121، 130، 135، 147، 161، 182.
-باكستان: 10
-البحر الأحمر: 11
-البحر المتوسط: 11، 36، 41، 46،50، 51، 57، 63، 65، 67، 72، 74، 75، 91،
93، 95، 97، 98، 99،122، 129، 131، 133، 135، 139، 142، 143،
155، 157، 158، 166، 196
-البصرة: 20، 29، 42
-بغداد: 23، 26، 87، 104، 107
-البرتغال: 26، 52، 54، 55، 61، 69، 71، 141، 156
-برقة: 35
-بسكرة: 39، 53، 120، 149
-بنزرت: 57
-بلجيكا: 66
-بيزنطا: 69، 71
-البليدة: 77، 119، 128، 143، 147، 149
-باب عزون: 81
-باريس: 91، 159، 172
-باتنة: 171
-بشار: 175
-بني مزغنة: 128، 130، 134

-ت-

-تلمسان:43، 44، 53، 56، 78، 79، 82، 84، 85،86، 87، 88، 89، 90، 92، 93، 95، 97، 99، 115، 120، 132، 133، 139، 140، 145، 147، 149، 160، 183، 200.

-تاهرت: 95

-تركيا: 5،110

-تونس: 20، 35، 41، 43، 53، 56، 57، 64، 65، 69، 87، 91، 96، 97، 100،107، 111، 116، 121، 128، 131، 135، 137، 150، 183، 197.

-تبريز: 30،103، 104.

-تبسة: 39، 40، 144، 166

-تيمقاد: 39، 166

-تقرت: 53، 56، 120، 149

-تنس: 77، 121، 144، 145

-ج-

-الجزائر: 34، 35، 37، 38، 41، 42، 44، 45، 46،47،50 ، 51، 53، 57، 62، 65، 69، 71، 72، 73، 74. 75، 76، 79، 81، 84، 86، 87، 88، 92، 96، 97، 99، 100، 107، 108، 109، 110، 111، 112، 113، 114، 115، 117، 119، 121، 123، 125، 126، 127، 128، 129، 130، 131، 132، 133، 135، 137، 139، 140، 142، 143، 144، 145، 142، 143، 144، 145،155، 157، 159، 160، 161، 162، 163، 164، 165، 166، 167، 168، 169، 170، 172، 173، 174، 176،167، 177، 179، 181، 182، 183، 184، 175، 176، 187، 188، 189، 190، 191، 193، 194، 195، 196، 197، 198، 199، 200، 201، 202،203، 210،212،209،208،207،206،204، 213، 214، 215.

الجزيرة العربية: 17، 18، 28، 32، 70
-جنوب الصحراء: 100، 104، 105
-جميلة: 37، 166
-جيجل: 46، 69
-جربة: 69
-جنوة: 104

-ح-

-حلب: 104

-خ-

-خراسان: 26

-د-

-دجلة والفرات: 7، 10، 11، 12
-دمشق: 17، 20،102، 107
-دلس: 60، 97، 128

-ر-

-روما: 6، 35، 67، 167، 211
-روسيا:105

-س-

-سوريا: 7، 107، 110
-السند: 10، 11
-سامراء: 26
-سكيكدة: 37، 38، 194
-سطيف: 38، 99، 135

-سوق أهراس: 40
-السودان الغربي: 89، 99

-ش-

-شمال إفريقيا: 30، 34، 35، 36، 38، 39، 41، 42، 50، 52، 54، 55، 59، 60، 61، 63، 64، 65، 68، 70، 74، 75، 77، 84، 85، 90، 105، 107، 111، 129، 134، 138، 139، 165، 167، 168، 169، 212،204،190.
-الشرق الأوسط: 10
-الشام: 11، 18، 20، 36، 70
-شيراز: 32
-شرشال: 64، 126، 128، 166

-ط-

-الطائف: 17
-طنجة: 35
-طرابلس: 97

-ع-

-عنابة: 37، 38، 53، 78، 94،120، 121، 135، 149،147، 161، 166، 182، 183، 187، 192.
-العراق: 8، 10، 11، 12
-عين ماضي: 120، 149

-غ-

-غرناطة: 43، 44، 51، 59، 61، 71، 78، 97، 109

-ف-

-الفرس: 20
-الفسطاط: 20، 26، 29

-فرنسا: 46، 92، 105،142، 155، 161،156، 162، 165، 166، 167، 168، 170، 172، 173، 174، 180،177، 181، 182، 184، 189، 190، 196،206،207، 215.
-فزان: 35
-فاس: 64، 87، 89، 91، 150

-ص-

-الصحراء: 5، 11، 30، 41، 42، 71، 117، 135، 142، 143، 144، 170، 192
-صقلية: 22، 26، 57، 99
-الصين: 24

-ق-

-القسطنطينية: 38، 40،51 ، 53، 69، 105، 106، 133، 134.
-قسنطينة: 38، 40،53، 56، 58، 78، 85، 88، 91، 93، 94، 96، 99، 115، 116، 120، 121، 125، 126، 128، 132، 135، 136، 137، 138، 147، 149، 160، 170، 182، 185، 192، 200.
-قرطاجة: 20، 35، 37، 202
-القيروان: 20، 29، 41، 42، 150
-القاهرة: 23، 87،103، 110
-قم: 32
-قزوين: 32
-القل: 38
-قرطاجنة: 35، 77، 136
-القليعة: 77، 128، 147

-قرطبة: 87، 139
-القلعة: 99، 122، 200
-قالمة: 135، 166

-ك-

-الكوفة: 20، 26، 29، 42

-ل-

-ليبيا: 37
-لمبيز: 39

-م-

-المغرب الأوسط: 34، 38، 41، 42، 43، 45، 46، 47، 50، 51، 52،54،53، 56، 57، 58، 59، 61، 62، 64، 65، 66، 67، 68، 69، 72، 74، 75، 77، 78، 79،80، 82، 83، 84، 85،87، 92، 93، 94، 95،96، 97، 98، 99، 100، 107، 108، 109، 128، 134، 139، 140، 148.
-المغرب الإسلامي: 43، 51، 52، 54، 55، 56، 59، 60، 61، 68، 72، 73، 77، 80، 90، 97، 150.
-مكة المكرمة: 17، 18، 22
-المرسى الكبير: 52، 62، 63، 74، 75، 120، 141، 142
-مستغانم: 64،149،147، 161، 182، 200
-مازونة: 125، 126، 128، 142، 149، 160، 200
-مليانة: 46، 94،149،95
-منف: 20
-معسكر: 93، 95، 126، 128، 142، 149، 171، 200
-المدية: 119، 126، 128، 143، 144، 145، 147، 149، 183

-مصر: 4، 7، 10، 11، 20، 35، 70، 73، 87،103، 107،189، 191،204
-ما بين النهرين: 7، 8
-المدينة: 17، 18، 19، 21، 22
-منستير: 32
-مرسية: 32
-مدريد: 32
-المغرب العربي: 35، 38، 53، 61، 69، 70، 71، 72، 87،111، 168
-موريتانيا: 35
-ميلة: 38، 94، 99، 136
-مراكش: 41، 70
-المشرق العربي: 53، 69، 71، 72، 73، 85، 89، 92، 93، 104
-المحيط الأطلسي: 36، 37
-المغرب الأقصى: 36، 41، 53، 56، 57، 65، 98، 142، 183
-المتيجة: 57، 130، 144، 172
-المغرب الأدنى: 41، 53، 57، 96، 98
-موزاية: 167
-مرسيليا: 161، 172

-ن-

-نهر النيل: 10، 11، 20، 61
-نوميديا: 35، 145، 212
-النمسا: 66،105

-هـ-

-الهند: 11، 22، 26
-هولاندا: 66، 156

-و-

-وهران: 46، 52، 57، 62، 63، 64، 74، 75، 78، 88، 99، 120، 126، 128، 139، 140،141، 142، 143، 161، 172، 182، 183، 187، 192، 194، 195، 200.

-وادي الرافدين: 11، 12

-واسط: 26

-وادي سوف: 78، 120، 195

-ورقلة: 120،149

-ي-

-يثرب: د، 17، 18

-اليمن: 18، 22

فهرس القبائل والشعوب

فهرس القبائل والشعوب:

-أ-

-الأندلسيين: 41، 43، 44، 45،51، 69، 77، 78، 80، 82، 86، 97، 99، 134، 139، 144.

-الأتراك: 67، 72، 74، 76، 82، 102، 107، 118، 124، 126، 130، 131، 132، 133، 137، 138، 141، 142، 144، 145.

-الأشوريين: 12.

-الأوس والخزرج: 19.

-الأنصار: 21.

-الأمازيغ: 34.

-الأغالبة: 78.

-ب-

-البابليين: 12.

-بني أمية: 23، 31، 140.

-البربر: 34، 96، 130، 131، 139، 141، 171

-البونيقيين: 38

-البيزنطيين: 40، 84، 95، 123، 136، 165، 166، 212.

-ح-

-الحفصيين: 43، 45، 51، 52، 53، 54، 56، 57، 61، 71، 78، 84، 108، 137.

-الحماديين: 84.

-ر-

-الرومان: 7، 20، 34،35، 38، 39، 40، 42، 71، 94، 130، 136، 141، 165، 166،167، 168،169، 196، 212، 215.

-ز-

-الزيانيين: 43، 45، 51 ، 53، 54، 57، 61، 71، 78، 84، 88.

-س-

-السومريين: 11، 12.

-السانسيمونيين: 190، 191.

-ع-

-العثمانيين: 45، 50، 51، 66، 70،71، 72، 73،75، 84، 87، 89، 92، 97،100، 104، 107، 142،135،134،133،124،123،121،120،108، 144، 148، 186، 208.

-العرب: 4، 7، 14، 17، 21، 22، 23، 24، 25، 26، 31، 32، 41، 61، 96، 97، 123، 126، 129، 135، 137، 145، 158، 171.

-ف-

-الفراعنة: 11، 20.

-الفينيقيين: 20، 35، 36، 37، 38، 94، 129، 130، 139، 212.

-الفرنسيين: 76، 173،171،165،162،158،157،119،108، 180، 181، 182، 184، 189، 213، 214.

-الفاطميين: 96.

-الفرس: 20، 123.

-ص-

-الصليبيين: 55، 58، 66، 74، 75، 81، 123، 132، 148، 186،

-الصفويين: 72.

-ق-

-قريش: 18.

-ل-

-اللاتينيين: 6، 38، 40، 139.

-م-

-المسلمين: 19، 27،26،23،22،21،20، 28، 29، 30، 31،53،52،51، 55،56، 57، 59، 60، 61، 62،63، 64، 66، 67، 68،70،69، 71،74،73، 75، 77، 84،88،103، 106، 116، 123، 143، 158، 163، 185، 199، 205، 213.

-المسيحيين: 30، 45، 47، 50، 51، 53، 57، 59، 60، 62، 66، 68، 69، 71، 75، 88، 106، 134، 155، 165.

-المستوطنين: 11، 163، 178،177،174،173،172،171، 184، 188، 190، 198، 199، 202، 203،207 208،204، 209، 215.

-المهاجرين: 19، 21، 78، 79، 97، 147، 169، 170، 173.

-المصريين: 4، 7، 10، 11، 20، 35، 73، 103، 107، 189، 191، 204.

-المرابطين: 42، 53، 84، 95، 140، 146.

-الموحدين: 42، 43،51 ، 52، 53، 84، 95، 141، 146

-الموريسكيين: 44، 68، 134، 194، 195.

-المرينيين: 45، 51، 52، 53، 54، 56، 61، 141.

-المماليك: 72،108.

-ن-

-النصارى: 53، 57، 78، 97، 130.

-و-

-الوندال: 40، 172، 179.

-ي-

-اليونانيون: 7، 20، 35.

-اليهود: 19، 50، 106، 149.

القائمة البيبليوغرافية

قائمة المصادر والمراجع

أولا.المصادر والمراجع باللغة العربية:

أ. قائمة المصادر:

1. ابن منظور الإفريقي المصري، لسان العرب، المجلد 13، دار صادر، بيروت.
2. ابن خلدون عبد الرحمن (2004)، مقدمة ابن خلدون، تحقيق: عبد الله محمد الدرويش، ج3، الطبعة1، دار يعرب، دمشق.
3. ابن خلدون عبد الرحمن، ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، اعتنى به: أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، عمان، الأردن
4. الإدريسي الشريف (1957)، وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الأفاق. نشره هنري بيريس، دار الكتاب، الجزائر.
5. البكري أبي عبيد (1992)، كتاب المسالك والممالك، تحقيق أدريان فان ليوفن وأندري فيري، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
6. البغدادي صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق (1992)، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق:علي محمد البجاوي، المجلد1، دار الجيل، بيروت.
7. بن العنتري محمد الصالح (2009)، تاريخ قسنطينة، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر.
8. الزياني أبو القاسم(1991)،الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا، دار نشر المعرفة، الرباط،المغرب.
9. الوزان الفاسي الحسن بن محمد (1983)، وصف إفريقيا، تر: محمد حجي ومحمد الأخضر، ج1، الطبعة2، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
10. سعد عبود سمار (2016)، ابن حوقل دراسة تاريخية في كتابه صورة الأرض، الطبعة1، دار تموز للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق.
11. سعيدوني ناصر الدين، رحلة العالم الألماني: ج. أو. هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس (1145 هـ- 1732 م)، دار الغرب الإسلامي، تونس.
12. الشيخ أحمد بن عبد الرحمن الشقراني الراشدي (2013)، القول الأوسط في أخبار بعض من حل بالمغربالأوسط، تحقيق ناصر الدين سعيدوني، الطبعة2، البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر.
13. القزويني زكريا بن محمد بن محمود، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت.

14.كربخال مارمول (1989)، إفريقيا، ج2، مطابع المعارف الجديدة، الرباط، المغرب.
15.كربخال مارمول (1984)، إفريقيا، ج3، مطابع المعارف الجديدة، الرباط، المغرب.
16.محمد مرتضى الحسيني الزبيدي(1972)، تاج العروس، ج11، مطبعة حكومة الكويت.
17.مراكشي كاتب (1985)، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق: عبد الحميد سعد زغلول، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، المغرب.

ب. قائمة المراجع العربية:

1. أبو المحاسن عصفور محمد (1981)، المدن الفينيقية، دار النهضة العربية، بيروت.
2. أبو غنيمة زياد (1983)، جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك، الطبعة1، دار الفرقان للنشر والتوزيع، عمان، الأردن.
3. إحسان أوغلى أكمل الدين (1999)، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، تر: سعداوي صالح، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية بإستانبول، تركيا.
4. أحمد ياغي إسماعيل (1997)، العالم العربي في التاريخ الحديث، الطبعة1، مكتبة العبيكان، الرياض، المملكة العربية السعودية.
5. الأرقش دلندة والأرقش عبد الحميد، وبن طاهر جمال (2003)، المغرب العربي الحديث من خلال المصادر، مركز النشر الجامعي، تونس.
6. الأشرف مصطفى (2007)، الجزائر: الأمة والمجتمع، تر: بن عيسى حنفي، دار القصبة للنشر، الجزائر.
7. آق كوندزأحمدوأوزتوركسعيد(2008)،الدولةالعثمانيةالمجهولة،وقفالبحوثالعثمانية، إسطنبول، تركيا.
8. آل يوسف الحسيني إبراهيم جواد كاظم (2017)، مقدمة في قراءة العمارة، الطبعة1، دار الولاء للطباعة والنشر، بغداد.
9. أمير علي سيد (1938)، مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامي،تر: رأفت رياض، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة.
10.إيشبودان العربي (2007)، مدينة الجزائر تاريخ عاصمة، تر: جناح مسعود، دار القصبة للنشر، الجزائر.
11.إيلبير أورتايلي (2014)، العثمانيون في ثلاث قارات، تر: عبد القادر عبد اللي،الطبعة1، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت.
12.بقطاش خديجة(2007)، الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر (1871-1830)، دار دحلب، الجزائر.
13.بلاح بشير (2006)، تاريخ الجزائر المعاصر من 1830إلى 1989، ج1، دار المعرفة، الجزائر.

14.بن العطار أحمد بن المبارك (2011)، تاريخ بلد قسنطينة، تحقيق وتعليق: عبد الله حمادي، دار الفائز للطباعة والنشر والتوزيع، قسنطينة، الجزائر.
15.بن أبي زيان بن أشنهو عبد الحميد، دخول الأتراك العثمانيين إلى الجزائر،الطباعة للجيش الشعبي،الجزائر.
16.البهنسي صلاح احمد، عمارة المغرب والأندلس في العصر الإسلامي، جامعة عين شمس، القاهرة.
17.البهنسي عفيف (1987)، العمارة عبر التاريخ، الطبعة1، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، سوريا.
18.بوحوش عمار(1997)،التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية1962، الطبعة1، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
19.بوعزيز يحى (2007)، تلمسان عاصمة المغرب الأوسط، الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر.
20.بوعزيز يحى(2007)، سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية الجزائرية 1830-1954، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.
21.بوعزيز يحى (2007)، الموجز في تاريخ الجزائر، ج1، الطبعة 2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.
22.بوعزيز يحى (2007)، الموجز في تاريخ الجزائر، ج2، الطبعة2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.
23.بوعزيز يحى (2009)، مدينة وهران عبر التاريخ، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، طبعة خاصة، الجزائر.
24.بوطان مبارك(2011)،العمائر الدينية في المغرب الأوسط، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر.
25.بروفنساللیفي(1994)،الحضارةالعربيةفيإسبانيا،تر:الطاهرأحمدمكي،الطبعة3،دارالمعارف،القاهرة.
26.التميمي عبد الجليل (1994)، دراسات في تاريخ العربي العثماني 1453-1918، الطبعة1، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات، زغوان، تونس.
27.توفيق مجاهد حورية (1990)، الاستعمار كظاهرة عالمية، الطبعة2، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر.
28.ثروت عكاشة (1994)، القيم الجمالية في العمارة الإسلامية، الطبعة1، دار الشروق، القاهرة.
29.ج. س. كولان (1980)، الأندلس، دار الكتاب اللبناني، بيروت.
30.الجزائري عبد الحميد مسعود، حقيقة الجزائر، مكتب الجزائر للدعاية والنشر، الجزائر.
31.الجواري رائد راكان(2013)، دراساتفي الفكر الجغرافي،الطبعة1، المكتب الجامعي الحديث،الإسكندرية.
32.جوليان شارل أندري (1976)، إفريقيا الشمالية تسير، القوميات الإنسانية والسيادة الفرنسية، دار التونسية للنشر، تونس
33.الجوهري يسرى (1980)، شمال إفريقية، الطبعة6، الهيئة المصرية للكتاب، الإسكندرية.
34.الجوهري يسرى عبد الرازق(1970)، شمال إفريقية دراسة في الجغرافية التاريخية، دار الجامعة المصرية، الإسكندرية.

35.الجيلالي عبد الرحمن بن محمد (1965)، تاريخ الجزائر العام، ج1، الطبعة2، دار مكتبة الحياة، بيروت.
36.الجيلالي عبد الرحمن بن محمد (1965)، تاريخ الجزائر العام، ج2، الطبعة2، دار مكتبة الحياة، بيروت.
37.الجيلالي عبد الرحمن بن محمد (2007)، تاريخ المدن الثلاث الجزائر-المدية-مليانة، الطبعة1، شركة دار الأئمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر.
38.الجيلالي عبد الرحمن بن محمد (1994)، تاريخ الجزائر العام، ج3، الطبعة7، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.
39.حساني مختار (2009)، تاريخ الدولة الزيانية، ج2، منشورات الحضارة، الجزائر.
40.حسن إبراهيم حسن (1996)، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج1، الطبعة14، دار الجيل، بيروت.
41.حسن علي حسن (1996)، المغرب الإسلامي، شركة سفير للطبع والنشر، القاهرة.
42.حسن محمد (2004)، الجغرافيا التاريخية لإفريقية، الطبعة1، دار الكتب الوطنية، بنغازي، ليبيا.
43.الحسيني محمد الهادي(2006)،احتلال الجزائر من خلال نصوص معاصرة، مؤسسة عالم الأفكار،الجزائر.
44.حليمي علي عبد القادر (1972)، مدينة الجزائر نشأتها وتطورها قبل 1830، الطبعة1، دار الفكر الإسلامي، الجزائر.
45.خلاصي علي(2007)،قصبة مدينة الجزائر،ج2، الطبعة1، دار الحضارة للطباعة والنشر والتوزيع،الجزائر.
46.خير فارس محمد (1969)، تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي، الطبعة1، مطابع ألف باء، الأديب، دمشق.
47.داهش محمد علي، دراسات في تاريخ المغرب العربي المعاصر، الدار العربية للموسوعات، لبنان.
48.الدراجي بوزياني (2013)، ملامح تاريخية للمجتمعات المغربية، مؤسسة بوزياني للنشر والتوزيع، الجزائر.
49.دومينيك فاليرين (2014)، بجاية ميناء مغاربي (1067-1510)، ترجمة: علاوة عمارة، ج1، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر.
50. دو طوك فيل ألكسي(2008)،نصوص عن الجزائر في فلسفة الاحتلال والاستيطان، تر: إبراهيم صحراوي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.
51.رباح إسحاق (2010)، الحضارة العربية الإسلامية، الطبعة1، دار كنوز المعرفة، عمان، الأردن.
52.رمزي أحمد، الاستعمار الفرنسي في شمال إفريقية، المطبعة النموذجية، القاهرة.
53.رياض محمد (2014)، الإنسان، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة.

54.ريبوح بشير (2009)، تنظيم المجال المعماري والعمراني في المدينة الجزائرية، ج3، 2009، الطبعة1، دار مداد يونيفارسيتي براس، قسنطينة، الجزائر.

55.ريسل كميل (2016)، السياسة الثقافية الفرنسية بالجزائر: أهدافها وحدودها (1830-1962)، تر: طيار نذير، الطبعة1، دار كتابات جديدة للنشر الإلكتروني.

56.ريمون أندري (1986)، العواصم العربية عمارتها وعمرانها في الفترة العثمانية، تر: طوير قاسم، الطبعة1، دار المجد، دمشق.

57.ريمون أندري (1991)، المدن العربية الكبرى في العصر العثماني، تر: فرج لطيف،الطبعة1، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة.

58.الزيدي مفيد (2009)، العصر العثماني، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن.

59.سالم علي أحمد سالم (2011)، السيطرة العثمانية على الحوض الغربي للبحر المتوسط في القرن 16، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية.

60.سامح التر عزيز (1989)، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، تر: محمود علي عامر، الطبعة1، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت.

61.سامح كمال الدين (1991)، العمارة الإسلامية في مصر، الطبعة4، الهيئة المصرية للكتاب، مصر.

62.سبنسر وليم (2006)، الجزائر في عهد رياس البحر، تر: عبد القادر زبادية، دار القصبة للنشر، الجزائر.

63. سليماني أحمد (2007)، تاريخ المدن الجزائرية، دار القصبة للنشر، الجزائر.

64.سعد الله أبو القاسم (1982)، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، الطبعة3، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.

65.سعد الله أبو القاسم (1992)، الحركة الوطنية الجزائرية 1830-1900، ج1، الطبعة1، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

66.سعد الله أبو القاسم (1998)، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، الطبعة1، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

67.سعد الله أبو القاسم (1998)، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، الطبعة1، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

68.سعد الله أبو القاسم (1998)، تاريخ الجزائر الثقافي، ج8، الطبعة1، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

69.سعيدوني ناصر الدين والشيخ المهدي بوعبدلي (1984)، الجزائر في التاريخ - العهد العثماني-، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.

70.سعيدوني ناصر الدين (2013)، دراسات أندلسية، الطبعة2، البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر.

71.السيد محمود (2000)، تاريخ دول المغرب العربي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية.

72.شاكر مصطفى (1988)، المدن في الإسلام حتى العصر العثماني، ج1، الطبعة1، الكويت.
73.شبانة محمد كمال(2008)، الدويلات الإسلامية في المغرب، الطبعة1، دار العالم العربي، القاهرة.
74.شريط عبد الله والميلي محمد (1965)، الجزائر في مرآة التاريخ،الطبعة1،مكتبة البعث، قسنطينة،الجزائر.
75.شلبي أبو زيد (2012)، تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي، مكتبة وهبة، القاهرة.
76.شنيتي محمد البشير(1999)،الجزائر في ظلال احتلال الروماني،ج1، ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر.
77.شهبي عبد العزيز (2007)، الزوايا والصوفية والعزابة والاحتلال الفرنسي في الجزائر، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، الجزائر.
78.شوفالييه كورين (2007)، الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر 1510-1541، تر: حمادنة جمال، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.
79.شويتام أرزقي (2011)، نهاية الحكم العثماني في الجزائر وعوامل إنهياره 1800-1830، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، الجزائر.
80.الصلابي علي محمد (1998)، صفحات من تاريخ ليبيا الإسلامي والشمال الإفريقي،الطبعة1، دار البيارق، عمان، الأردن.
81.صالح لمعي مصطفى، القباب في العمارة الإسلامية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت.
82.ضيف شوقي (1995)، عصر الدول والإمارات، الطبعة1، دار المعارف، القاهرة.
83.طقوش محمد سهيل (2013)، تاريخ العثمانيين، ط3، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.
84.الظاهر عبد الباري محمد، دولة الخلافة العثمانية، زرقاء اليمامة للنشر والتوزيع، مصر.
85.عاشور سعيد عبد الفتاح وعبد الحميد سعد زغلول والعبادي احمد مختار(1996)، دراسة في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية، دار المعرفة الجامعية، القاهرة.
86.عاشور عبد الفتاح (1963)، المدينة الإسلامية وأثرها في الحضارة الإسلامية، الطبعة1،دار النهضة العربية، القاهرة.
87.عاشوراكس أحمد محمد (2009)، صفحات تاريخية خالدة، منشورات المؤسسة العامة للثقافة، الطبعة1، الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى.
88.عباد صالح (2012)، الجزائر خلال الحكم العثماني 1514-1830، دار هومه، الجزائر.
89.عباس الموسوي مصطفى (1982)، العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الإسلامية، دار الرشيد للنشر، الجمهورية العراقية.
90.عباس حمودة محمود (1999)، الوثائق العثمانية، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة.

91. عباس فرحات (2005)، ليل الاستعمار، تر: رحال أبو بكر، دار القصبة للنشر، الجزائر.
92. عبد الجواد توفيق (2009)، تاريخ العمارة والفنون، ج2، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.
93. عبد الستار عثمان محمد (1988)، المدينة الإسلامية، الكويت.
94. عبد العزيز مرزوق محمد (1965)، الفن الإسلامي تاريخه وخصائصه، مطبعة أسعد، بغداد
95. عبد الفتاح عاشور سعيد (1963)، المدينة الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوربية، الطبعة1، دار النهضة العربية، القاهرة.
96. عبد القادر نور الدين (2006)، صفحات من تاريخ مدينة الجزائر، دار الحضارة، الجزائر.
97. عثمان إسماعيل عثمان (1992)، تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى، ج1، الطبعة1، الهلال العربي للنشر والتوزيع، مصر
98. عطا الله الجمل شوقي (1977)، المغرب العربي الكبير في العصر الحديث، الطبعة1، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.
99. عقاب محمد الطيب (2002)، لمحات عن العمارة والفنون الإسلامية في الجزائر، الطبعة1، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة.
100. عقاب محمد الطيب (2007)، مدخل إلى العمارة الجزائرية قصور مدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني، دار الحكمة للنشر والترجمة، الجزائر.
101. العقاد صلاح (1993)، المغرب العربي في التاريخ الحديث والمعاصر الجزائر.تونس.المغرب الأقصى، الطبعة6، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.
102. علي محمد عمر محمد (2015)، الجغرافيا البشرية الأسس والاتجاهات الحديثة والمعاصرة، الطبعة1، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية.
103. عمورة عمار (2002)، موجز في تاريخ الجزائر، الطبعة1، دار ريحانة للنشر والتوزيع، الجزائر.
104. عميراوي أحميدة (2004)، دراسات في تاريخ الجزائر الحديث، الطبعة2،دار الهدى،عين مليلة،الجزائر.
105. عميراوي أحميدة وزاوية سليم (2009)، السياسة الفرنسية في الصحراء الجزائرية (1844-1916)، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر.
106. غلاب عبد الكريم(2005)، قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي، ج2، الطبعة1، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
107. فواز مصطفى، مبادئ تنظيم المدينة، معهد الإنماء العربي، سلسلة الكتب العلمية الميسرة.
108. فيكس ليون، الجزائر حتف الاستعمار، تر: عيتاني محمد، مكتبة المعارف في بيروت.

109. قداش محفوظ (1993)،الجزائر في العصور القديمة، تر:عباد صالح، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.
110. قداش محفوظ (2008)، الجزائر للجزائريين تاريخ الجزائر 1830-1954، تر: محمد المعراجي، منشورات المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، الجزائر.
111. قنان جمال (1994)، قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، منشورات، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، الجزائر.
112. القوزي علي (1999)، دراسات في تاريخ العرب المعاصر، الطبعة1، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت.
113. لقبال موسى (1981)، المغرب الإسلامي، الطبعة2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.
114. مارسييه جورج (2016)، الفن الإسلامي، تر:عبلة عبد الرازق،الطبعة1، المركز القومي للترجمة، القاهرة.
115. المالكي قبيلة فارس (2011)، تاريخ العمارة عبر العصور، دار المناهج للنشر والتوزيع، عمان، الأردن.
116. محرز أمين(2013)،الجزائر في عهد الأغوات(1659-1671)،البصائر الجديدة للنشر والتوزيع، الجزائر.
117. المدني أحمد توفيق (1968)، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر
118. المدني توفيق (1956)، هذه هي الجزائر، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.
119. معروف ناجي (1964)، عروبة المدن الإسلامية، الطبعة1، مطبعة العاني، بغداد.
120. مهديد إبراهيم (2006)، القطاع الوهراني ما بين 1850-1919، دار الأديب، وهران، الجزائر.
121. الموسوي هاشم عبود (2011)، العمارة وحلقات تطورها عبر التاريخ، الطبعة1، دار دجلة، عمان، الأردن.
122. مياسي إبراهيم (1996)، توسع الاستعمار الفرنسي في الجنوب الغربي الجزائري (1881-1912)، المطبعة الوطنية للنشر والإشهار، الجزائر.
123. الميلي مبارك بن محمد، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، تقديم وتصحيح محمد الميلي، ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
124. الميلي مبارك بن محمد الهلالي (1964)، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج3، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر.
125. ناجي عبد الجبار (2001)، دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلامية، الطبعة1، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت.

126. نايت بلقاسم مولود بلقاسم (2007)، شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل سنة 1830، ج2، الطبعة2، شركة دار الأئمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر.
127. نظيف عبد السلام أحمد (1989)، دراسات في العمارة الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر.
128. هلايلي حنيفي (2008)، أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، الطبعة1، دار الهدى،عين مليلة، الجزائر.
129. هلايلي حنيفي (2010)، أبحاث ودراسات في التاريخ الأندلسي الموريسكي، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر.
130. يحى جلال (1965)، العالم العربي الحديث، دار المعارف بمصر، مصر.
131. يحى جلال (1999)، تاريخ إفريقية الحديث والمعاصر، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية.
132. يحى جلال، السياسة الفرنسية في الجزائر (من 1830 إلى 1960)، دار المعرفة، القاهرة.
133. يحى جلال، تاريخ العرب الحديث، شركة الإسكندرية للطباعة والنشر، مصر.
134. يوسف صاريناي (2010)، الجزائر في الوثائق العثمانية، تر: فاضل بيات ومحمد صالح الشريف، سيستام أوفسات، أنقرة، تركيا.

ثانيا. قائمة المراجع الأجنبية:

1. De Fontaine De Resbecq (1837), *Alger Et LesCôtes D'Afrique*, GaumeFrères,Libraires, Rue Du Pot-De-Fer, 5.Paris.
2. Berteuil Arsène, l'Algérie Française, tome 1, Dentu, Libraire-éditeur , Palais Royal, ,15, Galerie Vitrée, 1856, Paris
3. Boulbène Mouadj Inès Fériel (2012), *Le Style Néo-Mauresque En Algérie*. Mémoire Pour L'obtention De Magistère, Option Patrimoine Université Montouri Constantine.
4. Braudel Fernand, *LesEspagnols En Afrique Du Nord De 1492 a 1577,*Revue Africaine.(49), 1928.
5. Ch, Picquet, (1830), *Aperçu Historique, Statistique Et Topographique Sur L'état D'Alger*, Imprimeur Du Roi, 2éme Edition, Rue D'Anjou-Dauphine, NO 8, Paris.
6. Ch, De Rotalier (1841), *Histoire D'Alger Et De La Piraterie Des Turcs Dans LaMéditerranée*,Tome 1, Chez Paulin, Libraire-éditeur, Rue De Seine, 33 Paris
7. Don Diego De Haedo, *Topographie Et Histoire Générale D'Alger*, Imprimé A Valladolid En 1612, Traduit De L'Espagnol Par Monnerau Et A, Berbrugger En 1870 in R,A No 14
8. E, Pellissier De Reynaud, (1854), *AnnalesAlgériennes*, 3éme Tome, Librairie Militaire, J, Dumaine, Libraire-éditeur De L'Empereur, Rue Et Passage Dauphin,30, Paris
9. Golvin Lucien (1985), *Le Legs Des Ottomans Dans Le Domaine Artistique En Afrique Du Nord,* In Revue De L'Occident Musulman Et De La Méditerranée, No 39,

10. H.D De Grammont (1887),*Histoire D'Alger Sous La Domination Turque*,(1515-1830), Edition Ernest Leroux, Paris
11. M.A. Lieussou (1850), *Etudes Sur Les Ports De L'Algérie*, Imprimerie Administrative De Paul Dupont, Rue DeGrenelle-Saint-Honore, 55, Paris
12. Marçais Georges (2004), *Villes Et Campagnes D'Algérie,*Edition Du Tell, Rue Des Frères Torki, 09000, Blida, Algérie
13. O.Houdas. *Ethnographie De L'Algérie*. Maisonneuve Frères Et Ch. Leclerc, Editeurs Libraires Da LaSociété D'*Ethnographie*. 25, Rue, Quai Voltaire, 25, Paris
14. Paul Bourde(1880), *A Travers L'Algérie*, G.Charpentier, Editeur, 13,Rue DeGrenelle-Saint-Germain,13 Paris
15. Voisin Georges (1861), *L'Algérie Pour Les Algériens*, Michel Levy Frères, Libraires-éditeurs, Rue Vivienne,2.bis. Paris
16. Xavier Malverti(1994), *Les Officiers Du Génie Et Le Dessin De Villes En Algérie (1830-1870),* Revue Du Monde Musulman Et De LaMéditerranée, No 73-74, Figures De L'Orientalisme En Architecture.

المقالات:

1. البوعبدلي المهدي، "الحياة الفكرية ببجاية في عهد الدولتين الحفصية والتركية وأثارهما"، مجلة الأصالة، العدد 17، 133-147.
2. بوعزيز يحى (1979)، "المراحل والأدوار التاريخية لدولة بني عبد الواد الزيانية 1236-1554م"، مجلة الأصالة، العدد 26. 3-29.
3. الحلاق ندى (2012)، "الكولونيالي في الشخصية المحلية في العمارة والعمران"، مجلة جامعة دمشق للعلوم الهندسية، المجلد 28، العدد1، سوريا.
4. سعيدوني معاوية (2016)،"أزمة التحديث والتخطيط العمراني في الجزائر جذورها واقعها، أفاقها"، مجلة عمران للعلوم الاجتماعية والإنسانية، المجلد4،العدد16،المركزالعربيللأبحاثودراسة السياسات، بيروت.
5. سعيدوني ناصر الدين (2010)، "الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لولايات المغرب العثمانية (الجزائر-تونس-طرابلس الغرب) من ق10 إلى 14هـ/ق16 إلى 19م"، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، فصلية علمية محكمة-جامعة الكويت.
6. علي إبراهيم ليلى (1970)، الفن المعماري الجزائري، سلسلة الفن والثقافة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، مطبعة التاميرا، مدريد.

7. عميراوي أحميدة (2007)، "آثار السياسة الاستعمارية والاستيطانية في المجتمع الجزائري (1830-1954)"، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 45-90.
8. المدني توفيق(1979)،"تلمسان بين الزيانيين والعثمانيين(1530-1554)"، مجلة الأصالة،العدد 26. 37-45.
9. المدني توفيق،"حوار حول كتاب 80 سنة على الجزائر العثمانية"، مجلة الأصالة، العدد 20، 223-227.
10. المعتصم محمد (1980)، "المدينة الإسلامية وخصائصها"، حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، جامعة قطر،العدد 2،220.

الرسائل الجامعية:

1. بلبراوات بن عتو (2008/2007)، المدينة والريف بالجزائر في أواخر العهد العثماني، رسالة لنيل شهادة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران.
2. بن يوسف مفيدة (2011/2010)، الجالية الأندلسية بالجزائر وتأثيراتها على المجتمع الجزائري خلال العهد العثماني القرنين السادس عشر والسابع عشر (16-17م)، رسالة ماجستير، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر.
3. سايح محمد أمجد أمين (2015)، سياسة المناطق الصناعية في مدينة نابلس في ظل التطور العمراني للمدينة، رسالةماجستير ، جامعة النجاح الوطنية في نابلس، فلسطين.
4. كعرار سميرة (2008/2007)، فن الزخرفة في المنشآت الدينية بالشرق الجزائري في الفترة العثمانية–دراسة نموذجية فنية–، رسالة ماجستير، معهد الآثار، جامعة الجزائر.

الموسوعات والمعاجم والقواميس:

1. آفندي عماد الدين (2005)، أطلس التحف المعمارية في العالم، الطبعة1، دار الشرق العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.
2. آفندي عماد الدين (2016)، أطلس حضارات العالم القديمة، الطبعة2، دار الشرق العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.
3. الباشا حسن (1999)، موسوعة العمارة والآثار والفنون الإسلامية، المجلد1، الطبعة1، أوراق شرقية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

4. الباشا حسن (1999)، موسوعة العمارة والآثار والفنون الإسلامية، المجلد2، الطبعة1، أوراق شرقية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.
5. جورج بيار (2002)، معجم المصطلحات الجغرافية، تر: الطفيلي محمد، الطبعة2، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت.
6. الخوند مسعود (1997)، الموسوعة التاريخية الجغرافية، ج8، مؤسسة هانياد، لبنان.
7. زقزوق محمود حمدي (2003)، الموسوعة الإسلامية العامة، مطابع الأهرام التجارية، مصر.
8. عبد الكافي إسماعيل عبد الفتاح (2005)، موسوعة الدول والبلدان، منتدى مكتبة الإسكندرية.
9. عبد المنعم الجميعي (2006)، الدولة العثمانية والمغرب العربي، موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية،دار الفكر العربي، القاهرة.
10. العفيفي عبد الحكيم (2000)، موسوعة 1000 مدينة إسلامية، الطبعة1، أوراق شرقية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.
11. عمارة محمد(1993)، قاموس المصطلحات الاقتصادية في الحضارة الإسلامية، الطبعة1، دار الشروق، بيروت.
12. ماليز روثقن (2007)، الأطلس التاريخي للعالم الإسلامي، أكاديميا إنترناشيونال، بيروت.
13. نبهان يحى محمد(2008)، معجم مصطلحات التاريخ، الطبعة1، دار يافا للنشر والتوزيع، عمان، الأردن.
14. صابان سهيل (2000)، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، مكتبة الملك فهد الوطنية، المملكة العربية السعودية.

فهرسالموضوعات

العنوان	الصفحة
الإهداء	
الشكر	
المقدمة	أ-ي
الفصل التمهيدي: المدن الإسلامية في المغرب الأوسط-النشأة والخصائص	**14**
المبحث الأول: تعريف المدن ونشأتها	**15**
1. تعريف المدن	**16**
2. عوامل نشأة المدن	**20**
المبحث الثاني: نشأة المدينة الإسلامية وتطورها	**29**
1. ظهور المدينة الإسلامية بعد الفتوحات	**29**
2. خصائصومميزات المدن الإسلامية	**37**
المبحث الثالث: مدن المغرب الأوسط قبل العهد العثماني	**46**
1. تأسيس المدنوتطورها في المغرب الأوسط	**46**
2. نشاط وأهمية المدن في المغرب الأوسط قبل العهد العثماني	**55**
الفصل الأول : الأوضاع العامة للمغرب الأوسط قبيل العهد العثماني	**65**
المبحث الأول: الوضع السياسي للمغرب الأوسط قبيل الوجود العثماني	**67**
1. الأوضاع الداخلية للمغرب الأوسط	**67**
2. الاحتلال الاسباني لمدن المغرب الأوسط	**75**
3. الاستنجاد بالدولة العثمانية	**84**
المبحث الثاني : حالة العمران في المغرب الأوسط قبيل العهد العثماني	**93**
1. تأثيرات الجالية الأندلسية على مظاهر العمران بالمغرب الأوسط	**93**
2. مساهمة مدن المغرب الأوسط في رصيد الحركة العلمية والفكرية	**99**
3. التنظيم العمراني في المغرب الأوسط قبل العهد العثماني	**108**
الفصل الثاني:التأثيرات العمرانية العثمانية على مدن الجزائر	**115**
المبحث الأول :العمارة العثمانية، نمط جديد أو أسلوب متجدد	**117**
1. الخصائص العامة للعمران العثماني	**117**
2. تأثيرات العمارة العثمانية على الجزائر	**122**
3. مميزات بناء المدن في الجزائر العثمانية	**128**
المبحث الثاني : التنظيم السياسي والإداري للجزائر خلال العهد العثماني	**140**
1. من جزائر بني مزغنة إلى دار السلطان	**145**
1.1نبذة تاريخية عن عمران مدينة الجزائر	**145**

2. بايلك الشرق– قسنطينة وأهميتها العمرانية	**152**
3. بايلك الغرب– وهران عاصمة بايلك الغرب	**155**
4. بايلكالتيطري– لمحة تعريفية عن مدينة المدية	**159**
المبحث الثالث: المظاهر العمرانية لمدن الجزائر العثمانية	**162**
الفصل الثالث: مدنالجزائر العثمانية بعد الاحتلال الفرنسي	**167**
المبحث الأول: السياسة الاستعمارية الفرنسية اتجاه المدن الجزائرية	**169**
1. دور السياسة الاستعمارية في طمس الهوية الجزائرية	**169**
2. تثمين الماضي اللاتيني القديم	**181**
3. أثارسياسة الاستيطان الأوروبي على مدن الجزائر	**186**
المبحث الثاني : حالة مدن إيالة الجزائر بعد الاحتلال الفرنسي	**195**
1. حالات الهدم الكلي والجزئي والتغيير في المباني والمنشآت	**195**
2. إعادة تخطيط المدنالجزائرية القديمة وبوادر ظهور المدن الاستعمارية	**202**
المبحث الثالث : تراجع نشاط المدن العثمانية في الجزائر بعد الاحتلال الفرنسي	**214**
1. انحصار نشاط المدن الجزائرية القديمة	**214**
2. انعكاسات النمط العمراني الأوروبي على المدن الجزائرية	**217**
خاتمة	**226**
الملاحق	**232**
فهرس الأعلام	**241**
فهرس الأماكن والدول	**248**
فهرس القبائل والشعوب	**262**
قائمة المصادر والمراجع	**262**
فهرس المحتويات	**262**